ناظم حكمت

التفاح الأخضر

وتليها: حق الحياة

ترجمة: أماني محمد صبحي

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

ناظم حكمت

التفاح الأخضر

وتليها:

حق الحياة

ترجمة

أماني محمد صبحي

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

أماني محمد صبحي/ مدرس مساعد بقسم اللغة التركية كلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر، ترجمت رواية "طبيب الأناضول" لأحمد حمدي تانبينار و"التفاح الأخضر" لناظم حكمت وتترجم حاليا رواية "هم أيضًا كانوا بشرًا" لجنكيز داغجي.

....

التفاح الأخضر

طبعة 2020

رقم الإيـــــداع:2020/2600

الترقيم الدولي: 6-143-821-977-978

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any from or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

الناشر

محمد البعلي

إخراج فني

علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبِّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

This is full Translation of: Yeşil Elmalar
© Nazım Hikmet- Kalem Agency

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET
elbaaly@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

حكمت، ناظم
التفاح الأخضر. تليها: حق الحياة: رواية/ ناظم حكمت،
ترجمة: أماني محمد صبحي
الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢٠
٣٢٠ ص، ٢٤ سم
تدمك ٦-١٤٣-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨
١- القصص التركية
أ- صبحي، أماني محمد (مترجم)
ب- العنوان
٨٩٤,٣٥٣

رقم الإيداع: ٢٦٠٠/ ٢٠٢٠

المحتويـات

7	**التفاح الأخضر**
249	**حق الحياة**

التفاح الأخضر

الفصل الأول

من دفتر ذكريات خالد جميل

1

المرأة التي أتت لرؤية نوري

نظرت أسفل النافذة فرأيت هناك أمام الباب مباشرة قبعة خضراء لامرأة؛ ثمة مصباح واحد يوجد في الشارع والقبعة الخضراء تقع ضمن دائرة ضوئه، حدقت؛ برنيطة ذات محيط واسع... رأتني لتوها هي الأخرى فسألتني:

– «عفوًا! هل نوري بك في البيت يا ترى؟».

كان المحيط الواسع للقبعة الخضراء يظلل وجه المرأة؛ أجبتها قائلًا:

– «لا أعرف إن كان نوري في غرفته أم لا!» ثم أردفت: «لكن انظري إلى نافذته إن كان هناك ضوء فهو في غرفته».

أدهشني بالطبع مجيء أحدٍ وبحثه عن نوري فهبطت لأسفل ووقفت بجانب المرأة وبدأت أنظر أنا الآخر إلى النوافذ؛ قالت:

– «هناك ضوء في الطابق الأوسط فحسب، هذه غرفتك على الأغلب؟».

ردت:

– «نعم؛ لكن نوافذ الطابق العلوي كذلك مضاءة إضاءة خافتة للغاية؛ افحصيها!

فربما يكون نوري في غرفته..».

لم تُعرني المرأة ذات القبعة الخضراء جوابًا، وتطلعت للأعلى شاردةً؛ كانت طويلة لكنها ليست فارعة بل طويلة بالقدر الملائم لامرأة، وشعرها -الواقع أسفل ظل قبعتها- ربما هو أصفر أو كستنائي؛ غير أن ما أثق به هو وجود ضي ذهبي لطياته، كانت هذه الشعيرات تنساب مع الطيات أسفل القبعة وتتحرك على وجنتي المرأة الشابة بنغمة راقصة دقيقة ورقيقة بشكلٍ لا يصدق، يشعر الإنسان أمام هذه المرأة بالاحترام قبل كل شيء؛ لف الصمت كلانا، ثم شرعت أنا في الحديث بغتة:

- «أنت أول زائرة تأتي لرؤية نوري طوال هذه المدة الكبيرة لذا تعجبت بعض الشيء..».

ابتسمت؛ لها ابتسامة لطيفة للغاية وامرأة مثلها لا تتبسم إلا نادرًا بالتأكيد، قالت:

- «أنا أخت نوري».

شعرت بأنها قالتها كي تعلل وجودها في هذا الشارع الضيق شبه المظلم في بي أوغلو منتصف الليل.

- «أزعجتك!».

قلت:

- «لا، ولم سأنزعج؟! بعمارتنا بواب ثمل، عادةً ما يغلق الباب ويذهب، وفي كل الأحوال كنت أنا من سيفتح لك الباب؛ لا المستأجرون الآخرون ولا نوري... في هذه الساعة..».

سكتُّ فجأة، لم تكن تسمعني بل كانت تنظر إلى الطرف الذي يصل شارعنا بطريق الاستقلال، كانت هناك سيارة تقف.

تحدثت:

- «هذه السيارة! يمكنني أن أدعها هنا؛ أليس كذلك؟».

- «بالطبع!».

قلتها بطريقة يظن معها السامعون أن السيارات الرياضية ذات الماركات الفاخرة تعبر شارعنا العتيق مرارًا.

عرضت عليها أن أوصلها بنفسي حتى غرفة أخيها فقلت:

- «الدرج مظلم كذلك، كان هذا بيتًا من ثلاثة طوابق قديمًا ثم تحول لعمارة وأخوك يقيم في غرفة وحيدة في أعلى طابق».

ظلت شاردة ولم تتعجل، بدا كما لو أنها تفكر في عدة أمور ومن ثم قالت بصوت يُسمع بالكاد:

- «شكرًا جزيلًا!».

كان صوتها عجيبًا لدرجة جعلتني أتخيل وجه امرأة ذات ملامح رقيقة، تحدثت بنفس الصوت المسموع بالكاد قائلة:

- «كم تمنيت الانتقال إلى هنا من صميم قلبي، وكم انتابني الشوق للعيش هنا! أتفهم هذا؟ هذا الشوق المبهم؟».

قلت:

- «لا أعرفه!».

تطلعت إلى وجهي بحيرة كأنما قد لاحظت وجودي للمرة الأولى وكأنها كانت تتحدث مع نفسها قبل قليل وليس معي، انتابتني الدهشة! كانت تقف أمامي ساكنة كإحدى عارضات مجموعات الموضة القادمة من أوربا؛ يداها في جيبي معطفها الجلدي الرياضي البني الغامق، والمعطف ذو اللون البني يلمع أسفل المصباح، ياقته مفتوحة أو أن أزراره لم تُزرر بالأصح ويبدو من تحتها جزء من رداء حريري قاتم اللون، لم يكن رداؤها رياضيًّا وكان ثمة فيل أحمر ضئيل للغاية في مكان بقرب صدرها، أجل، هو دبوس أحمر على شكل فيل لم يمكنني فهم سبب وجوده...

قالت:

- «لك الحق في عدم فهمه!».

لم أفهم ما تريد قوله مرة أخرى، ولم سأكذب؟!

بدأنا صعود الدرج، كنت أسير أمامها أتمسك بالجدار بيد وأشعل الكبريت وألقيه واحدًا تلو الآخر بيدي الأخرى، كان الطابق السفلي لعمارتنا خاويًا والفئران في حجراته المظلمة يمرحون الآن.

كانت المرأة التي تتبع إثري تثير في الإنسان رغبة عجيبة للمغامرة لكني كنت أتابعها بدافع الفضول فحسب، فقد أدهشني كونها أخت شخص مثل نوري.

قالت:

- «درج عمارتكم مظلم جدًا بالفعل!»، فقلت مشعلًا عود كبريت آخر على الجدار:
- «أجل! أتعلمين؟! أخبرني نوري بأن لديه أختًا لكني لسبب ما حسبتها طفلة لا تزال في عمر المدرسة».

علقت قدمها في الدرج وترنحت فأمسكتها لئلا تقع فقالت بصوت ودود للغاية ودافئ:

- «شكرًا، كدت أتدحرج... ماذا قلت؟ تتجول الفئران في الطابق السفلي على الأغلب! أأخبرك بشيء عجيب؟ أنا ونوري كدنا نصبح توأمًا بيد أنه تعجل وأنا تأخرت، بيننا فرق ساعة ونصف في العمر؛ لكننا مع هذا نعد توأمًا، أليس كذلك؟».

كنا نصعد ببطء الدرج المعتم الضيق الذي يومض مع اشتعال أعواد الكبريت وانطفائها، ولم أفهم لِم كانت تقدم لي هذه الإيضاحات غير المهمة؟

وصلنا إلى صحن درج طابقي فسألتها إن كانت قد قابلت نوري قريبًا فردت هامسة كهمهمتها السابقة:

- «لا، لم أقابله منذ أعوام، تقريبًا منذ عشرة أعوام»ـ ثم سكتت فجأة وكنا لا نزال واقفين في صحن درج طابقي الضيق؛ نتكئ بكتفينا على الجدار وإحدى قدمينا فوقه والأخرى على الدرجة المتجهة لأسفل، شردت في تفكيري وأدركت مرة أخرى أنه يجب عليّ احترام هذه المرأة كيفما كان.

قالت:

- «لا بدَّ أنك تفكر في شيء؟ ما هو يا تُرى؟».

أصاب قبعتها شعاع الضوء الساقط من باب غرفة الجلوس الذي بقي منفرجًا، فبدا وجهها متباينًا بين الظل والضي، كان جميلًا وجديًّا غير أنه كان جديًّا أكثر من اللازم، فانتابني التفكير في «أتراها عاقلة بقدر ما عليها من الجدية؟»، كان وجهها خاليًا من الألوان أما شفتاها فذواتا طلاء أحمر قانٍ في لون القرنفل القاتم، مقلتاها كبيرتان وحدقتاها متسعتان ولونهما أزرق حتى إنهما كانتا تبدوان زرقاوتين لامعتين في شبه الإضاءة هذه؛ كقطرتي مياه منبجستين من البحر الأبيض ذات صباح باكر في يوم مشمس، خطرت على بالي حكايات الأطفال فقلت لا شك أن أعين حوريات البحر اللاتي يرد ذكرهن في أغاني العالم الحديثة الجميلة زرقاء كهاتين؛ إلا أن هذه ليست حورية بحر، بل مجرد امرأة جدية للغاية وحزينة جدًّا؛ لاحظت هذا للتو.

دققت نظري فيها فابتسمت قائلة:

- «أعلم فيم تفكر!».

فقلتُ:

- «وهل بإمكاني أن أعلم أنا الآخر فيم أفكر؟».
- «أنت تحب نوري فأنت صديقه؛ أليس كذلك؟»، صمتت ثم أردفت ببطء:
- «لا بدَّ أنك الآن تفكر؛ أمن الجيد أن توصلني الآن إليه في هذه الساعة أم لا؛ أليس كذلك؟ فهو في هذه الساعة ربما يكون ثملًا أو يغط في نوم عميق بالأعلى..».
- «ليس «ربما»... بل بالتأكيد..».
- «الفتى المسكين... إنه..».
- «أعتقد أنكِ تأخرت في إنقاذه..».
- «أعلم».

ما كان بإمكاني حتى تخمين سبب بحثها وسؤالها عن نوري أخيها بعد عشر سنين،

لم يخطر هذا على بالي، فنوري كان سكرانَ؛ بل إن كلمة سكران ليست كافية لا؛ إنه سكّير، عديم الإرادة؛ بيد أنه على الرغم من كل عيوبه لم يكن إنسانًا لا يُحب ولا يُسأل أو يُبحث عنه، لا بدَّ أنه قد ارتكب ذنبًا كبيرًا لا يغتفر حتى قاطعوه هكذا، لا يمكنني احتمال غير هذا.

بينما كنت أفكر بكل هذا؛ كانت المرأة ذات القبعة الخضراء تتحدث بصوتها الحزين الرخيم بنفس الشكل:

- «وكيف بإمكاني أن أشرح لك؛ فأنا لا أستطيع.. لا أستطيع، اندفعت إلى هنا بلهفة عجيبة دون إرادةٍ مني ربما».

سكتت ثانية كما فعلت منذ قليل، وانتظرت طويلًا بصبر حتى تستأنف كلامها من جديد؛ أما هي فكافأتني على صبري الخارق هذا بابتسامة ومن ثم شرعت في الحديث بغتة:

- «أريده هذه الليلة؛ أريد رؤيته هذه الليلة مهما حدث، أرجوك يا عزيزي..».

كانت تتوسلني بالفعل في قولها «أرجوك يا عزيزي...».

- «أتوسل إليك، لأراه مرة على الأقل... لكن لو أنك تقول..».

قلت:

- «لا، أنا لا أقول أي شيء... فضلًا عن أنه من أكون أنا لأقول؟! تفضلي لنصعد إلى نوري..».

ضحكت بعصبية ثم صعدنا الدرج، كان باب حجرة نوري مفتوحًا على مصراعيه كما هي الحال دائمًا، دلفت قبلي إلى داخل الغرفة فخطت خطوتين إلى منتصفها ثم توقفت؛ كنتُ الآن بمفردي تمامًا، أمعنت النظر؛ لم تكن أخت نوري تنظر إليه...

سألت قائلة:

- «وماذا يكون هذا؟».

لم أفهم، عمَّ تسأل؟ غير أنه كانت هناك زجاجة عرق فارغة في الجهة التي نظرت إليها...

قلت:

- «زجاجة عرق!».

فردت:

- «لم أسأل عن الزجاجة!».

كان نوري في المقابل يغط فوق أريكته مبعثرًا؛ إلا إن أخته كانت -كما قلت- تنظر إلى شيء آخر داخل حجرة نوري غيره، لم تكن تنظر إليه؛ لم تكن تريد النظر إليه.

قالت:

- «يا لكثرة الكتب الموجودة هنا!».

قلتُ:

- «لنذهب، لنذهب!».

لم ترد فنظرت إلى نوري، كان ثملًا غاطًّا في النوم فانتابتني رغبة في حمل شيء وضرب رأسه به، مر زمن طويل منذ أن عرفته ولم يأتِ أي أحد ويبحث عنه؛ والآن أخته، كما أنها علاوة على هذا أخته التوأم تقف بجواره في حجرته والوغد الثمل لا يلاحظ هذا حتى! ليشرق الصباح فقط وأنا أعلم ما سأفعله به، يجب أن يتوقف عن الشراب ويصير رجلًا، كما أنه...

لم أستطع التفكير في المزيد؛ حيث سألت المرأة ذات القبعة الخضراء:

- «أشرِبَ كثيرًا؟».

- «كعادته -وشرعت في الإيضاح- يشرب يومًا وينام ثلاثة: يسقط في اليوم الأول كالعاشق المحموم، وفي اليوم التالي لا يكترث بالدنيا، أما في اليوم الثالث فلا يتحدث»».

لم يعد بإمكاني رؤية وجه المرأة فقد أعطتني ظهرها وأخذت تبعثر في الأوراق التي على المنضدة وتقرأ أسماء الكتب، باتت الآن قريبة للغاية من الأريكة التي يرقد عليها نوري وتناهى إليَّ بغتة صوتها الهامس:

- «نوري... نوري... نوري..».

لف نوري إلى يساره فسقط رأسه من فوق الوسادة وأسقط بيده الكوب الكائن فوق الكرسي الخشبي الممتلئ لنصفه بالعرق فتململ:

- «اغرب يا هذا!».

استدارت المرأة الشابة ورأيتها تنظر إليَّ بعينين حائرتين فقلت:

- «لا بدَّ أنه ظنك أنا... فأنا أرفعه من الأريكة لإيصاله لفراشه..».

ظلت يدها اليمنى على ذراع أخيها، وكان في الأصبع الثالثة بيدها البيضاء الطويلة النحيلة خاتم ذو زمردة ضخمة بديعة وكانت الزمردة التي تلمع فوق ذراع المعطف ذي اللون القاتم... تحدثت بعناية كبيرة:

- «كلانا في التاسعة والعشرين من عمره؛ أنا ونوري..».

قلت:

- «حقًّا؟ أيمكن هذا؟ فماذا كنت سأقول غير ذلك!».

لفنا صمت طويل، وظلت المرأة الشابة تنظر إلى وجهي نظرة عجيبة مبهمة ويداها لا تزالان على ذراع أخيها، ثم همست بغتة:

- «سيئ للغاية... وغريب جدًّا... هذا القدر من الشبه!».

لم أفهم لمن قالت هذا الكلام، ما هو السيئ؟ ومن يشبه من أو ماذا؟ قلت كي أخفي دهشتي:

- «حتى لو كان، فقلب نوري طاهر كالأطفال».

لم ترد فلم تعد تنظر إليّ، كانت عيناها على أخيها الراقد كالميت؛ تفكر والزمردة ما زالت تلمع.

سألت شاردة:

- «ليس له أي أصدقاء؛ أليس كذلك؟ لا توجد في حياته أي امرأة، ولا أي أحد؛

أليس كذلك؟».

قلت إنني لم أقابل بين من أعرفهم رجلًا يحب الوحدة والعزلة بقدر نوري؛ ثم استدركت:

- «أنتِ تعرفينه أكثر مني على أي حال، فبالرغم من أن دخله بسيط إلا أنه يبدده ويُذريه... ثم إنه خجول للغاية ويستحيل أن يعرض صداقته على أحد، كما أن لسُكره هكذا نصيبًا كبيرًا من خجله على الأغلب..».

- «تفضل!».

قطعت حكيي عن نوري في منتصفه والتفت فإذا بها تمد لي علبة سجائر؛ كانت علبة صغيرة فضية وبداخلها سجائر «ياقا» السوداء ومطرز على غلافها حروف ع. ج. فلاحظت تدقيقي في الشارة وقالت:

- «عائشة؛ عائشة جوكسل... تعاملك معي بود هكذا كأننا نعرف بعض منذ سنين أنساني أن أخبرك باسمي».

عرفتُّها أنا الآخر بنفسي وبعدها دخنّا السجائر لمدة صامتين ثم قالت:

- «لأذهب إذًا!».

سألتها:

- «هل أخبر نوري عن مجيئك لرؤيته؟».

حدقت في وجهي بتفكير عميق قبل أن تجيب:

- «نعم أخبره! كما أن..».

قطعت حديثها، ثم أردفت بابتسامة عجيبة أضاءت عينيها:

- «كما أن نوري قد يكون غاضبًا مني أو مستاء قليلًا بالأحرى..». كنا على عتبة باب السكير وكنت على وشك غلق مفتاح الكهرباء فقالت المرأة الشابة بصوت هادئ:

- «أستودعك الله يا نوري!»، ومن ثم التفتت إليّ متسائلة:

- «أنا ونوري آخر أبناء سلالة جوموش أوغلو، وعلينا أن نحمي بعضنا بعضًا؛ أليس كذلك؟».

قلت بجدية كبيرة:

- «بالطبع!».

تراخت يدها بالخاتم ذي الزمردة على معطفها الجلدي، فكررتُ:

- «بالطبع!»، قلتها ثم قبلت يدها ذات الخاتم، وكانت هذه اليد تفوح منها رائحة بنزين خفيفة وتبغ إضافةً إلى عطر اللاڤندر الخلاب.

2

وتحركت الفيلة الحمراء

هبطنا الدرج ببطء؛ هي في الأمام وأنا بالخلف، وبينما كان الكبريت الذي ألقيته بعدما اشتعل يسقط؛ أضاء جزءًا من جوربها الحريري في قدمها اليسرى بقرب كعبها، واختبرت بنفسي كيف يمكن أن يتحول ابن آدم فجأة لحيوان، كنا في ردهة طابقي من جديد، وكانت شبه مضاءة بواسطة الضوء المتناثر عبر باب الغرفة، قالت وقدمها على الدرجة المتجهة لأسفل:

- «أستودعك الله، وشكرًا جزيلًا لك أيضًا!».

دار في خلدي «يالها من امرأة رقيقة وودودة!»، لا بدَّ أن كومة من النار تختفي خلف هذا الود وتشتعل بداخلها، فتتحرك وهي تلمع، وكلما نظرت إليها أحسست أني أحيا على نجم آخر.

- «أستودعك الله!».

التفتُّ إليها ووقع نظري من فرجة الباب على داخل الحجرة وعبَرت كل حياة التسكع عديمة الهدف الفارغة أمام عيني ثم...

وصلت الآن إلى أصعب موضع في الحكي والإيضاح للمغامرة التي عشتها؛ موضع النقطة التي لا تغتفر في هذه المغامرة.

أود حكاية كل ما مر بي بكل تسلسله؛ لكن حل السلسلة هنا بغتة هكذا... كيف جرى؟ ولم جرى؟ كيف دخلت إلى حجرتي وكيف جلست على الكرسي؟ لا أعرف! أدعوتها أنا إلى الداخل؟ لا أعرف! فعائشة جوكسل كانت امرأة تفرض احترامها على أي أحدٍ كائنًا من كان، فعائشة جوكسل هي... ومع أني لم أتعرف عليها إلا قليلًا للغاية

ولا أعلم عنها إلا شيئًا ضئيلًا إلا أن...

... ...

تلاقت عينانا عند الخاتم ذي الزمردة البراقة الذي سقط على الأرض كأنه صدى مقابل لقبلاتنا، فأفلتت عائشة من بين ذراعي ثم وقفت وبدت عليها حالة عجيبة من الكبرياء، عيناها تائهة كأنها ضلت طريقها في مخزن مظلم؛ أما أنا فحلقي كان مشتعلًا بالسيجارة التي أدخنها، قالت بصوت مبحوح:

- «لا، لا!.. أعطني ذلك الخاتم أرجوك!».

كانت عيناها بائستين وتلوح بأصبعها بإشارة آمرة، انحنيت لتقبيل يدها، فارتجفت حين مست شفاهي يدها وشحبت كأنها مذنبة تُعذب في القرون الوسطى وشعرت بها تعتصر شفتيها، ومن ثم قالت بصوتٍ كالثلج:

- «ما حدث لا يعني أي شيء!».

قلت:

- «أعلم».

تنهدت عدة مرات بعمق، وضغطت بيدها على صدرها كأنه يتذمر، كما لو أنه كان محبوسًا مثل حيوان بري أغلق عليه القفص ثم تحرر؛ هزت رأسها ثم سكنت وثبتت فجأة كأنها زهرة قُطفت من جذرها، ظلت هكذا وفرقت أطراف قبعتها بيني وبين وجهها فصار كل منا وحيدًا ومنعزلًا...

تدلت يدها اليمنى إلى أسفل خلف الكرسي كأنها يد شاب متوفى فرفعتُ الخاتم ذا الزمردة من على الأرض وانحنيت كي أضعه لها في أصبع يدها البيضاء الأوسط كما كان، وما إن هممت بأخذه حتى قُرع الباب من الخارج، فوقفت قبل أن آخذه، قرعوا الباب مرة ثم ثانية ثم عدة مرات بقوة متزايدة، التفتُّ إلى وجه عائشة فوجدتها تقف دون حركة مثل تمثال حجري، أغلقتُ المصباح، فأضاءت الأضواء المبرقشة القادمة من الشارع داخل الغرفة، وبينما كنت أفتح الباب وأفحص طرقة السلم سمعت عائشة كأنها تهمهم بعدة أشياء لكني لم أعرف ماذا تقول أو أفهمه.

كان بوابنا السكران يتمايل على الجانبين في الردهة أمام الباب؛ فقلت:

- «ماذا هناك؟ وماذا تريد؟ كدت أن تحطم الباب..».

قال:

- «هناك خطب ما يا سيدي... تُرك الباب بالأسفل مفتوحًا على الشارع... ثم لمحت ضوءًا في حجرتكم... كما أن هناك سيارة تقف في التقاطع بين بابنا وشارع الاستقلال، فخطر على بالي أن ضيفًا جاءكم والملاحظة المعلقة في الزاوية تقول «ممنوع وقوف السيارات هنا!»..».

حقق البواب الثمل معي بإصرار نقطة الشرطة حول الضيف صاحب السيارة الذي جاءني، ومن ثم ضحكت وضحكت هي الأخرى؛ قلت:

- «»نعم السيارة لضيفي وسيذهب الآن، اذهب ونم!»..

حدّق البواب في وجهي بذهول ثم هبط الدرج دون أن ينطق بكلمة أخرى، وبعد أن خفتت أصوات قدميه الخرقاء تمامًا؛ فتحت الباب ودلفت إلى حجرتي من جديد، ثم قلت بصوت هادئ لأقصى درجة:

- «لا بدَّ أن تذهبي يا عائشة! لأن..».

توقفت؛ كانت غرفتي شبه المظلمة خاوية تمامًا، انصهر التمثال الحجري الذي تركته على الكرسي واختفت المرأة ذات القبعة الخضراء، أصابتني الدهشة، كان الخاتم ذو الزمردة يلمع على الأرض عند أقدام الكرسي الذي كانت تجلس عليه منذ هنيهة فانحنيت والتقطته.

ومن ثم أضاءت الزمردة أعماقي بابتسامة فرحة.

أشعلت المصباح فأضاء الضوء المتقد -في حجرة الجلوس- غرفة نومي عبر فرجة الباب، فنظرت وإذ بها هناك فولجت الغرفة على أطراف أصابعي.

كانت ترقد متمددة على فراشي والأجواء يعمّها الصمت الذي لفّني، ثم لاحظت حينئذ تنفسها بعمق مثل طفلة صغيرة، سعلت وكانت سعلة المعتادين على السجائر هذه... هي ما أعادني لرشدي؛ فقلت:

- «عائشة! يا عائشة!».

بيد أني لست متأكدًا حقيقةً من قولي هذا أو لا؛ لأنه لم يفسد صمت الحجرة بتاتًا كما أن عائشة ظلت نائمة.

ربما أدركت في تلك اللحظة جمالها الخلاب، كانت نائمة، والمرأة التي تجد في نفسها الجرأة على النوم هكذا هي ولا ريب امرأة خارقة للجمال، فالنوم يشوّه بشكل لا يصدق الوجوه ذات العيوب البسيطة حتى وليست القبيحة فحسب؛ أما عائشة فكانت تنام وتبدو في نومها خارقة الجمال، ترقد على جانبها والقبعة الخضراء ليست على رأسها.

رددت:

- «عائشة!».

كان شعرها لامعًا ذهبيًّا كثيفًا.

لم أستطع تحديد ماذا يجب أن أفعل وكيف سأتصرف ثم خطر على بالي فجأة أن الأمر ليس كارثة ضخمة فجلست على الكرسي عند طرف الفراش وأشعلت سيجارة.

قضيت الليلة عند شعرها اللامع كأنه وعد مجهول، وامتلأت الغرفة بعبق عطور أيام الصيف الخلابة.

كان لها أنف صغير مستقيم يتسع تجويفه وينغلق كلما تنفست، فُتح معطفها الجلدي تمامًا، نظرت؛ فإذا بخمسة أفيال من الفيل الأحمر الذي رأيته، خمسة فيلة حمر صغيرة بل متناهية الصغر في دبوس... على صدرها بالضبط؛ وكأنهم خارجين نحو رحلة مجهولة، وعند طرفي قدميها توقفت قبعتها الخضراء بجوار قبعتي.

نهضتُ دون إصدار أي جلبة ثم دنوت من الفراش كالتمثال وانحنيت، هممت بوضع الخاتم ذي الزمردة في أصبعها الأوسط؛ لكن في هذه اللحظة تمامًا مسّت شعرات -غير شعراتي- أذني وأخذت أصابع -ليست بأصابعي- السيجارة من فمي ثم ألقتها على الأرض واهتز الصدر المكتنز وقال صوت حازمٌ ساطعٌ كالشمس:

- «لا يمكنني تحمل عذاب جهنم هذا أكثر من ذلك!».

3

تعارفٌ أسفل الفنار

كنت واقفًا أسفل فنار على رصيف غلاطة أنظر إلى أضواء سفينة الشركة الهابطة المتجهة نحو المضيق؛ نشب بأعماقي حنين إلى الوطن مجهول السبب وأحسست بمذاق البحر المفتوح على شفتيّ.

اشتقت للبراح والشمس والرحاب وقبل كل شيء وقبل هؤلاء للحياة والعيش مع الشجارات والقهقهات، فتحت ذراعيّ وأخذت نفسًا عميقًا ثم جمجمت بصوتٍ مدوٍّ:

- «واها لله الحمد لقد نجوت! لن أفكر في القادم!».

- «فمبارك لك إذًا!».

أثار هذا الرد على كلامي دهشتي؛ بالرغم من أني رجل بارد الأعصاب، فاستدرت على التو وتقابلت وجهًا لوجه مع الرجل عريض المنكبين طويل القامة الذي تبدو بذلته الفراك أسفل معطفه الواسع، بدت لي ملامح وجهه من النظرة الأولى معروفة... معروفة للغاية، فحدقت بدقة كبيرة في وجهه مفكرًا: «عجبًا أين يا ترى رأيت هذا الرجل آخر مرة؟» ثم ظننت فجأة أني في حلم فقلت:

- «ما هذا؟ أأنت مرآة؟».

فهذا الرجل دون معطفه الواسع ومن أسفلة البذلة الفراك؛ كان نسخة مني، كنت سأصبح هذا الرجل، قال لاويًا شفتيه بابتسامة عجيبة لم تتناسب أبدًا مع عينيه الزرقاوين الجامدتين الباردتين اللتين تتفحصاني:

- «ياله من شبه لا يُعقل! لم أعتقد أبدًا أني كنت وسيمًا إلى هذه الدرجة».

نكست رأسي:

- «وأنا كذلك لم أرَني متأنقًا إلى هذه الدرجة!».

غمغم قائلًا:

- «حتى أصواتنا متشابهة، رغم أنهم يقولون إنه لا توجد معجزة على الأرض!».

لفّنا الصمت لوهلة وتفحص كل منا الآخر من رأسه حتى أخمص قدميه، ثم كان هو أول من بدأ الحديث بقوله:

- «أنا جوكسل؛ ربما تكونون قد سمعتم باسمي من قبل».

رددت:

- «حقًّا! يحمل العديد من الأشخاص اللقب نفسه لكني أتذكر عدة أشياء عنكم، فالجرائد كانت قد كتبت عن مجيء –لا أعرف من أي طرف من العالم– مواطن ثري فاحش الثراء مليونير إلى إسطنبول ومشاركته في استثمارات ضخمة في الأناضول، كان لقبه هو الآخر جوكسل، وحتى إنه اشترى بيت شخص –لا أعلم من يكون– في أياس باشا، فربما أنت الآخر مليونير مُحدث فجائي الثراء».

ضحك فأكملت قائلًا:

- «اسمي خالد؛ خالد جميل! وإن كنت تتساءل عن لقبي فهو «سيلمان»! أيشغل بالك ماذا يعني «سيلمان»؟ إنها لا تعني أي شيء في الواقع، ولأنها لا تحمل أي معنى وجدتها الأنسب لي أساسًا!»، أنصت بصبر كبير لهراءاتي التي استمرت لمدة طويلة ثم قال:

- «إذًا يا جميل بك سيلمان؛ ما دام أن القدر جمعنا هكذا بصدفة عجيبة فمن المؤسف ألا نستغل هذه الفرصة لأجل أن نتعارف عن قرب أكثر... فإذا لم يكن لديك عمل عاجل تعالَ لنذهب إلى مكان ونحتسي شيئًا ما سويًّا!».

ألحّت نفسي عليّ بقبول هذه الدعوة لكنها بالغت زيادة عن اللازم فانبعثت بداخلي لسبب ما رغبة في إحزانه وقلت:

- «أشكرك لكني لا أحب المشروب كثيرًا!».

ضحك:

- «قدح من العرق أو كوب من الويسكي بم يضر يا عزيزي؟!».

مرت بجوارنا في هذه اللحظة بالضبط سيارة أجرة وأشار إليها جوكسل بك دون أن ينتظر جوابي فتوقفت.

غير أنه حينئذٍ ظهر رجل بثياب رثة فاقترب بسرعة من السيارة كي يفتح بابها، وأثناء هذا كان لي أن ألقي نظرة على وجه المليونير خاصتنا بالصدفة فأصابتني الدهشة؛ كان ممتقعًا للغاية كأنما يواجه خطرًا رهيبًا وحرك يده على الفور إلى جيب بنطاله الخلفي؛ وبدا من هذه الحركة ما هو على وشك أن يفعله، ثم صرخ بصوت مبحوح:

- «قف! لا تتحرك..».

تجمد الرجل ذو الثياب الرثة الذي اندهش من قوله هذا بصيغة آمرة:

وقال متأتئًا:

- «عذرًا سيدي! أردت فتح باب السيارة..».

بدت عينا جوكسل بك كأنهما قطعتان من الفولاذ فحدق في مَن أمامه مخترقًا أعماقه ثم:

- «حسنًا حسنًا؛ خذ!».

ثم ألقى على الأرض خمسة وعشرين قرشًا على الأغلب فانحنى الرجل ذو الثياب الرثة على الأرض لأخذ النقود.

وبعد أن راقب جوكسل كل حركاته بدقة شديدة؛ فتح الباب بنفسه ثم دعاني بلهجته الأقرب للأمر:

- «تفضل؛ يا جميل بك!».

فركبت السيارة وأعطى أمره للسائق قائلًا: «اذهب للفندق الكبير!»، وبعد أن تحركت السيارة؛ ألقيت نظرة على الوراء من الزجاج الخلفي فوجدت الرجل ذا الثياب الرثة واقفًا في الظل وخُيّل لي متابعته لنا بوجه ممتقع.

أحس جوكسل بضرورة تفسيره للارتباك الذي جرى قبل قليل بينما نحن نذهب في طريقنا فقال:

- «أشعر بكراهية غريبة تجاه هؤلاء المتشردين؛ ربما تكون الشفقة عليهم هي الأكثر صوابًا؛ لكني لسبب ما لا يمكنني أن أشفق على هؤلاء الأوغاد... ولا أستطيع تحمل اقترابهم مني حتى».

مع أنه كان يتحدث بصدقٍ كبير ومن صميم قلبه؛ إلا أن التفسير الذي قدمه لم يرضِني، لقد ظن نفسه قبل قَليل بمواجهة خطر كبير حقًّا؛ فأنا أعلم جيدًا للغاية كيف تتحول حالة الإنسان عند مواجهة الخطر، وقد بدا عليه هذا التحول منذ قليل؛ لكن وما شأني بهذا! يجب عليّ تغيير الحديث؛ قلت:

- «نحن ذاهبون إلى الفندق الكبير لكن هندامي وهيئتي ليسا ملائمين للفندق الكبير كثيرًا».

ضحك وقال:

- «ليست مشكلة! لنهبط في طرف!».

كانت سيارة الأجرة ستتوقف عند باب الفندق الرئيس؛ لكن جوكسل أصدر أمره «إلى الباب الخلفي» فعبرت سيارة الأجرة من الأزقة المنزوية الخلفية للفندق الكبير، ثم توقفت ودلفنا إلى الداخل من الباب الخلفي فاستقبلنا نادل وانحنى باحترام أمام جوكسل فأمره صديقي الجديد قائلًا:

- «نريد حجرة بشرفة في الطابق الثاني!».

مررنا بأروقة كثيفة الإضاءة وصعدنا درجًا مهيبًا ثم وصلنا إلى غرفتنا.

كانت الغرفة مفروشة بأثاث عجيب يحمل ملامح أحدث صيحات الموضة؛ وكانت هناك مائدة للطعام في المنتصف وزهور في كل الأرجاء.

جلسنا متقابلين على المائدة وسألني جوكسل:

- «ماذا تشرب؟».

- «قدح عرق!».

فالتفت للنادل:

- «أحضر له العرق ولي الويسكي ثم الطعام بعد ذلك..».

انحنى النادل مجددًا ثم خرج دون أن يُحدث صوتًا كأنه شبح، أَلَاحظ الشبه العجيب الواضح بيني وبين جوكسل؛ لا أعلم! فحتى لو لاحظ ما كان ليبدي هذا على أي حال.

قلت:

- «ياله من خادم لطيف وصبي جيد! إنه واحد من النماذج الفريدة بين مجموعة الندل!».

رد جوكسل:

- «أجل؛ لكنه في الوقت نفسه أكثر من يستحق الكراهية بين هذه المجموعة..».

- «غريبٌ هذا؛ لم؟!». حدق جوكسل في وجهي بعينيه هاتين الجامدتين كالفولاذ:

- «ألا يُكره الإنسان الذي يجعل من نفسه آلة لتحقيق رغبات الآخرين من أجل كسب رزقه؟ أنا احترم اللص أكثر من هذا الصبي».

قلت ضاحكًا:

- «معك حق، إن وقع عليّ الاختيار فأنا –أيضًا– أرجح أن أكون لصًّا على أن أكون صبيًّا خادمًا».

صمتنا واستمر صمتنا لمدة طويلة وفي اللحظة التي تمنيت فيها ألا يفسد أحد هذا الصمت بتاتًا؛ سألني بغتة:

- «من أنت؟ وماذا عملك؟ وماذا تفعل؟ لدي فضول كبير لمعرفة كل هذا».

أجبت:

- «حقًّا! كأني لم ألحظ فضولك الكبير في أسئلتك هذه لهذا اجعلني أجيبك عنها دفعة واحدة».

ضحك أو بالأحرى لوى شفتيه وقال:

- «هيا افعل إذًا!».

سكت هنيهة ثم تابع قوله بصوت مفعم بالإثارة:

- «لنتحدث بصراحة: أنت تستطيع أن تقدم لي خدمة ومعروفًا كبيرًا».

سحبت نفسًا من سيجارتي وقلت:

- «حقًّا؟ كيف هذا؟“.

- «نعم حقًّا! ومن يدري فربما أفيدك أنا أيضًا».

- «ربما..».

اتكأ على المائدة ونظرت إليه محملقًا؛ كانت له يدان ضخمتان قويتان خشنتان، يدان مثخنتان وغليظتان من الأعمال الثقيلة.

قال:

- «لكني أريد أن أعرف كل التفاصيل عنك عن كثب مهما يكن؛ من أنت؟ ومن أين تكون؟».

فُتح الباب حينئذٍ تمامًا ودلف النادل إلى الداخل، فوضع أطباق المقبلات على المائدة وبينما كان يصب الويسكي المزبد لجوكسل أخذنا نتحدث حول أمور تافهة في حين توقف عقلي عند عرضه وأخذ يفكر فيه، فماذا قد تكون الخدمة التي يطلبها مني؟ وبأي صورة يعتقد أنه يمكن أن يفيدني، لا بدَّ من وجود علاقة لهذه الخدمات المتبادلة بالشبه بيننا؛ تصادفنا على المرفأ، وذلك المتشرد ذو الوجه الشاحب والثياب الرثة، ودعوته لي إلى هنا؛ كل هذا بالإضافة إلى تشابهنا الذي لا يصدق والذي أذهلني أنا شخصيًّا لدرجة شعرت معها أني داخل إحدى حكايات ألف ليلة وليلة.

على الرغم من كل هذا فكرت أنه لن يمسني سوء إن حكيت له عن حالي وعن ماضيّ، وما إن خرج النادل من الغرفة حتى تجرعت قدح العرق القابع أمامي دفعة واحدة ومن ثم بدأت الحديث:

- «عمري ثلاث وأربعين سنة».

تفرس في وجهي بدقة:

- «على الرغم من أنك تبدو أكبر من ذلك بخمس سنوات على الأقل».

قلت:

- «نعم، لكنك لو قضيت شبابك مثلي؛ وقضيت خمس عشرة سنة على الأقل من عمرك في الولايات الشرقية..».

اعترت ملامح وجهه موجة من الحيرة ما لبثت أن تلاشت فابتسم، ثم اكتنفنا الصمت ثانية فنهض من على المائدة وتوجه نحو الباب فجأة فأوصده، ثم عاد وجلس أمامي على المائدة من جديد فقال:

- «خالد جميل! بكم تقدر حياتك؟ أي أني أريد القول في مقابل أي ثمن يمكنك إلقاء نفسك في الخطر؟».

كان يتحدث ببرود وطريقة رجل الأعمال مما أثار ضحكي وقلت:

- «لا أعرف! فلو فكرت أني سأقابل حياتي بالمال كنت عقدت مزادًا على الأغلب».

حدق داخل عيني مستشفًّا أغوارها ومتكئًا على المائدة بشدة أكثر ثم قال:

- «أعطيك خمسين ألف ليرة إن فعلت ما أريده، جائزة يانصيب رأس السنة الضخمة».

4

من أنا؟

على الرغم من أني معتاد على مقابلة غير المتوقع إلا أن هذا العرض كان معجزة كاد معها عقلي أن يتوقف، فتطلعت إلى شبيهي بتقدير وحيرة مستندًا إلى ظهر كرسي وقلت:

- «لقد قدمت عربونًا مدهشًا لحياتي التي عرضتها للمزايدة؛ أخاف أن يشكل عبئًا عليك؛ أأنت واثق من دفعه؟».

أدخل يده في جيبه بدلًا من أن يجيب وأخرج محفظته الجلدية ثم وضع المال الذي أخذه منها على المائدة قائلًا:

- «هاهو ذا! خمسة آلاف ليرة إن أنت قبلت عرضي، وأما بخصوص الباقي فسأمنحك شيكًا بخمسة وأربعين ألفًا».

تطلعت بذهولٍ مبجل إلى الأموال الموجودة على المائدة كمن يتطلع إلى سائح أمريكي ثري؛ ولم يخطر على بالي ولو للحظة حتى إنهم مزيفين، احتسيت قدحًا آخر من العرق، ثم قلت بصوت قلق إلى حد ما:

- «وإن كان العمل الذي تريد مني القيام به لا يروقني إلا أنه ضروري على أي حال».

أضحكت هذه الكلمات شبيهي بقهقهة لأول مرة إلا أنها كانت قهقهة مرعبة وكامدة؛ قال:

- «نعم، فلو أني أقمت مسابقة لعمل كهذا لتقدم عدد قليل حتى في أيام البطالة هذه؛ لكني أريدك أن تقدم لي وعدًا بأن يبقى حديثنا هنا سرًّا بيننا؛ قبل أن

أوضح لك أصل الموضوع، فهل توافق؟».

قلت:

- «بالطبع!».

- «حسنًا... أصغ لي الآن! فلو أنك لم تتخذ خلال هذه الأيام بعض الاحتياطات اللازمة سأرتحل إلى الدار الآخرة بالتأكيد».

تذكرت الحادثة التي جرت في الميناء فصدقت أن ما قاله صحيح؛ وتابع:

- «لنتحدث باختصار ووضوح؛ يجب علي أن أختفي من الأرجاء لأني لو استمررت في عيشي باسمي هنا في إسطنبول سيقتلونني... إن لم يكن اليوم فربما غدًا وإن لم يكن غدًا فخلال أسبوع أو شهر أو ثلاثة أشهر؛ لكنهم سيقتلونني على أي حال، بإمكاني إطالة الأيام لكن النتيجة في كل الأحوال واحدة..».

ملأت كأسي مرة أخرى وقلت رافعًا إياه في الهواء:

- «إضافةً إلى أن الوضع واضح وبسيط كما يبدو».

لوى شفتيه بذات الابتسامة الباردة ثانية ومن ثم قال:

- «لا؛ الوضع ليس واضحًا وبسيطًا كما يبدو، فالذين يريدون إرسالي إلى الآخرة يريدون القيام بعملهم هذا بدقة كبيرة دون ترك أي أثر، وهذه فرصة لي؛ فربما أنجو هذه الليلة مثلًا كما حدث منذ قليل..».

أومأ برأسه كأنه يجيب عن سؤال لم أسأله:

- «أجل؛ واتتني الفكرة عندما قابلتك هذه الليلة أسفل المنارة، ولولا أني أومن بالقدرة الإلهية لقلت إن الشيطان قد أحضرك لي لأنه لا يمكن أن يساعدني في عملي غير الشيطان».

قلت ضاحكًا:

- «لو أن الشيطان هو من أرسلني إليك فيجب عليّ شكر حضرة قريني، فبفضله حصلت على ضيافة شراب فاخرة، لنأتِ الآن إلى موضوعنا الأصلي، ما الذي

تريده مني؟».

- «أريدك أن تحل محلي؛ وعلى التو هذه الليلة، أريدك أن ترتدي معطفي وتخرج من هنا باعتبارك جوكسل».

اتكأت ثانية على ظهر الكرسي خلفي وقلت:

- «مفهوم؛ وبعد؟».

- «أريدك أن تدخل بيتي في أياس باشا وتقيم فيه لثلاثة أسابيع، ولو بقيت سليمًا بعد هذا فأنت حر في ما تريد فعله، اتفاقنا لثلاثة أسابيع فحسب..».

- «حسنًا؛ لكن هذا غير جائز فحتى ولو كنا نشبه بعضًا لهذه الدرجة وحتى لو لم يلاحظ هذا خادموك سيلاحظه أصدقاؤك المقربون على الفور..».

- «لماذا؟ هم أيضًا لن يلاحظوا، ربما يقولون «تغيرت حاله بمرور الأيام» فقط لا غير».

- «لكني سأنضم إلى جماعة من الناس لا أعرفها ومحيط لم أعتَدْه، لا يستوعب عقلي ما تريده، ثم إنه بيتك... حتى لو لم يلاحظ الآخرون سأُفضح بسبب خراقتي».

ملأ كوبه الطويل إلى منتصفه من الزجاجة القابعة أمامه ثم اجترع جرعة دون إضافة الصودا وقال:

- «لا تخف لقد فكرت في كل هذه المخاطر وسأتدبر أمرها، كما أنه لو كانت أمامي طريقة أخرى أكنت عرضت عليك عرضًا كهذا؟».

قلت متفرسًا في وجهه بدقة:

- «حسنًا؛ لكن من يمنعني بعد أن أحل مكانك أن أستولي على مالك وأفر هاربًا؟.“

- «لا أحد، أجل؛ بخلاف الوعد الذي ستتعهد به لي لا أحد..».

صمت كلانا ثم قلت مع قهقهة قصيرة ومرتبكة بعض الشيء:

- «حسنًا؛ يمكننا الاتفاق؛ لكن لنراجع الأمر مرة أخرى لنرى إن كان ما فهمته

صحيحًا؟ سأصير جوكسل لثلاثة أسابيع مقابل خمسين ألف ليرة على أن يكون خمسة آلاف منهم نقدًا وشيك بالخمس والأربعين المتبقين، وكما يبدو أنهم سيقتلونني خلال هذه الأسابيع الثلاثة بالتأكيد؛ لكني لو بقيت سليمًا ولم أمت سأصبح حرًّا بعد ثلاثة أسابيع وسأعود خالد جميل ثانيةً».

نكس جوكسل رأسه:

- «شرحت عرضي أفض مني؛ أهنئك!».

ملأت كأسًا آخر وأخذت أحتسيه جرعة جرعة ببطء. سأحيا حياة المليونير حتى ولو لثلاثة أسابيع؛ لكن ما يجذبني إلى هذا العمل في الأصل هو كونه مغامرة، كنت قبل ساعتين أو ثلاث أشكو من حياتي الراكدة المملة... والآن يُفتح أمامي طريق مليء بالمخاطر المجهولة غير المتوقعة».

قلت:

- «لو لم يكن السؤال عيبًا فلم يريدون قتلك؟».

قطب جوكسل حاجبيه وتدلت شفتاه للأسفل ثم قال بصوت جاف:

- «هذا موضوع يخصني؛ مسألة شخصية وليس لأحدٍ غيري علاقة بهذا الأمر؛ إلا أنني أؤكد لك أنك إذا حللت محلي فلن تكون معرضًا لأي خطر آخر عدا احتمال قتلك، لا تقلق!».

أجبته:

- «لم أعد قلقًا؛ لكني لو أتيح لي معرفة من يريدون قتلك سأقبل عرضك بثقة أكبر».

تجمد وجهه مثل قناع من الحديد:

- «أنا لا أعلم من هو مع الأسف، ولو أني علمت... لا أثق في أي أحدٍ ولا في أي شخصٍ غير خادمي».

- «أي أن عليَّ أن أمكث في البيت وألا أخرج أبدًا للخارج..».

أدخل جوكسل يده في جيبه ثم أخرج مذكرة صغيرة ذات غلاف أحمر:

- «بإمكانك التحرك كما تريد بعد الأيام العشرة الأولى؛ لكن عليك أن تتبع أولًا بعض التعليمات المكتوبة في هذه المذكرة الصغيرة».

قلت:

- «أأنت واثق من أني أستطيع النجاح في هذا كله؟».

ابتسم جوكسل:

- «أعصابك سليمة، قواك العقلية في محلها، وأنا واثق من سلامة تفكيرك، كما أنه بم يضيرني فشلك؛ سأكون في كل الأحوال قد اختفيت من الأرجاء».

قلت مادًّا يدي إليه من فوق المائدة:

- «رائع! سأحاول تنفيذ قائمتك بكل ما استطعت».

قبض على يدي وظللنا هكذا لوهلة على طرفي المائدة نحدق في عيني بعضنا، ثم كان جوكسل أول من أفسد الصمت بقوله:

- «حافظ على قوة أعصابك يا خالد جميل!».

فأجبته:

- «إنها أكثر قوة من السابق».

شرع جوكسل في رسم مخطط على ورقة منزوعة من مذكرته ودنوت بكرسيَّ منه فقال:

- «أرسم لك التفاصيل الداخلية لمخطط بيتي، هنالك ستة طوابق، هنا حجرة الطعام وهنا حجرة الضيوف؛ أما حجرة النوم فمع حجرة مكتبي بالطابق الثاني فوق الحجرتين السفليتين تمامًا».

وضح لي المخطط الذي رسمه بسهولة كبيرة التقسيم الداخلي للبيت بشكل كامل، فأخذت الورقة وقلت:

- «حسنًا! أعطني الآن معلومات عن الخدمة!“.

- «لدي ثلاثة خدام؛ امرأتان وغلامي علي، كان البيت مزدحمًا أكثر لكني سرحت الباقين في الأيام الأخيرة، يمكنك الوثوق في هؤلاء الثلاثة؛ وخاصةً علي، فهو مدين بالفضل لي وهو لا ينسى ذلك مطلقًا».

قلت:

- «حسنًا! وهذا الأمر تم أيضًا؛ أي أنه إذا حسبني غلامك علي أنت لم تتبق مشكلة».

- «أجل؛ لكن هناك شيء آخر؛ زوجتي، وهي –أيضًا– يمكن أن تفسد الأمر؛ غير أنها كانت تريد الذهاب إلى يالوڤا عدة أيام فحاول أن تدبر الأمر حتى ذهابها».

- «لو يمكن أن تعطيني بضع معلوماتٍ عن زوجتك..».

عقد جوكسل حاجبيه مرة أخرى وقال:

- «لا أعلم! وماذا سأقول فلو كنت أعلم... أحيانًا يبدو لي..».

بات حاجباه معقودين وظل يعتصر قبضتيه بشدة حتى أصبح جلد كفيه الخارجي ناصع البياض؛ فتحدثت:

- «المعلومات التي قدمتها واضحة للغاية!».

تمالك نفسه فَلان وجهه ثم أخرج دفتر الشيكات وكتب لي شيكًا بخمسة وأربعين ألف ليرة:

- «ها هو ذا الشيك والنقود، سأضعهم لك داخل هذا الظرف، ها! ثمة شيء آخر كذلك، عليك أن تحاول تقليد إمضائي، أيمكنك النجاح في هذا؟».

أجبته:

- «والله إن أردت الحقيقة فلست أملك أي مهارة في هذا الخصوص، لو حاولت ونجحت بهذا فحسنًا؛ لكن ألا يوجد معك مال؟».

- «أخذت كل احتياطاتي مقدمًا بطبيعة الحال لكني أترقب الفرصة؛ لا تقلق! فلن أبقى بلا نقود».

طُرق الباب بغتة فوضع جوكسل الظرف الممتلئ بالنقود والشيك في جيبه، ومن ثم ذهب وفتح الباب الموصد.

فدلف النادل للداخل سئمًا:

- «جئت لأسألك إن كنت تريد شيئًا؛ يا سيدي!».

رد جوكسل:

- «لا؛ أحضر الحساب! دعك من الحساب وخذ هذه أولًا!». مد يده إلى النادل بأربعة ورقات من فئة الخمس ليرات:

- «الباقي لك..».

انحنى النادل باحترام وخرج حانيًا قامته فأوصد جوكسل الباب ثانية، ثم اقترب من المنضدة وقال:

- «أنا مستعد!».

خلعت ملابسي في دقيقة ووضعتها فوق الكرسي، وخلع هو الآخر ثيابه. لم يستمر تجردنا من ثيابنا واستبدالنا لهيئتنا وقيافتنا مدة طويلة؛ وبدا لي كل شيء مضبوطًا تمامًا عدا الحذاءين، فقدماه كانتا أصغر من قدمي بنصف نمرة، وبعد أن ارتديت ثيابي وأصلحت هندامي نظرت في المرآة بغرور، لم أكن «أنا»؛ أصبحت «جوكسل».

وجوكسل هو الآخر لم يعد هو في ملابسي البالية بل صار «أنا».

دنوت من المنضدة وقلت وأنا أملأ كوبه بالويسكي وكأسي بالعرق:

- «فلنشرب نخب نفسينا اللتين تبادلناها بيننا!».

ضرب جوكسل كوبه بكأسي، وحينئذٍ كانت المفاتيح والمذكرة والظرف المعبأ بالنقود مع الشيك قد صارت في جيبي.

تبادلنا النظرات مرة أخيرة ثم قال:

- «يجب ألا نخرج سويًّا! أستودعك الله! ربما نلتقي في جهنم قريبًا».

فأجبته:

- «إن كان هكذا؛ فأنا من سأرحل قبلك وأعد لك مكانًا مريحًا هناك».

أخذت معطفه البني المعلق على الجدار وابتسمت قبل فتح باب الغرفة والخروج منها قائلًا:

- «رافقتك السلامة!». ومن ثم فتحت الباب وأغلقته خلفي مندفعًا إلى الخارج.

هبطت السلالم ذاتها ثم أتيت للباب الخلفي للفندق الكبير مارًّا بنفس الأروقة المضيئة فقال لي نادل:

- «أتأمر بسيارة؟».

- «نعم!».

ألم تكن هناك أغنية تقول: «داخلي مشتعل وخارجي بارد...» كنت أنا بهذه الحالة التي تحكيها الأغنية.

جاءت سيارة الأجرة فأخبرته بعنوان بيت جوكسل في أياس باشا وتحركنا.

كانت عجلات حظي تدور كعجلات العربة دون توقف وتحملانني معهما نحو المغامرة المجهولة، فربما أموت الليلة أو غدًا أو بعد عشرة أيام –ومن يدري- مطعونًا بسكينٍ في ظهري أو برصاصة من مسدس دون أن أعلم حتى من أطلقها؛ لكنني رجل وأي رجل! أخرجت مخطط البيت الذي رسمه جوكسل وتفحصته مرة أخرى؛ ها هي حجرة النوم في الطابق الثاني ونوافذها تطل على باحةٍ تشبه الميدان.

توقفت السيارة فجأة، كنا أمام منزل ضخم؛ عجبًا أهو ذا؟! أم أن السائق أخطأ؟

ارتجلت من السيارة وأعطيت السائق ماله فذهب.

5

«كوني زوجتي يا عائشة...»

وقفت أمام الباب مترددًا لوهلة؛ ثم أدخلت المفتاح في الكالون فدار بيسر وفُتح الباب دون صرير فتنفست الصعداء وقفزت مجتازًا العتبة.

وجدت نفسي في بهو ضخم وفسيح محاط بالأعمدة ومضاء، أضواء المصابيح الكهربائية المخبأة في رؤوس الأعمدة تتوهج لامعة، شجر النخيل بداخل المزهريات اليابانية الضخمة، مقاعد السختيان الحمراء الفارهة في الزوايا، لم يكن تأثير بيتي الجديد سيئًا أبدًا عليّ.

عبرت البهو، فتحت بابًا وخطوت أول خطوة على الدرج الصاعد للطابق العلوي، صدرت قرقعة في الجانب الآخر فتوقفت واستدرت ناحية الجانب الذي صدرت منه؛ كان أمامي رجل في الخامسة والأربعين من عمره متوسط الطول يبدو لطيفًا ويرتدي ثيابًا سوداء.

فحدثت نفسي «لا بدَّ أن هذا علي!».

نزعت قبعتي وسألته قائلًا:

- «أهناك رسالة أو ما شابه؟».

حدق في وجهي بدقة.

ألاحظ شيئًا يا تُرى؟ أأحس بتغيير في سيده؟ لا بالطبع؛ فلديه غاية أخرى. أن يدنو مني ويأخذ القبعة من يدي ويساعدني في خلع معطفي.

- «وضعت الرسائل التي أتت في حجرة مكتبكم يا سيدي!».

- «حسنًا..».

صعدت الدرج فتابع من ورائي:

- «أتأمر بويسكي يا سيدي؟».

لا أحتسي الويسكي أساسًا وليست بي القدرة على شرب أي شيء خاصةً بعد العرق الذي تجرعته كأسًا تلو الأخرى في الفندق الكبير؛ لكن المعروف أن جوكسل كان يشربه كل يوم قبل النوم.

قلت:

- «نعم؛ أحضره للأعلى..».

صعدت السلالم المغطاة بمشاية موبرة ألوانها لافتة للنظر، ها هو ذا باب المكان الذي أشار له جوكسل في المخطط الذي رسمه باعتباره حجرة المكتب، فتحت ودلفت للداخل... ثمة ضوء لطيف يكتنف الحجرة؛ لم أرَ في حياتي حجرة مؤثثة بفراش مريح مثلها، ربما لجوكسل عدة عيوب؛ لكن لا يمكن إنكار براعته في التوفيق بين الذوق السليم والرفاهية، كان مكتبه فاخرًا، به مكتبة، وفي ما يبدو...

طُرق الباب فدخل علي بالصينية في يده ووضعها فوق الطاولة المستديرة المنخفضة الموجودة في الركن ثم انسل وذهب للخارج بخطوات هادئة كما دخل.

مررت إلى رأس المكتب وتوقفت، كل شيء يسير حاليًا في مساره، تمخض في أعماقي شعور عارم بالسعادة نتيجة وظيفتي الجديدة، ورغبت في الضحك وإطلاق القهقهات، ولو أني كنت متأكدًا من عدم مجيء علي لأطلقت القهقهات...

أخرجت المذكرة التي أعطاها لي جوكسل وأخذت أقرأ التعليمات المكتوبة المتعلقة بالعمل، كنت أقرأ من جهة ومن جهة أخرى أمسك بمرآة فضية وأقلبها بين يدي.

صدرت قرقعة خفيفة لكنها خفيفة للغاية، خفيفة لدرجة أنه لم يكن يستطيع سماعها غير أذني الحساسة فقط، تطلعت في المرآة التي بيدي دون أن أتحرك.

تحركت سجادة إسبرطا[1] الكبيرة التي تغطي الباب في الطرف الجانبي، توترت أعصابي، فنظرت في المرآة، وأخذ قلبي ينبض كأنما سيُقلع من موضعه، كان ينبض

1- هي مدينة تقع في مقاطعة لاكونيا في جنوب اليونان.

بسرعة لدرجة كاد معها أن يتهاوى داخل أعماقي كورقة نُزعت من فرعها.

ثم فُتحت السجادة أو بالأحرى رُفع طرفها ودخلت إلى الحجرة امرأة شابة؛ لكنها دخلت دون إثارة أي جلبة أو محاولةً عدم إحداث أي صوت، كانت شاحبة ونصف وجهها مغطى بالحواف المنسدلة من القبعة؛ لكن ومع أني لم أرَ غير نصف وجهها في المرآة؛ إلا أنها بدت لي جميلة بشكل لا يُعقل، توقفت ثانية ثم ظهر في يدها مسدس صغير وجهته نحو مؤخرة عنقي مباشر.

قذفت بنفسي على الأرض، كان يجب أن أكون ملقى على الأرض في لحظة إطلاق النار بالضبط؛ ومع أني لم أسمع صوتًا غير أن جو الحجرة تزعزع واخترقت الرصاصة التي كانت متجهة نحو رأسي منذ قليل؛ خشب المكتب.

كانت تجيد التصويب كما يجب؛ لكني لم أمنحها فرصة كافية لإظهار مهارتها، قفزت من مكاني فورًا فانقضضت عليها مثل الصاعقة وأمسكت بيدها، لم تواجهني وقذفت بمسدسها على الأرض على التو، وقفت مقابلي وعيناها مذهولتان من الرعب وفرط الإثارة، فأمسكتها بيدٍ ورفعت المسدس باليد الأخرى، كان مسدس رش يمكنه قتل إنسان من على بعد مئة متر؛ ولهذا لم يُخرج صوتًا حين إطلاقه منذ قليل، وضعته في جيبي وتركت يدها ثم تراجعت لخطوتين أو ثلاث للخلف وقلت بلهجة لطيفة:

- «هلا تفضلتِ بالجلوس!».

ردت على عرضي هذا بطريقة غريبة، حيث ترنحت مجهشة بالبكاء، ثم تهاوت على الأرض مخفية وجهها بيديها مثل زهرة كُسرت ساقها.

قلت في نفسي «لم يكن هذا في الحسبان!»؛ إلا أني ما كنت أستطيع تركها في هذه الحالة أيضًا! انحنيت واحتضنتها ثم وضعتها على الأريكة.

جرت كل هذه الأمور بسرعة وعلى حين غرة لدرجة أني لم أجد الوقت للتذكر أو للتفكير بأي شيء؛ ثم بدأ عقلي يعمل كالمُحرك فذهبت على التو وأوصدت باب الغرفة، فمن الممكن أن يأتي علي أو أحد الخدام في أي لحظة.

عدت إلى جوار ضيفتي المنزعجة الراقدة على الأريكة وحدقت في وجهها؛ كانت هذه عائشة!

أنا إنسان مر عليه الكثير من الأمور؛ لكني أعتقد أنه لن يمر عليَّ ولا على أي أحد غيري شيء بهذا القدر وبهذه الكيفية.

كانت المهمة الأولى إيقاظها.

أفرغت أربع أو خمس جرعات من زجاجة الويسكي في الكوب الطويل ثم فرجت في ما بين أسنانها وأرقتهم في فمها، ظهر تأثير الشراب الجلي على الفور فتورد وجهها قليلًا وأخذت نفسًا عميقًا ثم فتحت عينيها، وحين شعرت بأني أرفعها لأعلى من وسط خصرها بذراعي نفضت يديها فتخلصت من حضني واستلقت على ظهرها فوق الأريكة.

لا يمكنني القول إن هذه الحركة لاقت إعجابي؛ لكني لم أكن في وضعٍ يسمح ببحث مدلولها، قلت محاولًا الابتسام:

- «كيف حالك؟ أصرت أفضل؟».

رمقتني بكره واشمئزاز شديد حتى إني قفزت من على الأريكة:

- «استدعِ الشرطة هيا! ما يوقفك؟!».

قالتها بصوت أجش كأنها صفعات، فنصبت نظري أمام عينيها بعندٍ:

- «وما علاقة الشرطة بهذا الأمر؟ سأستدعي غدًا نجارًا؛ وليس الشرطة؛ لتصليح المكتب..».

تناهت من الخارج أصوات أقدام؛ قبل أن أكمل جوابي هذا، ثم طرقوا الباب برفق، فصحت قائلًا:

- «من هناك؟».

قبضت عائشة على يدي؛ أجل لم تمسك بها بل قبضت عليها، وأتى من الخارج صوت علي يرجو المعذرة:

- «إنه أنا يا سيدي! صدرت جلبة من حجرتكم فظننت وقوع شيء على الأرض فجئت لربما يكون لكم طلب».

ترددت في البداية ومن ثم سرت إلى الباب مع عائشة التي ما زالت تقبض على يدي بشدة ففتحته بكيفية لا يستطع علي معها رؤية ما جرى داخل الغرفة؛ أما عائشة فتعلقت وتشبثت بي بشدة.

قلت:

- «ليس هناك شيء؛ يا علي! بينما كنت أعبث في مسدس الرش أطلق النار بغتة واخترقت رصاصة المكتب، استدعِ غدًا نجارًا واجعله يصلحه! ها انتظر! نسيت أن أسألك عن شيء، هل أتى أي أَحد وأنا لست في المنزل؟".

- «لا يا سيدي!».

- «حسنًا! هيا اذهب أنت الآخر ونم! وأنا ربما أنزل إلى الشارع ثانية بعد قليل كي لا تسمع أصوات أقدام وتحسبه لصًا أو ما شابه... ليلة سعيدة!».

- «لكم أيضًا سيدي!».

ذهب علي، فتنفست عائشة الصعداء كأنما تخلصت من حمل كبير ونظرت في وجهي فقلت حانقًا:

- «هيا اذهبي أنت كذلك للنوم، ليلة سعيدة لك أيضًا!».

لم ترد على الفور، صمتت لحظة، ثم وضعت يدها المرتجفة في يدي قائلة:

- «ليلة سعيدة!».

أحسست بلمسة أصابعها الطويلة النحيفة في كل جسدي؛ هذه الأصابع التي كانت سترسلني إلى العالم الآخر منذ هنيهة، سرت في أعماقي لذة حارة تفوق الوصف فهمهمت:

- «كوني زوجتي يا عائشة!».

تطلعت بحيرة لوجهي المتوسل:

- «أكون ماذا؟!».

- «زوجتي يا عائشة!».

- «ماذا؟ أأنت؟».

- «نعم أنا... ما زلت أذكر الليلة التي جئت فيها إلى حجرتي؛ نعم... لا تنكري! تلك الليلة التي أتيت فيها لرؤية أخيك نوري..».

- «أنت؟ كيف؟.. أي أنه أنت بالفعل... أنت..».

قبضت على يدي ثانية وحدقت في وجهي بانفعال وإصرار:

- «أي شبه مرعب هذا!.. إما أنك لست هو؛ أو أنك تريد أن تعرفني بنفسك على اعتبار كونك شخصًا آخر؟! لا أنت لست أحدًا آخر؛ أنت جوكسل».

تركت يدي برعب وخرجت من الحجرة مهرولة.

فهمت الآن كل شيء؛ ولِمَ بدت لي كنية جوكسل مألوفة؟ إذًا فعائشة زوجته...

جلست في الزاوية على المقعد وكان أول ما فعلته أن تجرعت نصف كوب من الويسكي دفعة واحدة دون إضافة صودا أو شيء آخر، راودني شعور بالحاجة الماسة للشرب... وجال بخاطري «لو استمرت الأمور على هذا المنوال سأصير سكيرًا نهاية الأسابيع الثلاثة!».

استعدت نفسي شيئًا فشيئًا؛ لم أمت بعد وما زلت حيًّا، لا حق لي الآن في التذمر من أي شيء بل على العكس؛ فعائشة معي تحت نفس السقف.

صببت نصف كوب آخر لكن مع الصودا هذه المرة.

قال جوكسل: «لا أجد لدى كثير من الناس الرغبة في حل محلي!»؛ كان محقًّا، فما مر بي هذه الليلة كان مجرد بداية لكننا لو نظرنا إلى هذه البداية لوجدنا أنه من الصعب إلى حد ما القطع بما سيجري في الأيام القادمة.

راودني النوم وكانت عيني ستغمض؛ إلا أنني نهضت وذهبت إلى حجرة نومي.

كانت حجرة ضخمة؛ ضخمة للغاية، وبها فراش فاره لا يقل في ضخامته عن ضخامة الحجرة.

تجولت بالحجرة أو بالأحرى عاينت كل أرجائها، كان كل ما فيها بديعًا وخارقًا

للعادة؛ بيد أني –ولسبب ما– لم أكن أود مضاهاته بامرأة رائعة خارقة للعادة أو بأخرى من جنسها.

أغلقت الباب برفق ثم ارتديت بيجامة جوكسل الحريرية؛ وبينما كنت في طريقي للنوم راودني خاطر بالنظر إلى الخارج من النافذة؛ كأن ثمة إلهامًا يدفعني لهذا، فسرت إليها وفتحت الستارة الخارجية المصنوعة من الحصير الياباني ثم نظرت.

كان هناك ظل رجل في الأسفل يسير بسرعة من الأرض المشجرة الخاوية خارجًا إلى الشارع.

أغلقت الستارة وأطفأت المصباح وذهبت للتمدد على سريري. رقدت على ظهري والسيجارة في فمي حتى انتهت السيجارة فأطفأتها.

لأنم الآن!

استدرت إلى يميني وما إن هممت بغلق عيني... ثمة شخص وراء النافذة الثانية المفتوحة؛ قبل أن أجد الوقت للقيام بأي حركة قفز الرجل من وراء الستارة إلى داخل الغرفة وفي أقل من الثانية شعرت بأصابعه حول حلقي فكان يضغط على حلقي من جهة ومن جهة أخرى يقول بصوت أجش:

- «لا تفكر بأن تصرخ وإلا..».

وهل كنت في حال يسمح بالصراخ أساسًا!

انحنى عليّ تمامًا، وتحت سنا القمر الضارب إلى الزرقة الذي يخترق النافذة التي بقيت ستائرها مفتوحة؛ رأيت وجهه جيدًا وأصابتني الدهشة، فقد كان هذا وجه صديقي القديم. خرج صوتي متحشرجًا:

- «نوري! أهذا أنت يا نوري!».

- «أجل أنا نوري! يعني هذا أنك تعرفني أيها الكلب الطائش!».

- «توقف يا نوري! انطلقت صرخة من بين أصابعه التي تطبق على حلقي كاد معها صديقي القديم أن يفرغ مسدسه الذي أخرجه من جيبه بعناية في منتصف عنقي كي يوقفها».

- «توقف يا نوري! ماذا تفعل؟! أنا صديقك القديم خالد جميل!».

تراخت أصابعه قليلًا.

- «لا تتكئ علي لهذا الحد ستخنقني يا هذا!».

تخلت يداه عن محاوطة عنقي فتنفست الصعداء وقلت:

- «هل تذكر؟! كنت قد أخبرتك قبلًا أني أحضرت أختك عائشة حتى غرفتك».

حدق في وجهي مطولًا دون ملل أو سأم؛ أعلم طبعه هذا فهو بطيء الاستيعاب؛ لكنه فهم في النهاية على أي حال!

- «ماذا! أتقصد أنك جميل؟».

- «نعم، جميل؛ خالد جميل!».

- «حسنًا فليكن! إن كنت أنت جميل فقم ولنذهب عندنا ونفهم هناك جيدًا أصل الموضوع».

لم يدع لي وقتًا لشرح ما جرى أو قول «فلنتحدث هنا!» فعين مسدسه العمياء لا تزال مصوبة نحوي. ارتديت ملابسي في دقيقة، ثم قال:

- «هيا اهبط الآن من النافذة وسآتي في إثرك».

هبطنا من النافذة دون أن يرانا أحد، وفي الطريق لم ينبس نوري بشفة؛ غير أنه كان بين الفينة والأخرى يمس خصري بماسورة مسدسه.

وصلنا إلى عمارتنا، وذهبت كل شكوك نوري بعد صعودي الدرج المظلم دون أدنى وحشة وولوجي حجرتي بطمأنينة.

جلسنا متقابلين، أخرج من جيبه زجاجة عرق ثم حدق في؛ فقلت:

- «هيا احكِ!».

لم يرد؛ بل هب على قدميه بغتة وقال ممسكًا كتفي بيديه:

- «أأنت جميل حقًّا؟!».

قلت:

- «نعم!».

- «إن كان هذا بالفعل فأستودعك الله!»، قالها ثم خرج صديقي الوسيم هذا من الغرفة هازًّا كتفيه دون أن ينسى أن يأخذ معطفي البني ويرتديه.

كان أول ما خطر على ذهني الركض وراءه وأخذ المعطف لكني تراجعت لاحقًا، فقد كنت أعلم من طبعه أن الشيء الذي يأخذه لا سبيل لإعادته؛ فمع أنه لائق بي كثيرًا... شردت في التفكير فجأة... المعطف... ظلت المذكرة مع المفاتيح التي أعطاها لي جوكسل في جيبه وأخذهم نوري معه، كيف سأعود الآن إلى القصر، كيف سأدخل بيت جوكسل؟ ماذا بإمكاني أن أفعل؟ إنه ليس في غرفته بالتأكيد كما أنه لم تعد بي قدرة على الحركة؛ فأنا متعب حد الموت، أتخيل أمامي سريري يفتح لي ذراعيه البيضاء الناعمة ويدعوني «تعال! تعال!».

أدخلت يدي في جيبي، كان ظرف النقود والشيك الذي منحه لي جوكسل فيه فأخرجته ووضعته أسفل الوسادة ثم تمددت على الفراش وما لبثت عيناي أن ذهبتا في النوم...

6

لا أنتظر هذا

فتحت عيني كأني أستيقظ من كابوس مرعب، والشيء الوحيد الذي جعلني أصدق أن كل ما جرى معي بالأمس حقيقة؛ هو الظرف الراقد تحت وسادتي.

يحاسب أكثر الناس أنفسهم في الصباح هادئين؛ ووفقًا لهذا حاولت أنا الآخر مراجعة ما مر عليّ منذ مقابلة جوكسل ليلة البارحة بهدوء، أولًا: وفقًا لعمليتي الاغتيال اللتين مررت بهما في ليلة يصل عدد عمليات الاغتيال خلال هذا الأسبوع إلى 14؛ وبنفس الحساب يصل عدد عمليات الاغتيال في الأسابيع الثلاثة الأخيرة إلى 42، وبحساب الخمسين ألف ليرة التي أخذتها من جوكسل فكل عملية اغتيال تتكلف 1190 تقريبًا؛ لكنه ليس في حوزتي غير خمسة آلاف ليرة فقط سلفًا.

لم تكن نتيجة حسابي لامعة كثيرًا فقد فقدت المذكرة مع المفاتيح في النهاية، انطفأت الرغبة في العودة إلى منزل جوكسل في قلبي، وجب كسر الاتفاق، تنفست الصعداء، قفزت من الفراش فعلقت ثياب جوكسل في الدولاب وارتديت إحدى ثيابي.

ارتحت؛ والإنسان ما إن يرتاح يشعر بالجوع على الفور، بطني جائع بشكل مريع، ظهر التأثير الأول لمغامرتي ليلة البارحة في معدتي.

ما إن وضعت ظرف المال في جيبي حتى أخذت نفسي لأقرب مطعم على الفور، لم يكن هذا مطعمًا بل محل طباخ فحسب على الأرجح؛ رغم هذا أخرجت ورقة، أمسكت بجزء من الخمسة آلاف خاصتي؛ وتوثقت منه رغم هذا فيمكن أن تكون هذه الورقة بخمسين ألف ليرة؛ لذا تركت تمثيل دور المليونير لأنه يجب أن ألقي نظرة على المال الذي أخرجته من جيبي، ألقيت نظرة واتسعت عيناي كأنها حجر فأل، وكيف لا تتسع فالأوراق التي بيدي لم تكن نقودًا تركية، وبفحص بسيط تبين أنها نقود إنجليزية،

انخلع قلبي عندما دققت أكثر فقد كانت الورقة التي بيدي تعادل مليون إسترليني بالضبط؛ أجل، مليون إسترليني! أول ما قمت به إخراج الظرف، تفحصته، ولم يكن به شيء آخر.

الحكاية كما أتذكرها أنه بينما كان جوكسل في الفندق الكبير يمد إليّ الظرف ولج النادل الغرفة حينئذ بالضبط، وبعد أن خرج أعطاني حضرة المليونير ظرفًا آخر بالخطأ؛ الظرف الذي بداخله مليون إسترليني...

ماذا يجب عليّ فعله الآن؟ يجب عليّ أن أذهب وأعطيه المال؛ غير أني لم أتحرك من مطرحي، فقد كان الطباخ واقفًا أمامي يحملق في النقود، شعرت بأنه يلزمني الإيضاح على الفور، وأساسًا ليس في حوزتي ما أقدمه له غير الإيضاح فلا يوجد لدي أي نقود غير المليون إسترليني.

قلتُ:

- «هذه مليون ليرة إنجليزية، خذها وفكها فخذ منها دينك وأحضر الباقي! حيث إنه لا يوجد معي غير هذه».

حدق الطباخ في وجهي بحيرة؛ ربما ظنني محتالًا أو حسبني أسخر منه.

قلت:

- «أنا لا أمزح، ليس معي نقودًا غير المليون ليرة إنجليزية».

كان يجلس على المائدة الخشبية التي بجواري رجل سمين أصلع الرأس، ولاحظت أنه يرهف سمعه للحديث الدائر بيني وبين الطاهي أو بالأحرى لحديثي ولإنصات الطاهي لي ببلاهة، وفور قول الطاهي بأقصى درجات الاحترام:

- «لا تمزح يا سيدي!». نهض من مكانه وأتى إلى جوارنا ثم قال:

- «أنا سمسار في بورصة الأوراق النقدية وأفهم في مثل هذه الأعمال؛ دعني انظر في تلك الأوراق النقدية!».

مددت إليه المليون فأخذها وأخذ يقلبها في يده، اصفر وجهه في البداية واحمر ثم ابيض تمامًا وقال في النهاية بتبجيل مؤمن لسانه عامر بذكر الله:

- «أجل، هذا مليون إسترليني، لم تتسنَ لي رؤيتها من قبل؛ لكني موقن أن هذه مليون جنيه إسترليني، تفضل ياسيدي!».

رد لي النقود واستدار للطاهي ثم قال:

- «كم يبلغ دين البيك؟».

- «اثنين وخمسين قرشًا ونصف..».

- «خذ!»، ثم استدار إليّ مرة أخرى وهو يعد الاثنين وخمسين قرشًا ونصف في يد الطاهي وقال:

- «لتكن دينًا عليكم يا سيدي! خادمكم يعمل في مكتب «......» في الطابق الأوسط لدار الوقف الرابع، إذا احتجتم أي طلب..».

قلت:

- «والله! لا أعلم إن كنت سأطلب منكم شيئًا أو لا؛ لكن كن واثقًا من أني سأعيد لك الاثنين وخمسين قرشًا ونصف دينك في أول فرصة».

ضحك ملأ شدقيه:

- «آهٍ يا سيدي! وهل يمكن الحديث عن اثنين وخمسين قرشًا ونصف؟!».

لم أرد وماذا كان بإمكاني أن أقول! مددت يدي فقط فأحاط بها وشكرته مرة أخرى ثم وضعت المليون في جيب قميصي وخرجت من المطعم مزررًا أزرار معطفي.

يجب عليّ الآن الذهاب والعثور على جوكسل وإيضاح الخطأ الذي ارتكبه له وإلا فمن الممكن أن تحوم الشرطة من حولي جراء هذا.

كنت مضطربًا زيادة عن اللازم، ومع أني لم أكن قد ارتكبت أي خطأ أو ذنب إلا أنه لا يمكنني القول إني غير خائف، أعرف الناس جيدًا؛ والأغنياء على وجه الخصوص، إذا أعطوا لمتسول خمسين قرشًا بدلًا من خمسة قروش سهوًا فإنهم لا ينفكون عن سبه عوضًا عن الغضب من سهوهم.

كان غضبي قد هدأ بعض الشيء حين وصلت لباب منزل جوكسل، كانت العربات

الخاصة تصطف أمام أبواب العمارات المرتفعة في شارع أياس باشا المشجر الفسيح مثل السلاحف الضخمة الملونة في قيلولة الظهر...

رننت الجرس ففتح علي الباب، وكانت قبعتي مائلة إلى الأمام بقدر أخفى نصف وجهي فسألته:

- «هل جوكسل بك في البيت؟».

لم يعرفني في الأغلب؛ أجاب بصوت ناعس ومتجهم:

- «لا، ذهب..».

- «أذهب؟ إلى أين؟».

- «إلى الأناضول لأجل أعماله».

- «إلى أين في الأناضول؛ أنقرة أم قيصري أم إزمير؟».

- «لا أعرف!».

- «ومتى سيأتي يا تُرى؟».

- «ربما بعد شهر!».

- «أبعد شهر؟! لا يمكن هذا! أيمكنني أن أبعث له برسالة؛ يا تُرى؟ لأجل أمرٍ مهمٍّ للغاية! مسألة حياة أو موت، أتفهم؟!».

- «لا فائدة سواءً فهمت أم لم أفهم؛ لأني لا أعرف إلى أين ذهب؟».

- «ما دام هذا فهل يمكنني مقابلة الهانم زوجة جوكسل بك؟».

- «وهذا أيضًا غير ممكن».

- «لم؟».

- «لأنها ذهبت هي الأخرى؟».

لم تكن هناك جدوى من السؤال عن أين ذهبت عائشة ومتى سترجع؛ لأن الجواب الذي كنت سأتلقاه أيضًا: «لا أعلم! ربما بعد شهر، وسواء فهمت أم لم أفهم فلا فائدة!».

شكرت علي ثم ابتعدت نحو الجهة المقابلة للبيت.

أعرف امرأ معتوهًا كان يتجول باستمرار مرددًا بصوت جهوري «الحال كرب يا الله!»؛ خطر على بالي فجأة ووجدتني أغمم دون أن أدرك «الحال كرب يا...».

الحال كان كربًا بالفعل، ليس بوسعي أن أصير جوكسل مرة أخرى لأن نوري أخذ المعطف البني ومعه المذكرة والمفاتيح ورحل بهم، هب أني تراجعت عن القيام بدور جوكسل فالعيش كخالد جميل –أيضًا– مشكلة حيث لا يوجد بجيبي ولا قرش سوى المليون إسترليني.

كان ما توصلت إليه بعد ساعة من التفكير كالتالي:

لا شك أنه كان لدى جوكسل خطة وأنه يلعب بي؛ لكن ما هي ماهية هذه الخطة واللعبة؟ مجهولة! إذًا فلنُنَحِّ هذا جانبًا.

راهن عليّ جوكسل مع أحد أو مع آخرين؛ لكن ما كُنه هذا الرهان؟ مجهول! إذًا فلننحِّ هذا أيضًا جانبًا.

بقيت أعمال يتوجب عليّ القيام بها على الفور بعد التخلي عن هذين الاحتمالين، لآخذ المليون إسترليني وأذهب إلى بنك العمل فأودعها هناك في حساب جوكسل؛ سيأخذونها بالتأكيد، فهم يعرفون جوكسل على أي حال؛ لكن... نعم، لكن... ألن يسألوني كيف حصلت على هذه النقود ومن أين؟! بالطبع سيسألون؛ وبم سأجيب؟! لن يصدقوني إن قلت الحقيقة وسيودعونني مستشفى المجانين؛ ولو كذبت سيسلمونني للشرطة.

وهذا ما سيحدث ليس في بنك العمل فقط بل في أي بنك أذهب إليه، حسنًا! لئلا أذهب للبنك! أيفك قاطع تذاكر الترام مليونًا؟!

لم يتبقَّ إلا سبيل واحد؛ سأحمل هذا البلاء وأحافظ عليه حتى أقابل جوكسل، جيد؛ فإن أردتم الحق لن تتطلب المحافظة جهدًا كبيرًا، أي لص وأي سارق سيهم قصدًا بسرقة هذه المليون التي لا تجدي نفعًا؟! وإن قلتم بغير قصد فلا تحدث سرقة بغير قصد، كما أن ثيابي وهيئتي لا تفتح شهية أحد للإقدام على هذا...

نهضت من جلستي وتوجهت مباشرة نحو حربية[2]. لا أريد التفكير في أي شيء؛ ولكن هل هذا بيدي؟!

ارتسم وجه عائشة أمام عيني، مُحيت كل الحوادث، جوكسل، والمليون التي بجيبي، والمغامرة العجيبة التي خضت غمارها، وكل شيء؛ كل شيء، ولم يتبقَّ غير عائشة: المرأة التي ما زلت حتى الآن لا أعرف كيف دخلت حجرتي ذات ليلة وكيف استلقت في فراشي وكيف أصبحت لي، وكدت ليلة البارحة أن أموت برصاصة من مسدسها الصغير.

عائشة...

....

«انقطعت هنا كتابات خالد جميل في دفتر ذكرياته، يا للفتى المسكين! كتب «عائشة» ثم وضع ثلاث نقاط وختم بها مذكراته».

نهاية الفصل الأول

2- حربية (Harbiye): هو حي يقع في بلدية شيشلي بمدينة إسطنبول في تركيا.

الفصل الثاني

1

الرسالة القادمة من عائشة

ولج خالد جميل الحجرة حين كان الليل ينشر أجنحته بالخارج، والعتمة تداهم الحجرة فبدا أثاثها كأنه وراء زجاج أزرق.

سار لإغلاق باب الحجرة الذي تركه مفتوحًا على مصراعيه وهو يدخل، وبينما كان يغلق الباب لفت نظره ظرف رسالة في الطرف، لا بدَّ أن أحدًا قذف بها في الحجرة من أسفل عقب الباب.

انحنى وأخذ الرسالة، كان مكتوبًا على الظرف كلمتين: «لخالد جميل»...

ولأول مرة يرى خالد جميل اسمه مكتوبًا بخط رقيق وجميل ومذهل هكذا.

لم يرغب في إشعال الضوء، سار نحو النافذة وفتح الظرف ثم شرع في قراءة الرسالة أسفل ضوء الغسق الذي تصطبغ به ليالي إسطنبول:

«جميل،

ربما سيكون استيعاب رسالتي إليك صعبًا للغاية؛ لكني أريدك بعد استيعابه أن تصدقه مهما كان ذلك شاقًّا...

خالد،

لا أستطيع أن أعرف لم وكيف كتبت هذه السطور لك، همسوا بهذه الكلمات في أذني، وقف خلفي شبح طويل حالك السواد، وخاطبني قائلًا ‘ستموتون جميعًا في كل الأحوال’ فكان لا بدَّ لي أن أتحدث قبل أن يخنقني بيده؛ لأني أعلم يا جميل أنه ربما لن أستطيع الحديث ولا الإحساس ولا البكاء بعد ساعة.

كثير من الناس أعاد عليّ أني جميلة حتى بدأت أصدق؛ لكن لم يقل لي أي أحد قط ‘يالسعادتك!’، ثمة مقولة سائدة تقول ‘لا تجتمع السعادة مع الجمال!’، وقد تحققت هذه الحكمة في شخصي.

ولهذا فعندما كنت في فراشك واستلقيت إلى جوارك وكنت معك حتى؛ لم أكن لك.

لقد أسأت لك كثيرًا؛ يا جميل! حتى الآن وأنت تقرأ هذه الأسطر بأسى؛ لكن ماذا أفعل؟ ليس بيدي.

لا تظن أني ألهج لهفة وحماسًا! فلم أكن أبدًا بهذا القدر من الهدوء والرصانة؛ لأني على دراية جيدة بما سأفعله وما يجب عليّ فعله؛ لكني عانيت شقاء مهولًا في الماضي وفي الحاضر وفي الأيام السابقة، لا أظن أن إنسانًا تألم مثلي قط.

جميل! كانت أحبَّ لعبة لي في طفولتي: ترغية صابون في وعاء وتطيير فقاعات الصابون الملونة المتلألئة لأعلى في الهواء؛ لكن وبينما كانت ترتفع هذه الفقاقيع غير المتبلورة عديمة الشكل نحو السقف في كل مرة؛ كانت أكبرها وألمعها وأجملها تنطفئ قبل الجميع في منتصف الطريق؛ وكنت أنا أبكي... والآن أيضًا كذلك... الآن تعتريني رغبة عارمة في البكاء؛ لأني أنا ألمع وأجمل وأكبر فقاعة ما لبثت أن انطفأت في منتصف الطريق قبل الجميع.

همست قائلًا ‘كوني زوجتي، يا عائشة!’، اخترقت هذه الهمسه ثنايا قلبي، فضللت طريقي؛ ورغم أني لا أعرف من أنت إلا أني قد أحببتك؛ لكن... تدرك أنت تكملة لكن هذه، أليس كذلك؟ أود الآن أن أذكر أني أسعدت إنسانًا واحدًا على الأقل ولو للحظة،

أتفهمني يا جميل؟

لا تُظهر هذه الرسالة لأي أحد وخصوصًا نوري لا تخبره! ستعدني، أليس كذلك؟

أستودعتك الله يا خالد جميل! أتمنى أن تتذكرني كحبيبة قديمة متوفاة.

في أمان الله.

عائشة».

قرأ خالد جميل الأسطر الأخيرة في حين كان الظلام يطبق تمامًا على الخارج، وأصبحت الحجرة الخاوية أشبه بكومة ظلال قاتمة...

بات خالد جميل كالشبح في الحجرة الخاوية الشبيهة بكومة ظلال قاتمة بمفرده...

2

الموت حق

لقد قررت عائشة أن تموت، واتخاذ القرار بالموت أصعب من قرار القتل وستختبر الآن عائشة هذا في نفسها.

فبعد أن كتبت الرسالة لخالد جميل وألقتها من أسفل عقب الباب؛ لم يعد لها عمل آخر تفعله في هذه الدنيا غير الموت.

ليست معها أي نقود؛ فقبل أن تسير إلى الموت أحرقت كل السفن التي يمكن أن تعيدها، ارتدت ثيابًا بالية وهي تخرج من البيت؛ بيد أنها احتفظت بقبعتها الخضراء على رأسها؛ القبعة الخضراء التي رآها خالد جميل منتصف ليلة من نافذة العمارة المعتمة في الشارع المظلم، وعائشة إنما ترغب في المسير نحو الموت بهذه الثياب وهذه القبعة.

وإن كان اتخاذ القرار بالموت أصعب من اتخاذه بالقتل لكنّ هناك شيئًا أصعب منه: أين وكيف ستموت؟

فقد قررت عائشة الموت إلا أنها لم تستطع أن تقرر نهائيًّا بعد كيف وأين ستموت، ولهذا فقط ما زالت تدور منذ الصباح، فأداة الموت ناقصة، لم تأخذ المسدس وهي تخرج من البيت، كما لم يمكنها العثور على قطرة سم حتى، لو تهرس عيدان كبريت وتتجرعها... لكن ليس معها المال لتشتري علبة كبريت ولا حتى لتشرب كوب ماء، لو تلقي بنفسها أسفل ترام أو عربة! وهذا –أيضًا– مستحيل لأن الموت تحت الإطارات الحديدية والمطاطية ليس مؤكدًا فمن الممكن أن يكسر جزءًا فيها فقط وتبقى معاقة، ثم جال بخاطرها جر سائق السيارة أو القطار الذي سحقها من محكمة لمحكمة.

بيد أن عائشة لا تود أن يصاب أحد بضرر وهي تلقي بنفسها في غياهب الموت.

حل المساء متثاقلًا كما لو أنه عالم جديد بألوان وأضواء وأصوات وكائنات مختلفة انبعث من باطن الدنيا الخربة.

تهالكت عائشة غير أن كل ما كانت تحتاجه ليس الجلوس في مكان والراحة لدقيقة بل ألا تفكر في شيء وحسب.

استعادت وعيها، فأدركت أنها تتطلع إلى البحر من رصيف أقينتي بورنو[3] ذي القضبان الحديدية، كانت مياه المضيق تتدفق متموجة ومتلألئة بألوان زاهية كأنها حراشف أسماك ضخمة.

كان البحر أمامها؛ بحر المساء ومن خلفها الطريق وعليه تمر العربات ذهابًا وإيابًا، وفي البعيد كان يوجد مقهى تذاع أغنية من مزمار شجي فيه؛ مثل رحيق وردة ساحرة «نزلتُ إلى حديقة الحبيب فلا فرار من الورد».

اشتعلت الأضواء الأولى في الأناضول على الضفة المقابلة من المضيق، وارتفعت الرطوبة من المياه كما لو كانت دخانًا يبدو للعين المجردة.

الموت حق؛ عليها أن تسلم نفسها للمياه الثائرة المتدفقة بسواد وثقل القطران وهي تصغي للصوت الأخير للأغنية «نزلت إلى حديقة الحبيب فلا فرار من الورد».

أغمضت عائشة عينيها؛ لأنها كانت تعلم أنها لن تستطيع الذهاب للموت فاتحة عينيها متطلعة لأضواء الحياة.

أغمضت عائشة عينيها، دار رأسها؛ ربما من التعب أو من الجوع لأنها لم تأكل أي شيء منذ الصباح...

أغمضت عائشة عينيها؛ كانت على وشك الإغماء، انسحقت أعماقها... الموت أصعب من القتل... أغلقت عائشة عينيها ثم تهاوت في المياه فاقدة الوعي...

... ...

3- أقينتي بورنو (بالتركيةAkıntıburnu): هو الرصيف الممتد على البحر في منطقة أرناؤوط كوي في مدينة باشيكتاش المطل على مضيق إسطنبول.

3

أين أنا؟

فتحت عائشة عينيها داخل سيارة؛ سيارة تتقدم بسرعة جنونية كالصاعقة، وبمجرد أن فتحت عينيها لم يشعر رأسها بأي شيء غير السرعة الرابعة ولم تستطع عيناها رؤية شيء آخر سوى الظلام الآخذ في الحُلكة من وراء زجاج السيارة المستطيل.

لم تتحرك عائشة وثبتت عيناها على النافذة دون حركة كما لو كانت طفلة تائهة، ثم أدركت شيئًا فشيئًا أنها لا تزال على قيد الحياة، فقامت بأول حركة سيفعلها أي كائن حي في موضعها: تفقدت السيارة من الداخل؛ كان هناك رجل وراء المقود ترى بالكاد ظهره وبجانبها يوجد رجل آخر، لم تستطع أن تميز جيدًا وجه الرجل الذي بجوارها لأن مصباح السيارة لم يكن مضاءً.

كان أول ما سيسأل عنه أي إنسان يعيش وضعية كهذا:

- «من أنتم؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟».

أضاء الرجل الذي بجوار عائشة مصباح السيارة على الفور، وتقابل وجهه بوجه عائشة تحت بصيص الضوء الأصفر.

كان رجلًا في الخامسة والثلاثين من عمره، أنيقًا ينسدل شعره الأشيب على صدغه. قال بصوت هادئ مطَمئِن:

- «لا أعلم إن كنت أحسنت بإنقاذك من الموت؛ لكن لو كنت أنا من رمى بنفسه في البحر وكنت أنتِ من رأى هذا؛ ماذا كنت ستفعلين؟ كنت ستنقذينني دون تفكير؛ أليس كذلك؟ وهذا ما فعلته أنا، كنت جالسًا في المقهى فوقعت عيناي عليك فجأة، كنت مستندة إلى سياج الرصيف وتتأملين البحر بسكون، لم

يراودني خطب في البداية، قلت سيدة هائمة في البحر والشعر؛ لكن عندما شاهدتك بعد نصف ساعة لا تزالين في نفس مكانك وبنفس حالتك ساورني الشك فنهضت من المقهى وجئت إلى جوارك».

حتى إنكِ لم تنتبهي إليّ؛ كنت تتطلعين إلى البحر كالمسحورة، ثم انسدل الظلام تدريجيًّا، ثم... التالي واضح، أمسكت بكِ ما إن هممت بإلقاء نفسك، أغمى عليك، لم يكن أمامي غير عمل واحد، إبعادك عن المقبرة؛ وهذا ما فعلته..».

أنصتت عائشة للرجل الذي بجوارها دون أن تقاطعه، لم تكن ينتابها شعور تجاه هذا الرجل الذي أنقذها من الموت لا بالغضب ولا بالامتنان؛ لأنها أدركت أن هذا لم يغير أي شيء في الواقع؛ فبالرغم من أنها تستنشق الأنفاس وتسمع الأصوات وترى الأشياء وتفكر علاوة على هذا إلا أنها كانت ميتة منذ كثير، فقد فقدت حياتها جراء أصعب سبل الوفاة؛ بفقدان الإرادة والرغبة والحب والكره والبقاء خاوية.

ولهذا لم تسأل الرجل الذي بجوارها أكثر من قولها:

- «حسنًا؛ لكن من أنت؟ وإلى أين تأخذني؟ ما هي غايتك؟».

عبرت السيارة الآن مكانًا أكثر إضاءة، ولجت شيشلي ووصلت حتى عثمان باي.

تحدث منقذ عائشة ثانية بصوته الهادئ المطمئن ذاته:

- «لأعرفك بنفسي؛ أنا ڤدات؛ ڤدات فحسب، وماذا سيفيدك معرفة لقبي فأنت لا تعرفينني على أي حال، سواء أن قلت ڤدات فقط أو أضفت أي اسم آخر، لا فرق؛ أليس كذلك؟».

نطق «أليس كذلك؟» بطريقة غريبة شعرت معها عائشة بأنها يجب أن ترد قائلة:

- «بلى بالتأكيد!».

فسألها بصوتٍ لين ومطمئن أكثر إثر أول جواب تلقاه منها:

- «أيمكنني أن أعرف اسمك؟».

- «اسمي عائشة..».

- «عائشة فقط؛ أليس كذلك؟».

- «بلى..».

انحرفت السيارة إلى الجانب الآخر مبتعدة عن تقسيم ثم تقدمت قليلًا في المنحدر وبعدها انعطفت إلى طريق على اليسار، ثم توقفت أمام باب؛ فنزلنا، تحدث ڨدات مع السائق بشيء ثم ذهبت السيارة.

كان شارعًا ضيقًا ومظلمًا، وكانت نوافذ البيوت تنظر من وراء الستائر المنسدلة كأنها عيون نصف مغلقة.

لمس ڨدات زر باب البيت ذي الطوابق الثلاثة الذي توقفنا أمامه فانفتح الباب ببطء.

دلفنا إلى الداخل، فوجدنا أمامنا بئر السلم والمرأة التي فتحت لنا الباب؛ لكن وجهها لم يكن واضحًا.

أمسك ڨدات بذراع عائشة وبدأ يصعد معها الدرج، غشيهما ضوء أشبه بلون شراب الورد بسبب الأباجورة الوردية، هنا الردهة تطل عليها ثلاثة أبواب، صرخ ڨدات:

- «روز! مدموزيل روز؛ أين أنتِ؟».

انفتح الباب الثاني، وخرجت مدموزيل روز إلى الخارج؛ فتحدثت التركية بلهجة رومية رغم اسمها الفرنسي:

- «أهلًا بكم... تفضلوا إلى الداخل! فالحديث هنا ممنوع وإن لم يُمنع فسنوقظ كل العائلة».

اقتربت من عائشة وقالت:

- «تعالي يا ابنتي!».

دخلت عائشة الحجرة بين روز وڨدات، تفحصت أرجاءها، لم ترَ في حياتها حجرة مفروشة مثل هذه.

في الركن بيانو وعليه ورورد صناعية وعلى الجدران عُلقت لوحات في إطاراتٍ فضية سميكة؛ لوحة لامرأة متشكلة على هيئة مزهرية عجيبة يلف جسدها العاري ذا

التضاريس البارزة غشاء ناصع البياض، وصورة مكبرة لرجل لامع ذو شارب قصير عريض وشعر مفروق من المنتصف.

تقبع منضدة في الوسط وعليها مفرش سماوي اللون، وحولها أثاث مغطى بمفارش.

جلست عائشة مع روز وڤدات على أريكة في الزاوية، وبرز أسفل منهم المفرش، ظلت عائشة ترمق بطرف عينيها مدموزيل روز، كانت ترتدي كيمونو أزرق يشبه الزي الياباني وتَخرج ذراعاها البيضاوان السمينتان العاريتان من كميه الواسعين، ولها أظافر حادة حمراء قانية بأصابع يديها الغليظتين الكبيرتين، كانت يداها أشبه بمخلب طائر بري.

كانت يداها أول ما لفت انتباه عائشة، ومن ثم نظرت في وجه المرأة الجالسة بجوارها، وجهها مستدير سمين ذو ثغر باسم وشعر أصفر صفار البيضة وواضح أنه مصبوغ وعيناها لا تتوقف عن الدوران أسفل جبهتها الضيقة وفمها أحمر قانٍ مثل الجرح؛ وهذا الفم هو من بدأ الحديث:

- «إيبه! كيف حالك؟ اخلعي قبعتك يا فتاة!».

لم تكن عائشة تود خلع قبعتها، بدا لها خلع قبعتها شاقًّا للغاية ليس لسبب معين وإنما لأنها لم تكن تريد القيام بأي عمل؛ غير أن مدموزيل روز نهضت من مكانها وخلعت قبعتها الخضراء عن رأسها ووضعتها على المنضدة في الوسط، ثم عادت وجلست بجوار عائشة مرة ثانية، ثم قبضت يدها بين أظافرها الباردة السميكة وقالت:

- «أنت متعبة للغاية يا فتاتي وڤدات بك كذلك؛ ألا تقول «لنضيف زائرتنا كأس شراب!»؟!».

دمدمت عائشة:

- «أنا لا أشرب».

- «وماذا يفعل كأس شراب يا عزيزتي؟! يزيل الإرهاق؟».

نهض ڤدات من مكانه وخرج من الحجرة وعندما عاد ثانية كانت في يده صينية وعليها ثلاث كؤوس وزجاجة.

ملأت مدموزيل روز الكؤوس ومدت إحداها لعائشة:

- «اشربيه يا فتاتي كأنه علاج ستتحسن حالتك، أنا أشرب منه دائمًا حين أشعر بالضيق».

تدخل ڤدات في الكلام بصوته الهادئ والمطمئن هذا:

- «احتسي جرعة يا عائشة!».

أمسكت عائشة الكأس بيدها ورفعته إلى شفتيها فدفعه ڤدات ليمس شفتيها وقال:

- «هيا يا عزيزتي، تشجعي!.. ليس هذا بأشد رعبًا ولا ألمًا من الموت!».

تجرعت عائشه نصفه؛ كان شرابًا عجيبًا لم تذقه من قبل؛ كان له رائحة عجيبة ومذاق لاذع.

وقبل أن يمضي الكثير أحست المرأة الشابة بجسدها الحار وبلسانها يلعق شفتيها الملتهبتين من الحرارة فأدارت رأسها وفتحت ياقة ثوبها، ولو كانت هناك مرآة بمقابلها لرأت بريق دمعتيها المتلألئتين داخل عينيها الزرقاوين كالبحر.

تجرعت الباقي في الكأس بطريقة آلية وراودها شعور بالرغبة في الضحك؛ الضحك بجنون وإطلاق القهقهات؛ لكن هذه الرغبة ما لبثت أن تبددت، فهي تود الآن النوم؛ النوم كأنها لن تستيقظ أبدًا، سمعت صوت مدموزيل روز كأنما يصدر من أعماق بئر:

- «كيف أنت يا فتاتي؟ هل تحسنتِ بعض الشيء؟».

- «نعم... لا أعلم... شيء..».

4

خبر في الجريدة

لم يستطع خالد جميل أن يمكث في البيت بعد أن قرأ رسالة عائشة، وخرج يتخبط عشوائيًّا في الشوارع دون معرفة إلى أين يذهب وماذا يريد أن يفعل، كان بجيبه الخمس ورقات التي أخذها من صديقه، وهي تكفيه وزيادة لثلاثة أيام، وبعد ثلاثة أيام؟ اتفق مع مقاول، سيذهب إلى الولايات الشرقية؛ ليس لكسر الحجارة من أجل شق طريق وإنما لضبط الحساب بجانب المهندس المشرف على كسر الحجارة، وهو يفضل كسر الحجارة على عمله هذا، فهو يكره هذا العمل؛ يكره الإمساك بحسابات الأجرة اليومية هذه لكن تنتابه رغبة حثيثة قوية للقيام بالأعمال التي يبغضها والمعاناة بعقله وقلبه وليس بجسده، بات يفهم فضولي[4] الآن جيدًا.

احتسى ثلاث كؤوس مزدوجة بيرة في الطرف الخلفي للمطعم واقفًا ودفع خمسة وأربعين قرشًا، دار رأسه قليلًا، صعد إلى شارع الاستقلال. ضياء وزحام وجلبة، لا يحب ليالي بي أوغلو بقدر صباحاتها، فهي بلياليها المصطنعة الزائفة وإعلاناتها البراقة وأبواب حاناتها؛ أشبه بالمدن الأوربية الضخمة.

انحرف خالد جميل من برماق قابي إلى جيهانجير، يحل بعد العمارات الشاهقة مباشرة منحدر، هبطه، ثم وجد نفسه بين بيوت شُيد بعضها من خشب وبعضها من صفيح وبعضها الآخر من حجر منحوت تنتشر مبعثرة من فوق قمة المنحدر نحو قعره، توقف، وأشعل سيجارة. تأمل من القاع العمارات اللامعة على التل؛ العمارات الفارهة في فوهة الهاوية المليئة بهذه البيوت المصنوعة من الصفيح والخشب، فهيأ

4- فضولي (fuzuli): محمد بن سليمان (1483-1556) هو شاعر تركي عرف بلقب "فضولي البغدادي" ويعتبر من أشهر الشعراء العثمانيين وأحد رواد الأدب التركي، وله عدة مؤلفات بالتركية الآذربيجانية والفارسية والعربية.

له أنها بعيدة؛ بعيدة للغاية كأنها مشيدة في مدينة أخرى.

لم يكن يدري ماذا سيفعل، عاد أدراجه... لم يكد يخطو خطوتين حتى ظهر رجل من وسط الظلام واقترب منه ثم قال...

- «مرحبًا! أنت وحدك على الأغلب ويبدو أنك سئمت».

أجاب خالد جميل ضاحكًا:

- «لا بدّ أنك صاحب كرامة فقد سئمت في الواقع».

اقترب الآخر تمامًا:

- «لست صاحب كرامة لكن يمكنني أن أجد لك متعة تُذهب عنك السأم».

- «أحقًّا؟».

- «إن كنت لا تصدق فلتجرب؛ تفضل!».

ولم يلبث خالد جميل أن فطن إلى عمله فالوغد الذي أمامه -بحسب تعبير قديم أكثر تهذيبًا- ليس إلا «قوادًا».

سار الرجل في الأمام يتبعه خالد جميل حتى توقفوا أمام حاجز خشبي، فنحاه كما لو أنه باب، ثم ولجوا الأرض وكان بوسطها بيت من طابق واحد؛ بيت خرساني.

قرع الرجل الذي أحضر خالد جميل باب البيت ثم صاح:

- «زهرا، زهرا!».

فُتح الباب فقال الرجل:

- «تفضل!». وظل هو بالخارج.

ومن ثم امتدت يدٌ من الباب المفتوح وقبضت على رسغ خالد جميل جاذبةً إياه للداخل، وقع ضوء الغرفة المفتوح بابها إلى النصف على الجرن، تطلع خالد إلى من يمسك برسغه، كانت امرأة شابة أو بالأحرى فتاة شابة.

أحس وهو يدخل مع زهرا الفتاة الشابة إلى الحجرة بإغلاق الباب على الشارع من

الخارج.

كانت الحجرة كبيرة، تضيء مصابيحها الكهربائية الخافتة المعلقة في السقف من دون ظُلة، في الركن سرير حديدي وفي الوسط منضدة مغطاة بمشمع بالٍ وثلاثة كراسٍ قشيّة.

أجلسته زهرا على أحد الكراسي، ظل يتأملها؛ كانت ترتدي ثيابها كأنما هي خارجة للشارع، ترتدي تايور بالٍ ولونه باهت وتضع على رأسها قبعة ووجهها الخمري المصطبغ بالألوان قبيح؛ غير أنه كانت لها عينان متلألئتان كعيون الأطفال.

حدق خالد جميل في عينيها بحيرة مغمغمًا:

- «يا لهما من عينين!».

فتبعته بالرد مباشرة:

- «مالك وعيني؟! أجئت إلى هنا من أجلهما؟!».

- «ومن يدري!».

- «دعك من الثرثرة!».

دنت منه وهمت بالجلوس على ركبتيه فدفعها عنه برفق وأجلسها على الكرسي المجاور ثم سألها:

- «لم أنت هكذا؟ لما أنت فظة لهذه الدرجة؟».

احمر خجلًا حين انتبه لرعونة وهزلية هذا السؤال الذي سأله؛ لكن زهرا أجابته بنفس الصوت المحتقن المضجر دون أن تلتفت لهذا:

- «وماذا أفعل؟ كلٌّ ميسر لما خلق له، وأنا هكذا؛ أم أنك تريدني في البداية أن أحدثك بكلام معسول، أنفتح الحديث أولًا عن الحب والعشق والعسل؟ أتريد هذا؟ هيا فليكن كذلك! لنر من أنت؟».

- «أنا! اسمي..».

ضحكت زهرا مقهقهة:

- «أجل، إنه هو!.. لكن ما الجواب؟! لئلا يكون اسمك أيول؟! ألم يضع لك والدك ووالدتك اسمًا؟».

- "اسمي جميل".

- "أووه! ياله من اسم قديم، اسمي أيضًا قديم مثل اسمك لكنني سأغيره، هلم أنت أيضًا لنضع لكل منا اسمًا جديدًا، إن عثرت لك على اسمٍ جميل فماذا ستمنحني؟".

- «اعثري أنت على الاسم أولًا ثم نفكر لاحقًا في ما يجب أن أمنحه لك».

عقدت زهرا حاجبيها وأحاطت جبهتها بيدها، ثم صاحت فجأة بفرحة طفلة وجدت لعبتها التي فقدتها منذ مدة طويلة:

- «وجدته! وجدته! ليكن اسمك تونغوز ألب..».

انتابه الفضول حول سبب رؤيتها لاسم تونغوز ألب على وجه الخصوص مناسبًا له؛ فسألها:

- «لم تونغوز ألب؟ لم لا يكون غيره؛ لم لا يكون أق يوريك مثلًا؟».

لم تكن زهرا تتوقع هذا الاعتراض واحتارت كيف تجيب عليه ومن ثم قالت:

- «لا أعرف!».

ثم أردفت مرتبكة:

- «أو لم يعجبك اسم تونغوز ألب؟!».

اقتربت منه رويدًا رويدًا ودنت منه برفق مثل قطة مرتجفة تحوم حول الموقد مستطردة:

- «أتونغوز ألب سيئ؟ كان هناك شخص أعرفه شاب مثل الأسد ضخم الجثة؛ لكنه كان سفيهًا بعض الشيء، كان عاملًا بشد حبال سفن الشركة وقد لقبته بلقب قبطان السفينة تونغوز ألب فأتى وأخبرني أنه قد أعجبه كثيرًا، تونغوز ألب! وأنت أيضًا يليق بك كثيرًا».

كانت زهرا قد اقتربت منه خلال هذا للغاية حتى إن رعشة أصابته فجأة ثم انتفض وقبض على يدي زهرة وهو يحدق في عينيها، سحبت الفتاة يديها ببطء كأنها تفيق من حلم؛ فقال خالد جميل بصوت أبوي:

- «رائع يا فتاة! أعجبني اسم تونغوز ألب، سأقبل بكل ما تريدينه لكن..».

كانت عينا زهرا تنظر من فوق كتفي خالد جميل إلى مكان، وعندما لاحظ هو نظراتها العجيبة هذه قطع كلامه في المنتصف، استدار خلفه وتطلع إلى المكان الذي تراقبه برعب؛ إلى باب الحجرة المغلق.

كان هناك ظلان في الظلام يقفان خلف الباب في الخارج أثناء تحديقه في الباب المغلق من الداخل، أحدهما للرجل الذي أحضر خالد جميل إلى هنا، كانا يتحدثان ويبدو من صوتيهما أنهما لا يريدان أن يُسمِعا من في الحجرة حيث كانا يتحدثان بهمس.

تحدث الرجل الذي أحضر خالد جميل:

- «فرصة لا تفوت، ثمة خمسة آلاف بابل مكسب في هذا العمل».

رد الآخر:

- «لا تقلق! سننتهي منهم دون صوت».

سحبا سلاحيهما، كان بيد أحدهما مِطواة وبيد الآخر بلطة؛ بلطة خشبية عادية.

- «أأنت مستعد؟».

- «مستعد!».

- «لا تنسَ! أنت ستُنزل البلطة على دماغه من الخلف، وإذا لم تفد سأطعن بالمطواة».

خلال هذا الوقت كان خالد جميل في الحجرة يُمسك بيدي زهرا ويقول:

- «ماذا بك يا فتاة؟ أصابك الجزع جراء شيء ما بغتة..».

لم تعد الفتاة الشابة تتطلع للباب بل ترهف سمعها للإصغاء فحسب وتحاول فهم

الجلبة الخفيفة القادمة من الخارج.

أدركت الآن أنه تم جرها لعمل سيئ للغاية، لم يخبرها هذا الرجل أن هذا الشاب الذي عرفت أن اسمه خالد جميل هكذا، وبالأحرى أنه قد قال لها فقط «سأحضر غدًا إلى هنا؛ أنت ستلهينه ودعي الباقي لي»، كان صدقي هو من قال هذا.

لم تحد زهرا عن كلامه؛ لكن الآن؟

زهرا الآن تشفق على هذا الشاب... لا، ليست شفقة، بل إنه احترام شعرت به تجاهه؛ احترام لم تشعر به قبلًا تجاه أحد، لم ينظر لها أي رجل حتى اليوم كما نظر لها هذا الشاب، لم يمسك أحد يديها كأخٍ؛ أخٍ كبير مثل خالد جميل، ولا حتى تونغوز ألب عامل السفن...

أرادت زهرا الصراخ وهمت بالصياح قائلة:

- «سيقتلونك لكني لا أعرف لمَ؛ ربما صدقي نفسه لا يعرف؛ لكنهم سيقتلونك بالتأكيد! اهرب من هنا ولا تقف!».

بيد أنها لم تصرخ؛ لم تستطع أن تصرخ ، خافت من صدقي.

أردف خالد جميل بصوت الأب والأخ ذاته:

- «انظري لي يا زهرا! انظري لي هنا! لن أسألك لم سقطت هنا بين هؤلاء؛ لكن يجب عليكِ أن تتخلصي من هذا ومن هؤلاء، ربما يمكنني مساعدتك، يجب أن يصبح وجهك ببراءة عينيك من جديد».

لم تتحمل زهرا المزيد وانكبت على الأرض تحت قدميه مجهشة في البكاء ومفضية بما في أعماقها:

- «أنقذني من هنا! أنقذني من هنا! لنذهب بسرعة هيا!».

صُعق خالد جميل برد الفعل المفاجئ هذا، واستشعر الخطر مثل حيوان الغابة وأراد أن يسألها:

- «ماذا هناك؟ ماذا يجري؟». لكنه لم يسألها... لم يجرؤ على سؤالها... أطبق عليه الصمت ما إن انتبه لخروج صوتها بخوف وارتباك أكثر من اللازم.

ترك يديها وقام واقفًا فتفقد أطرافه ثم سار ببطء وذهب إلى إحدى زوايا الحجرة.

تحدثت زهرا بصوت هامس:

- «قف هناك؛ لا تتحرك!»، فظل في مكانه، ثم وقفت وسارت على طرفي قدميها نحو الباب، كانت المفاتيح فوقه فأرادت إدارتها وإيصاد الباب.

أدرك خالد جميل ما تريد القيام به، وفكر في خطر أن يريد من خارج الباب الولوج للداخل، فركض على الفور إلى جوارها ودفعها جانبًا فانفتح الباب على مصراعيه فجأة.

كان هناك ظل صاحب المطواة وصاحب البلطة يقفان خارج الباب، فزعق خالد جميل:

- «دعا ما بيديكما!».

تركت اليد التي تمسك بالمطواة إياها فانغرزت بالفرش محدثةً صوتًا جافًّا؛ لكن اليد التي تقبض على البلطة لم تحدث ولو حركة بسيطة، ولا تزال البلطة تقف منتصبة تشق الهواء، فصاح خالد جميل ثانية:

- «اتركها يا فتى!».

تراجع القابض على البلطة للوراء ثم قذفها للأمام بسرعة إفراغ السهم من قوسه فانطلقت البلطة من يده وانغرزت برنين في الصفيح الجداري المقابل.

وما إن أدرك خالد جميل نجاته من خطر البلطة حتى كال لكمة بين حاجبي الشخص المواجه له فتدحرج الوغد على الأرض دون أن ينبس بشفة؛ أما الآخر الذي أحضره إلى هنا فولى هاربًا منذ مدة.

والآن ماذا عليه أن يفعل؟

هل ستستمر سلسلة الاغتيالات على الرغم من استقالته من دور جوكسل؟ أسيقضي حياته حتى نهايتها تحت تهديد المسدس والبلطة والمطواة لأنه حل محل مليونير عجيب ذات ليلة؟

خطر على باله أن يوقظ الوغد المغمى عليه ويستجوبه؛ لكنه سيضيع الوقت بهذا

ويمكن أن يستغل الآخر الهارب هذه الفرصة ويجلب معه شخصًا آخر ثم يأتي، أو يفرغ في رأسه من فرجة النافذة مسدسه بينما هو منهمك في الاستجواب.

ماذا يجب أن يفعل؟

أمسك زهرا من يدها وقفز خارج المنزل مقتلعًا إياها، والآن هم يصعدون المنحدر الصاعد إلى عمارات جيهان جير الفارهة فسألته بهلعٍ:

- «أستأخذني إلى الشرطة؟».

تسمر خالد جميل للحظة ثم قال مستغرقًا في أغوار عينيها البريئتين واللامعتين كالأطفال:

- «لا، لا يا فتاتي! لن أسلمك للشرطة، كما أنك لم تفعلي شيئًا، ولن أسألك عن أي شيء».

- «كما أني لا أعلم شيئًا عن ذلك... صدقي هو..».

- «من يكون صدقي؟».

- «هو، هو صديقي! وقد قال لي..».

قطع خالد جميل كلمتها في المنتصف:

- «فهمت، قال لكِ سأحضر لكِ هذه الليلة وغدًا فقومي بلهيه، أليس كذلك؟».

- «أجل، كما أنها المرة الأولى التي أحضر فيها لهذا البيت... بالإضافة إلى أني لا أعلم شيئًا عن العمل الذي يقوم به صدقي... أنا عرفته..».

- «حسنًا حسنًا يا فتاتي! أنا لا أريد أن أعرف أين قابلته؛ لكن حاولي فقط ألا تلتقيه ثانيةً!».

وصلا الآن إلى ميدان تقسيم، أدخل يديه في جيبه وأخرج الأربع ورقات ثروته كلها ثم مدها لها:

- «خذي هذه يا زهرا! وتأكدي أن هذا كل ما يمكنني تقديمه لك».

لم تود الفتاة أن تأخذ النقود في البداية لكنها أخذتها بنظرة من الرجل.

في هذه الأثناء تمامًا تعالت صيحات رقيقة وغليظة آتية من شارع الاستقلال إلى ميدان تقسيم، أنصت خالد جميل لهذه الصيحات وشحب لونه.

تناهت إليه الأصوات من قريب وبعيد وانتشرت في جميع الأنحاء.

كانت هذه الصيحات تصرخ بالخبر الذي نُشر في الطبعة الثانية من جريدة إسطنبول المسائية:

«الطبعة الثانية!».

«تنشر مقتل المليونير جوكسل!».

«الطبعة الثانية!».

أوقف خالد جميل الصبي بائع الجرائد المار من جواره صارخًا وأخذ جريدة؛ لكنه تذكر وهو يضع يده في جيبه لأجل أن يعطيه خمسة قروش أنه سلم كل ما يملكه لزهرا، فاستدار خجلًا من المرأة الشابة الواقفة بجواره وقال:

- «هل تعطي لهذا الطفل خمسة قروش يا فتاة كي لا ينتظر!».

منحت زهرا الفتى بائع الجرائد خمسة قروش ثم التفتت إليه:

- «تونغوز ألب، أنت إنسان طيب للغاية يا تونغوز ألب..».

لم يسمع خالد جميل صوتها؛ كان يقرأ الجريدة بفضول وحماس شديد:

يُعتقد وفاة المليونير جوكسل جراء عملية اغتيال

«لم يأت جوكسل بك إلى بيته منذ ليلة البارحة، ووفقًا لتحقيق الشرطة؛ لم يمكن العثور على المليونير رغم البحث، ويُتوقع بقوة أنه قد تم اغتياله وتتجمع كل الشبهات حول شخص مجهول تناول معه الطعام في الفندق الكبير في الليلة الأخيرة، وتبحث الشرطة عن هذا الشخص المجهول، ويتمنى أن يتم القبض على القاتل في القريب العاجل...».

تلا خالد جميل هذه الحادثة لمرتين أو ثلاث مرات متتالية ثم طوى الجريدة ووضعها

في جيبه ثم استدار إلى زهرا التي كانت لا تزال تقف بجواره وقال:

- «هلم يا فتاة! ليرحمه الله! حاولي ألا تلتقي صدقي كما قلت لك!».

شرعت زهرا في البكاء.

وفي هذه اللحظة ومقابل هذه المرأة الباكية تذكر فجأة وبقوة امرأة أخرى بكثير من الألم والحزن، فلعلها الآن امرأة ميتة منذ زمن...

غمغم قائلًا:

- «عائشة، عائشة..».

ثم استدار ثانية لزهرا:

- «هيا لا تبكي، لا تبكي يا طفلتي! فكري أن الأفضل هو أن تعيشي الحياة رغم كل شيء... هيا! استودعتك الله..».

لم تفهم زهرا شيئًا مما قاله بيد أنها ردت:

- «حسنًا يا تونغوز ألب! في أمان الله..».

5

الاستيقاظ

بعد أن أدت عائشة رقصة مدهشة وتأرجحت كأنما تعلو مع العواصف؛ ثاب إليها بعض وعيها وعادت من هاوية الغيبوبة المظلمة.

لمحت عيناها ضوء الصباح؛ على الرغم من الستائر المغلقة، فأدخلت يديها المرتجفتين بين أشعة الضياء، لم تستطع التفكير أو تذكر أي شيء بالبداية، وشعرت برأسها كأنه قد تحطم لفتات، وبحلقها محترقًا وجافًّا للغاية.

أخذت نفسًا عميقًا، انتابها شعور بالاشمئزاز، وسرت ارتجافة خفيفة ولاذعة من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها... أحست بألم في كل عضلاتها المشدودة.

حاولت الحركة قبل استعادة وعيها بالكامل.

تفحصت الأرجاء، فرأت أنها ترقد على فراش نحاسي واسع وليس عليه لحاف بل ملاءة سرير، الجهة المقابلة من الفراش عالية ومعلق عليها بطانية وردية مخططة بخطوط خضراء سميكة، ويبدو من بين ثنيتها ركن الغرفة وفي هذا الركن يقبع حوض ومرآة مستديرة.

لم تكن هذه الغرفة هي الغرفة التي دخلتها وشربت بها ذلك الشراب الغريب.

اعتدلت على الفراش وجلست فجأة؛ إلا أن الغرفة وأثاثها وجدرانها بدأت بالدوران والتأرجح في الناحيتين ببطء مرة أخرى، وعاودها شعور قوي بالغثيان فرقدت بظهرها على الفراش كي لا تتقيأ.

آلمها صدرها واحتنق حلقها، ودت البكاء؛ لكن مآقي عينيها كانت يابسة؛ يابسة للغاية.

انتصبت ثانية بجهد عظيم فلمحت عيناها المرآة المستديرة التي في الركن المقابل، كان هناك وجه امرأة في المرآة؛ وجه امرأة شاحب للغاية لم تتعرف عليه.

اجتاحت أعماقها الآن رغبة وحيدة: أن تجد ثيابها فترتديها وتفر من هنا!.. إلى أين؟ أي جهة كان فليكن؟! لكن يجب أن تهرب من هنا أولًا!

نهضت محيطة جسدها العاري بالملاءة رغم يديها المرتجفتين ورأسها الدائر دون توقف، جالت بنظرها في الحجرة عساها تجد دولابًا، لا يوجد... ألقت نظرة على الكراسي، ليست هناك ثياب عليها؛ إلا كيمونو طويل أخضر على ظهر أحدها.

رفعت الكيمونو فظهرت أسفل منه ثياب داخلية، قميص داخلي وردي قصير للغاية وجورب أسود حريري، وعلى الكرسي خف أطلسي أزرق بشرابة.

اعتراها استياء كبير لم تدر سببه تجاه هذه الأشياء، تفحصت الأرجاء مرة أخرى لم يكن هناك وجود لثيابها أو جوربها أو حذائها أو قبعتها أو قميصها الداخلي في أي مكان.

اعتراها خجل شديد فشعرت أنها عارية تمامًا رغم ملاءة السرير التي تلف بها نفسها بشدة وتخيلت أن هناك عيونًا خفية مخبأة في أطراف الحجرة الأربعة تشاهدها.

سارت إلى الباب وفتحته؛ عليها أن تنادي مدموزيل روز، أدارت مقبض الباب؛ لكن الباب لم يفتح، كان موصدًا. هرولت إلى النافذة في رعب شديد كأن الدوخة ودوار الرأس فارقاها في لحظة؛ لكن لم تستطع فتح زجاجها، كانت مسمرة.

نظرت إلى الشارع؛ كان شارعًا ضيقًا مهجورًا...

استدارت خلفها لربما سقط مفتاح الباب في مكان بالحجرة؛ فبالتأكيد لم يحبسوها في هذه الغرفة.

بحثت عن المفتاح... غير موجود!.. حينئذ استحال الظلام الذي اكتنفها لعاصفة سوداء مخيفة بدأت ترتج كالمياه، فشرعت في طرق الباب بهدوء في البداية ثم أخذت تفقد السيطرة على أعصابها ويصيبها الجنون شيئًا فشيئًا فتلكمه بعنفوان، صرخت صرخات مدوية حتى كاد جسدها العاري يتمزق من الصراخ، ومن ثم تهاوت أمام الباب...

أتى ببالها أنها لن تستطيع التحرك من مكانها مرة أخرى، ولن يمكنها القيام حتى بحركة بسيطة؛ لكنها ما إن شعرت باقتراب خطوات ثقيلة تجر نفسها جرًّا ناحية الباب وولوج مفتاح في القفل؛ قفزت من مكانها في التو، هرولت بارتباك طفل تم الإمساك به وهو يقوم بخطأ كبير فوثبت فوق الفراش.

فُتح الباب، فدلفت إلى الداخل مدموزيل روز وبعد أن أوصدت الباب ثانية؛ عقدت حاجبيها دافسة المفتاح في صديريتها الواسعة، ثم اقتربت من عائشة ببطء، فانكمشت عائشة وتقوقعت وسط السرير حادقة فيها بعينين متسعتين مدهوشتين.

تحدثت روز بصوت زاجر:

- «ماذا هناك؟ ماذا جرى؟ كدت أن تكسري الباب. ماذا تريدين؟».

كانت بحالة «رائعة» كصور النساء الموضوعة على إعلانات مصانع البيرة الألمانية رغم بدوها أكبر سنًّا وظهور مسكرتها وبودرتها وحمرتها وطلاء شفتيها بمظهر زائف ومصطنع في ضوء الصباح؛ غير أن عينيها لم تكن فقط ما تغير عن ليلة البارحة، بل استحوذت نظرة السيطرة في عينيها اللتين تحدقان كالمسمار على كل مشاعرها.

تقوقعت عائشة وانكمشت أكثر في السرير وتضاءلت وانقبضت على نفسها، بينما كانت مدموزيل روز ما زالت تتحدث بنفس الأسلوب الزاجر المستهزئ:

- «بم تصرخين؟ هيا قولي! أليس لك لسان؟».

قبضت بيديها الممتلئتين على كتفي عائشة العاريين وبدأت تهزها وترجها كخرقة خيش؛ إلا أن عائشة لم تبدِ أي مقاومة فقد كانت تشعر أنها ميتة منذ مدة أو أنها قد ماتت من قبل.

تصاعد غضب مدموزيل روز شيئًا فشيئًا فتسليمها لها دون أن تصدر صوتًا على الرغم من تنكيلها بها كان يثير حنقها:

- «لا أريد جلبة كهذه في بيتي، إذا قمت مرة أخرى بالصياح والصريخ سأبرحك ضربًا، أفهمت؟ سأضربك... هيا انهضي من فراشك!».

جذبت الملاءة التي تلفها عائشة حولها بإحكام حتى كادت تمزقها. أصبحت عارية

تمامًا في سريرها كموزة مقشرة؛ ومع ذلك لم تتحرك.

عندما رأت أنها لم تجاوبها ولم تتحرك من مطرحها أمسكت بشعرها، ولفت شعرها -الذي يقول عنه خالد جميل في مذكراته «أكان كستنائيًّا أم أصفر، لا أعرف، غير أن ما أثق فيه هو وجود ضي ذهبي لطياته»- حول أصابعها الغليظة، فتدحرجت عائشة من فوق السرير للأسفل مثل تمثال رخام سقط من قاعدته.

بيد أنها تذكر كل ما عايشته ما إن رأت خف روز ذا الشرابة الوردية حين سقطت، فنهضت فجأة، وانتصبت أمامها بوهج لهب أبيض؛ غير أن هذا التمرد لم يستمر طويلًا، خبا اللهب المتوهج رويدًا رويدًا فقالت وهي تحاول ستر عري صدرها بذراعيها:

- «ماذا تريدون مني؟ دعوني لأذهب! أين الرجل الذي أحضرني لهنا؟».

ضحكت روز ضحكة قبيحة أظهرت لمعان سنتيها المطليتين بالذهب:

- «وماذا سأريد منكِ؟ اجلسي بهدوء ولا تحدثي جلبة، هنا بيتك، فلا يخطر ببالك أنكِ ستخرجين من هنا ثانية، من يخرج من هنا يذهب للشرطة لأنه يصبح مسجلًا، إن أردت أن تصبحي مسجلة؛ هيا اغربي! أما إن أردت أن تعملي بشرف، فامكثي هنا؛ أفهمتِ؟».

لم تفهم عائشة شيئًا، ولم تكن تود التفكير حتى أو أنها لم تكن تستطيع التفكير على الأحرى، فقد تركها «الشراب» الذي تجرعته مساء البارحة بلا إرادة ومستسلمة تمامًا.

وعندما أوصدت روز الباب مرة أخرى وخرجت؛ اجتاحها إعياء مهلك؛ إعياء كاد يقتلها، فسارت بخطوات ثقيلة نحو الفراش وتهاوت فوقه ملتفة بالملاءة البيضاء مثل جثة تهبط إلى القبر.

6

مذكرات المليونير جوكسل

توجه خالد جميل إلى غرفته على الفور بعد مغادرته لزهرا في ميدان تقسيم.

أشعل المصباح وبدأ بقراءة الجريدة التي أخرجها من جيبه مرة أخرى أسفل الضوء الشاهد على مغامرة الفيل الصغيرة الحمراء المجهولة في ذات ليلة.

يعتقدون أن جوكسل ذهب ضحية جناية قتل لأنه اختفى من الوسط؛ جيد، لكن وفقًا لما كُتب في الجريدة فقد تم إبلاغ الشرطة باختفائه.

الموضوع معقد!

فمن يستطيع إبلاغ الشرطة بفقدان جوكسل؟

أهو علي؟

حسنًا؛ لكن علي لم يكن متيقنًا من اختفائه... حتى إنه عندما ذهب خالد جميل إلى أياس باشا ثانية لإعطائه المليون إسترليني بعد تخليه عن دور جوكسل الذي أداه لليلة؛ قال له علي:

- «ذهب جوكسل بك في رحلة إلى الأناضول»؛ ألم يقل هذا؟!

وأضاف أيضًا:

- «لن يزيد اختفاؤه من الوسط على يومين»، فقوله يومين هذا يمنح شعورًا بأنه لن يستغرق طويلًا؛ وإن لم يكن الإبلاغ قد تم بواسطة علي، فبواسطة من؟

هل عائشة؟

لا يمكن! فبالتأكيد أنها توفَّت بعد قولها «سأموت»، كما أنه لم قد تقدم عائشة بلاغًا

كهذا؟

أم...

أم أنها ظنت وفاة زوجها حقًّا عندما رأت خالد جميل محل جوكسل، وعندما علمت أن الرجل الذي قال لها «كوني زوجتي، يا عائشة!» هو خالد جميل كما يتبين من الرسالة التي كتبتها في اليوم التالي؛ رغم عدم تصديقها لهذا التغيير المفاجئ؟

حسنًا؛ لكن ألم تكن عائشة تريد قتل زوجها؟

أدرك خالد جميل أنه لن يستطيع حل هذه العقدة؛ وأدرك كذلك أن كل الشكوك تحوم حول الرجل المجهول الذي تناول جوكسل معه الطعام في الفندق الكبير، وكان هذا الرجل المجهول هو هو ذاته.

لم يخف.

لأنه لم يقتله.

لم يخف.

لأنه كان يظن أنه من المستحيل أن تعثر الشرطة على «الرجل المجهول».

لم يخف.

لأنه في خلال يومين أو ثلاثة سيذهب إلى الأناضول مودعًا المدينة التي يعشقها، وذكرى حبيبته المتوفية، والمغامرة العجيبة التي اجتازها، وأعداء جوكسل المجهولين الذين أدرك في النهاية أنهم ما زالوا يتعقبونه.

انحرف عقله بغتة في منعطف آخر:

أعداء جوكسل المجهولون!

من يكون جوكسل؟ ومن هم أعداؤه؟

عائشة ونوري، كانت زوجة جوكسل وأخوها يريدون قتله؛ يعلم هذا؛ لكن لم؟ لم كانت عائشة ونوري يريدان قتل جوكسل؟ هذا ما لم يكن يعرفه.

ثم إن الرجلين الذين هاجماه آنفًا في حجرة زهرا في هذه الليلة لا بدَّ أنهما كانا يقذفانه بالبلطة والسكين ظانين إياه جوكسل، فمن كانا هذين؟ لا بدَّ أن هذين الوغدين -الذي علم أن أحدهما متسكع اسمه صدقي- هما آلات مستأجرة بالمال، حسنًا؛ لكن من الذي يستخدم هذه الآلات؟

أهي عائشة ونوري؟

أيكون نوري هو المستمر في العراك بما أن عائشة قد توفَّت؟ أم أنه يوجد أعداء آخرون لجوكسل غير عائشة ونوري؟

أدرك خالد جميل أنه لن يستطيع حل هذا المعضلة أيضًا؛ فغمغم بينه وبين نفسه:

- «إن كنت أنت الرجل؛ فما شأني أنا؟! لم أنل من هذه المغامرة غير عذاب القلب؛ المسكينة عائشة!».

كان خالد جميل يعلم بأن عليه القيام بعمل أخير من أجل النجاة بنفسه من براثن هذه المغامرة: إرسال المليون إسترليني إلى عنوان أياس باشا، وهذا أول عمل سيقوم به في الصباح الباكر.

قام من مطرحه وذهب إلى خزانة ثيابه ففتح ضلفتها ووضع المليون إسترليني في جيب ثياب جوكسل المعلقة داخلها.

أخرج الثياب من الخزانة، فما يجب أن يخرجه من رأسه ليست المليون فحسب بل هذه الثياب أيضًا.

كان واثقًا من أنه لم يمت؛ رغم الأخبار الواردة في الجريدة، لم يقتل جوكسل لأنه هو من يظهر باعتباره قاتله، ولأنه تم الادعاء بأن جوكسل لم يأت بيته كي تثار الشبهة حول هذا.

أخرج المليون إسترليني من جيب الثياب ووضعها في ظرف، ومن ثم بينما هو يفتش في المعطف لئلا يكون شيء متعلق به قد بقي خطأ فيها مست يداه فجأة دفترًا في قعر أحد الجيوب الجانبية، كان دفتر مذكرات ذا أوراق رقيقة للغاية.

أخذ يقلبه ويفكر: «أأقرأه أم لا؟ أتحق لي قراءته أم لا؟»، ثم فتح صفحته الأولى

وشرع في القراءة على الفور:

«ربما سيقضي عليّ ما أكتبه الآن ذات يوم؛ لكن الأمر ليس بيدي، فأنا أشعر حين كتابتي أني أحكي لأحد ما؛ ما لم أستطع التحدث به مع أي أحد فتغمرني حينئذ السعادة، وأنا في أمس الحاجة لهذه السعادة... فيا للعجب! أتتطلب هذه السعادة التخلص من هذا الحمل الثقيل الذي نطلق عليه عذاب الضمير؟ لا أعلم هذا؛ لكني أشعر بالراحة التي يمنحها لي الاعتراف؛ تغمرني كأنها مياه باردة في يوم حار؛ كلما كتبت».

غلب الحماس خالد جميل فاتقد وجهه احمرارًا، وكاد يصرخ من السعادة والفرح. سيحل اللغز بالنهاية ويفتح باب السر المخيف الذي لا يعرفه أحد على الأغلب سوى جوكسل، وربما لا تعرفه حتى عائشة ولا نوري...

وإذ بجوكسل ذلك الرجل المليونير ذي العينين الجامدتين؛ ضعيفًا يتلوى بألم داخل ذلك الدفتر الصغير، ومسكينًا يأنّ باعترافه في صمت.

أدرك خالد جميل لِمَ كان جوكسل يكرهه قبل أن يعرفه، ربما كان لعائشة دخل بهذا، وربما كان هذا سبب تعاسته إلى حد تفكيره في قتل عائشة والانتحار.

وربما كونه زوجًا لعائشة هو السبب فقط في معاداته له!

أشعل سيجارة واستأنف قراءة الدفتر الصغير كأنه يقف أمام جوكسل بذاته منكسرًا نادمًا كتفاه متهدلتان، بينما هو المحقق الذي لا تشغله إلا العدالة الناجزة فقط في مواجهة جوكسل المتهالك هذا:

«أدركت الآن لِم يأتي بعض المجرمين ويسلمون أنفسهم بأنفسهم دون أي سبب رغم أن الجرائم التي اقترفوها قد نسيت منذ زمن.

الاعتراف والبوح وشرح كل شيء كما جرى...

من أين أبدأ؟ من البداية! فمن أين تبدأ حياة الإنسان؟! أمن يوم ولادته؟ برأيي؛ لا! فحياة الإنسان تبدأ منذ يوم عثوره على طريقه أو سلكه هذا الطريق؛ أما أنا فحياتي بدأت مذ يوم ولادتي.

كانت ولادتي قبل إعلان المشروطية بثمانية أعوام في قصر على البوسفور مكون من أربعين غرفة، وكان أبي باشا كبيرًا بسكسوكته ونياشينه التي تزيد على شعرات سكسوكته هذه، كان أحد البشوات المقدمين عند سيف الدين باشا وعبد الحميد، حيث كان يشي له بأمور أكثر وأبلغ أهمية من السرهافية[5]...

صرت ملازمًا أول بعمر الرابعة، وبعمر الثمانية فقد أبي الباشوية وفقدت رتبة الملازم وهربنا إلى فرنسا.

لم يضر أبي أو يضرني إعلان المشروطية، فلم يعدم الاتحاديون أبي؛ بل نفوه لخارج الحدود فقط.

استقررنا في نيس في فرنسا واستأجر والدي ڤيلا؛ لم تكن مثل قصرنا المطل على المضيق ولا مضيفتنا التي في تشامليجا؛ لكنها كانت أكثر راحة.

لم أعرف أمي أبدًا فقد ماتت وهي تلدني، وكبرت في نيس مع مربيتي وأستاذي، كما كان لأستاذي ابن يكبرني بأربع أو خمس سنوات اسمه حسين.

كان يوجد بالبيت خدم وصبي.

وقد تعلمت منهم درسي الأول في الفرنسية.

عندما بلغت الرابعة عشرة وقع في العالم حدثان مهمان بالنسبة لي؛ تم إعلان الحرب العالمية، وجلب أبي إلى الڤيلا فتاة فرنسية بعمر العشرين رغم تجاوزه الخمسين من عمره، وقال لي:

« فلتعتبرها شبه أم لك!».

كان اسم شبه الأم خاصتي لوسي، وكانت مدموزيل لوسي هذه راقصة ملهى، وقد تعثر أبي بها وتعثرت به في ليلة سكر حيث تعلق أبي بعينيها الزرقاوين وشفتيها الحمراوين وتعلقت هي بماله الذي شاع الحديث عنه في نيس حتى.

لا يمكنني أبدًا نسيان المحادثة التي جرت بيني وبين حسين ابن أستاذي بينما كنا

5- السرهافية (المخبرون): هم الأشخاص الذين يترأسون مجموعة مكلفة بجمع الأخبار السرية في القصر العثماني.

نتجول في الحديقة بعد يومين من مجيء مدموزيل لوسي إلى الڤيلا:

- «لا تزال غرًّا ولا يستوعب عقلك هذا؛ لكن أبوك الباشا هذه المرة ظفر بغنيمة كبرى أيها البيك الصغير».

- «لِم لا يستوعب عقلي؛ فلست أعمى لدرجة ألا يمكنني رؤية جمال مدموزيل لوسي يا هذا».

لم يكن هذا الرد الذي أجبت به حسين الذي يكبرني بأربع سنوات دون علمي بترديده من قبل الأطفال الذين كبروا دون أي تربية أو رعاية؛ نوعًا من تقليد الشتيمة التي تعلمتها في الشارع.

فقد بلغت الرابعة عشرة ونضجت إلى حد ملاحظة جمال مدموزيل لوسي.

في العام الثاني للحرب العالمية صرت عاطلًا، أدخن السجائر؛ بينما بات أبي أسيرًا لمدموزيل لوسي كما أصبحت هي أكثر جمالًا.

توفي أستاذي ومربيتي، وطفت أنا وحسين أو بالأحرى بإرشاد من حسين على أبواب بيوت نيس سيئة السمعة.

لم يعد أبي يكترث بالدنيا أو يعنيه أمري؛ حتى إنه باع دبوس رابطة العنق ذا اللؤلؤة الضخمة الذي أهداه له السلطان عبد الحميد وكان يستمتع بمداعبة ظهره المستدير بأصابعه الغليظة، وقد أبلغني بهذا الخبر حسين كما أضاف:

- «سينفذ مال والدك؛ ليحسن الله خاتمتنا!».

بلغت السابعة عشرة من عمري مع دخول الحرب العالمية عامها الثالث.

ثم حلت الليلة التي ضجت فيها نيس بأضواء ورايات وصخب انتصار فرنسا.

انسحب أبي إلى غرفة نومه باكرًا، لربما يتذكر برفقة روماتيزمه على انفراد أيامه الخوالي ذات النياشين والأشرطة القديمة التي لن تعود أبدًا.

أما أنا فكنت في الصالون مع لوسي، وقد أخذ الخدم إجازة، وخرج حسين للشارع ولم يرجع بعد.

ارتدت لوسي كيمونو ياباني، سمعت من حسين أن أبي اشتراه من فرنسي ذي فك مدبب خسر كل ماله في مونت كارلو بعد أن كان يعمل سفيرًا لليابان.

ظلت لوسي تتفرس فيّ واضعة ساقها على الأخرى.

كانت المرة الأولى التي نبقى فيها بمفردنا منذ مجيئها لبيتنا، والمرة الأولى التي تتطلع فيها إليّ هكذا.

لا يتجاوز عدد الكلمات التي تبادلناها خلال السنوات الثلاث ثلاثمائة كلمة؛ إلا أننا في هذه الليلة جلسنا مقابل بعض لساعات دون التفوه بكلمة واحدة.

لم يراودني النوم وعيناها كانتا أشبه بجمرتين متقدتين.

شعرت بأن كلينا داخل عاصفة بلا صوت؛ عاصفة ترسل صواعقها بين السحب الرمادية المحملة.

وصل هذا الانتظار غير واضح الخاتمة في نهايته إلى حد لا يمكن احتماله فهببت فجأة واقفًا، فحدثتني متمعنة في وجهي بإصرار أكثر:

- «إلى أين أنت ذاهب؟».

أجبتها:

- «للنوم».

- «أغلبك النعاس؟».

- «لا!».

- «فماذا إذًا؟».

جلست مكاني ثانية ولفنا الصمت من جديد، ثم كانت هي من بدأ الحديث من جديد:

- «كم عمرك؟».

قلت: «سبعة عشر».

- «عجبًا؛ مع أنك تظهر أكبر من هذا!».

انطلق من فمي دون وعي السؤال الذي طرأ على ذهني بغتة فقلت:

- «ألم تلحظي هذا غير الآن؟».

أجابت بصوت عجيب:

- «لا؛ بل منذ مدة..».

ابتهجت؛ ثم انتابني الخجل إثر بهجتي المبهمة هذه، فعاودت سؤالها:

- «وكم يظهر عمري؟».

- «ليس أقل من عشرين سنة؛ لكنكم يا رجال الشرق تصبحون رجالًا قبل الآوان، فتتزوجون في السابعة والثامنة عشرة من فتيات بالرابعة والخامسة عشرة من أعمارهن».

لم أرد؛ لأنني لم أفكر من قبل حيال كوني شرقيًّا أو غربيًّا، آسيويًّا أم إفريقيًّا؛ لذا استغربت من وصفها لي بالشرقي.

فُتح باب البيت ثم أغلق فقلت:

- «إنه حسين على الأغلب».

هبت على قدميها إذ فجأة كأنما أزعجها شيء ما وقالت: «سأذهب للنوم»، ومن ثم خرجت وتركتني بمفردي في الصالون.

كان القادم هو حسين بالفعل وأصابته الدهشة عندما وجدني في الصالون بمفردي.

«ما هذا ألم تنم بعد؛ أيها البيك الصغير؟».

قلت: «لا»؛ ثم حكيت له المحادثة التي جرت بيني وبين مدموزيل لوسي كما لو كنت أخبر أحد أصدقائي بسر.

ضحك ضحكة ماكرة ثم قال:

«ابتسم النصيب لك أيها البيك الصغير، فلا تفوت الفرصة!».

فهمت ما يريد قوله ليس بإحساسي ولكن بإدراكي لما يرمِ له، فاحمررت خجلًا؛

لأنه على الرغم من كل وقاحاتي وعدم تلقي الحد الأدنى من التربية خلال نشأتي؛ أثار دهشتي إيماؤه المتعلق بامرأة تعود لأبي؛ لكني لم أغضب؛ بل تصرفت كأني لم أفهم كما لم يصر حسين على قوله كذلك.

لم يهبط أبي في الصباح التالي إلى الأسفل، فتناولت الطعام أنا ولوسي متقابلين وبدت لي بعيدة عني كما في كل وقت، بل إنها لا تلاحظ وجودي حتى، وحاولت أنا أيضًا التصرف كالمعتاد».

أغلق خالد جميل دفتر مذكرات جوكسل وأشعل سيجارة، ووقف محاولًا عدم التفكير في أي شيء حتى انتهائها. لم يعد صخب الترام البعيد يتردد، ولف الصمت بي أوغلو بكل شوارعها.

فتح الدفتر الصغير ثانية واستأنف قراءة الكتابات المخطوطة بخط رفيع من حيث توقف:

«عثرت على لوسي في الحديقة عشية، وكان بيدها كتاب فمدته إليّ قائلة:

- «أقرأت هذا؟».

قلت: «لا؛ لا أحب قراءة الكتب!».

- «ومع ذلك اقرأ هذا!».

- «لم؟».

- «إنه كتاب مشوق يروي حكاية الملك أوديبوس من بدايتها».

- «ومن يكون الملك أوديبوس؟ وبأي بلد تقع مملكته؟ أهو ملك إسبانيا؟».

ضحكت قائلة: «لا؛ فهذا الملك هو ملك كان يعيش منذ قديم الزمن في مملكة اليونان القديمة على الأغلب، لم أتعرف أنا أيضًا على بعض الأماكن فيها؛ لكن سياقها مسلي للغاية، لأحكي لك عنها إن أردت!».

توجد في الحديقة أشجار ليمون ومكان يواجه عطر أزهار الليمون والبرتقال الساحر. لا أعلم كيف؛ ولكنني وجدت نفسي مع لوسي هناك، كانت تجلس على أحد المقاعد الخشبية المرتفعة عن الأرض المتراصة وسط إصيصات الزهور وقالت:

- «تعال إلى هنا! اقترب إلى جواري وسأحكي لك عن مغامرة الملك أوديبوس».

جلست بجوارها وتماست ركبتانا.

- «كان يا ما كان في مدينة تب ملك يدعى لايوس، ذهب الملك لايوس ذات يوم إلى الكاهن العظيم في دلفي وقال له:

- اقرأ لي طالعي!

نظر كاهن دلفي في فأل الملك وأبلغه الآتي:

- ستنجب ولدًا وسيقتلك ثم يتزوج بأمه ويجر مملكتك للهلاك.

عاد الملك لايوس إلى قصره ما إن أخبر بطالع فأله، وإذ به يبلغ بولادة الأمير جوكاست، فماذا يفعل؟ يجب أن يقتل الطفل كي لا يتحقق فأله.

أعطى الطفل المولود حديثًا إلى رجاله على التو وأمرهم:

- خذوا هذا فاقتلوه!

لكن الملكة أجزلت لهم العطاء ورجتهم أن يدعوه في الغابة لأنها لم تكن تريد قتل صغيرها، وإذ بهذا الطفل الذي تركه الجنود في الغابة..».

توقفت لوسي فجأة وتطلعت في وجهي...

ثم قالت: «لقد مللت على الأغلب! سأختصرها لك، بعد أن خاض العديد من المغامرات وحل لغز الوحش الذي يحمل رأس امرأة وجناحي نسر وجسد أسد؛ قتل ابن الملك لايوس الذي أطلق على نفسه اسم أوديبوس والده بالفعل وتزوج أمه، فما رأيك في هذا؟».

لم أعرف بم أرد فلست بحال تسمح لي بالتفكير في مغامرة أوديبوس الذي قتل أبيه وتزوج أمه، فقد شعرت بدوار رأسي جراء تماس ركبة المرأة الشابة مع ركبتي، وكدت أن أفقد وعيي تحت تأثير هذا الهواء المشبع برائحة الليمون العميقة الساحرة، فبقيت محملقًا في ما أمامي.

أمسكت لوسي بيدي فجأة وتفرست في وجهي وعيني قائلة بصوت مختنق:

- «لا أنت الملك أوديبوس ولا أنا أمك!».

لم أرد فضحكت فجأة دون أن تحرك عينيها عن عيني:

- «يا للعجب؛ إن عينيك زرقاوان؛ زمردتان زرقاوان، ألا تضحك عيناك أبدًا؟ إن تلك العينين مليئتان بالخيانة، لا بدَّ أن عيني الملك أوديبوس كانتا كذلك..».

انحنت عليّ رويدًا رويدًا وكانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها وجهها بهذا القرب، ثم أصبحت لا أرى إلا عينيها؛ ثم شفتيها الحمراوين الغليظتين، وبالنهاية لم أعد أرى إلا هاتين الشفتين المنفرجتين قليلًا.

دنت شفتانا من بعضهما في لحظة.

... ...».

لم يستطع خالد جميل أن يمنع نفسه من الضحك؛ فقد وضع جوكسل في مذكراته هنا عدة نقاط كأنها رواية، ومن ثم استأنف كتابته كما يلي:

«بدأت في احتساء الشراب، كانت لوسي تحتسي الويسكي؛ وكذلك صرت أنا، وأصبح حسين كاتم سرنا، وفهم الأمر كل من في البيت كذلك الخادم الذي لم يتبقَّ غيره والصبي الفرنسيان؛ ورغم ذلك ظلت لوسي تحتاط من والدي.

دخلت أنا ولوسي وحسين «ملهى ليلي» في العام 1918؛ بينما كان أبي نائمًا منذ مدة، فقد أصبح يقوم من فراشه مرة في الأسبوع بالكاد.

عدنا إلى البيت سكرانين قبيل الصباح وأصرت لوسي على البقاء في غرفتي، وبقيت.

عندما استيقظنا في اليوم التالي ظهرًا، وجدنا باب غرفتنا مفتوحًا على مصراعيه؛ على الرغم من تأكدي من إغلاقه جيدًا ليلة البارحة.

نزلت إلى الصالون وذهبت لوسي إلى حجرة أبي ثم جاءت إلى الصالون بعد فترة يعتريها الاضطراب وقالت:

- «أبوك ليس في حجرته!».

سألنا الخادمين.

خرج أبي إلى الشارع صباحًا! لم يكن قد خرج للشارع في الصباح هكذا منذ عامين، حيث كان لا يخرج إلا مع لوسي مرة في الأسبوع للتنزه كما ذكرت آنفًا.

انتظرناه على طعام الغذاء فلم يأتِ، شب بأعماقي قلق رهيب وتجنبت لوسي حتى المساء.

أتى أبي عندما حل المساء وكان متهالكًا وبدت لحيته التي كان يغزوها الشيب بيضاء ناصعة.

دفع عنه لوسي التي استقبلته عند الباب هامة باحتضانه بحركة يرتاب في مغزاها، ثم قال محاولًا عدم التطلع في عين أحد:

- «أنا متعب للغاية، تجولت قليلًا هنا وهناك، تناولوا أنتم طعامكم بالصحة والعافية!».

لم أحتسِ الشراب على المائدة ذلك المساء رغم إلحاح لوسي وانسحبت على الفور إلى غرفتي.

لم أستطع النوم بأي حال، حل منتصف الليل وباتت حجرتي معتمة إثر إطفائي للمصباح منذ مدة طويلة، مر منتصف الليل ولم أكن قد استطعت النوم بعد، وإذ بباب حجرتي يُفتح ببطء؛ غير أني لم أستطع رؤية من فتحه جراء انطفاء مصباح الردهة بالخارج.

ربما هي لوسي!

ناديت بخفوت:

- «لوسي..».

فلم يرد الشبح الواقف على الباب كأنه لا يسمع صوتي، ثم اقترب مني ببطء...

جال بخاطري: هذه ليست لوسي، لا شك أنه لص؛ فثمة لص قد دخل إلى الڤيلا في العام الماضي وأمسك به حسين.

تسارعت ضربات قلبي.

دنا الشبح من فراشي فتابعت دنوه شبه مغمض عيني لكي أتأكد من بريق عينيه إن كان إنسانًا...

مال فوقي ممسكًا بظُلة المصباح الأشبه بالكمثرى المتصلة بسلك عند قمة رأسي.

انفتحت يداه لتطوق حلقي وشعرت بأصابعه تمس جلد رقبتي.

وما إن هممت بدفع صدر الشبح المستعد لخنقي بقبضة يدي اليمنى بكل قوتي؛ مست يدي اليمنى الزر الذي على طرف السلك الكهربي.

فانطرح الشبح المنحني فوقي أرضًا للخلف ومن ثم أضيئت الغرفة في ذات اللحظة.

قفزت من فراشي على الفور ونظرت إلى الراقد على الأرض، كان مغشيًّا عليه ويتقاطر الدم من أنفه على لحيته البيضاء؛ كان هذا أبي!

احترت في ما أفعله.

شعرت أني لو لمست أبي الراقد على ظهره ممدًا على الأرض؛ ستحترق يدي.

انتفض عقلي.

جاء أبي لخنقي.

يمكنني الآن تخمين من فتح باب الحجرة مساء البارحة.

لمست يد كتفي فاستدرت وإذ بها لوسي.

تلاقت عينانا.

قلت: «كان يريد قتلي».

قالت: «لا بدَّ أنه رآني في غرفتك مساء البارحة».

رفعنا أبي من على الأرض، وبينما كنا نرقده على الفراش استفاق وألقى نظرة على وجه لوسي ثم قال لي: «ماء!».

فأعطيته المياه ومسحت لوسي وجهه المدمى بمنشفة رطبة.

بات العجوز مثل الطفل الآن تمامًا؛ سحبنا اللحاف عليه فنام على الفور، وبينما كنا

نخرج من الحجرة على أطراف أصابعنا قابلنا حسين في الردهة فقال:

- «ماذا هناك؟ ماذا جرى أيها البيك الصغير؟».

«حكيت له ما جرى، فعقد حاجبيه وقال:

- «إذًا فسنعاني الكثير بعد ذلك».

بدأ ما قاله حسين في الوقوع بالفعل، ففي اليوم التالي استدعاني أبي إلى غرفته وقال:

- «اجمع كل حاجياتك وأشيائك واغرب من بيتي على الفور؛ وإلا..».

لم أكن قد رأيت أبي كذلك من قبل، ربما رآه بهذه الحالة طلبة الطب الذين ساقهم إلى طرابلس بينما كان يقوم بوظيفة المدعي العام بمحكمة يلديز.

قلت: «حاضر»، وبينما أنا أخرج دون إضافة أي شيء آخر؛ قال: «قف!».

فتوقفت.

«توجد على تلك الطاولة ثلاثة آلاف فرنك؛ خذها!».

أخذت النقود ثم خرجت.

كانت لوسي تنتظرني بانفعال في الأسفل وحسين أيضًا كان هناك، سألتني:

- «ماذا يريد؟ ماذا حدث؟».

- «طردني من البيت».

- «حقًّا؟».

- «أجل!».

تدخل حسين في الكلام:

- «ماذا ستفعل الآن أيها البيك الصغير؟».

- «لا أعرف! سأذهب من هنا».

- «وأنا أيضًا سآتي معك».

- «وماذا ستفعل إن أتيت معي يا حسين؟».

- «كما ستفعل!».

صعدت لوسي إلى الأعلى بينما كنت أتحدث مع حسين، وتعالت بعض الأصوات من حجرة أبي فجأة؛ فأنصتنا.

لم يكن الكلام مفهومًا؛ لكنها كانت المرة الأولى التي يعلو فيها صراخ لوسي ثم توقف بغتة وعم البيت صمت مهيب.

حدقت في وجه حسين برعب فأشار لي بيده -وهو يهرول على الدرج- أن «تعالَ»، فلحقت بإثره.

صعدنا إلى حجرة أبي لاهثين وما إن اجتزنا العتبة ودلفنا إلى الداخل حتى أصابنا الجمود لوهلة.

كانت لوسي مسجاة على الأرض.

داخل دمائها.

وأبي فوقها وفي يده سكين يوجهها إلى كل طرف منها يأتي أمامه ويغرسها فيه.

قفزت مع حسين فوق أبي وعندما رآنا أطلق صرخة مخيفة كأنه طائر بري، ثم أراد أن يدافع عن نفسه بالسكين التي في يده، فأخذت السكين من يده ودفعه حسين فتدحرج على الأرض وانقضضنا عليه، فبات يصرخ ويزمجر مثل الذئب العجوز الجريح فأغلقت فمه واعتلى حسين صدره».

تشابكت يدا خالد جميل فجأة فسقط الدفتر على ركبتيه وشحب لونه وعلقت غصة حارقة في حلقه بينما كان يستأنف قراءة مذكرات المليونير جوكسل:

«حين نهضت أنا وحسين من فوق أبي كان هامدًا بلا حركة على الأرض مثل جوال بال فارغ، مست يد كتفي فاستدرت بخوف، كان بمقابلي شرطيان... وخلفهما الصبي والخادم الفرنسيان.

أدركت ما حدث، لا بدَّ أنهم شعروا بما جرى في البيت، وعندما سمعوا صرخة لوسي ورأوا ركضنا مثل المجانين لأعلى؛ ذهبوا واستدعوا الشرطة.

قال شرطي بشارب عريض يرتدي كابًا: أعطني ما بيدك!

نظرت في يدي، كنت ما زلت ممسكًا بالسكين التي طعن بها أبي لوسي.

سلمت السكين للشرطي.

وانحنى الشرطي الثاني على أبي ثم اعتدل ببطء وقال: «لقد مات».

كان الخادم الفرنسي منهمكًا مع لوسي المسجاة بين دمائها على الأرض ثم استقام هو الآخر وقال:

- «وهذه أيضًا».

تركنا الجثتين خلفنا وخرجنا من باب الفيلا بين الشرطيين؛ فوجدنا الشارع ممتلئًا لأجل رؤية الابن قاتل والده وعشيقته؛ مع شريكه في الجريمة.

لم يتأخر القضاة والمحكمة عن التصديق على الحكم الذي أصدره الشارع، ولم يستطع المحامون الذين وكلتهم إثبات براءتي أنا وحسين من الجريمة، فشهادة الصبي والخادم الفرنسيين اللذين كانا في البيت كانت ضدنا.

كما لم أستطع الاستفادة –أيضًا- من صغر سني حيث لم نستطع العثور على بطاقة تحقيق الشخصية خاصتي لأننا كنا في الحرب، فتم عرضي على الطبيب وصدر بحقي تقرير يقضي بتجاوزي العشرين من عمري.

وبعد شهرين من الاستجواب والمحاكمة صدر ضد كلانا حكم بخمسة عشر عامًا مع الأشغال الشاقة، ثم انتهت الحرب العالمية فأرسلونا إلى غويان ما إن أعلنت الهدنة».

كتب جوكسل هذه الكلمات عندما وصل إلى هنا في مذكراته:

«وهكذا انتهى الفصل الأول من حياتي».

شرع خالد جميل بفضول وشغف أكبر في قراءة «الفصل الثاني» من حياة الرجل

الذي أنهى هكذا «الفصل الأول» من حياته، وقد ترأس جوكسل المكتوب بعد ذلك بعنوان «الفصل الثاني من حياتي»:

«بدأ الفصل الثاني من حياتي بين المساجين الفرنسيين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة في غويان على بعد 7000 كم من السواحل الفرنسية.

يوجد على ساقي الآن بنطلون خشن كأنه مصنوع من قماش الأشرعة؛ مضلع بخطوط حمراء وبيضاء، وعلى رأسي قبعة غليظة من الحصير خضراء.

لم تكن القبعة لإظهار شأني، ولا كي لا أحترق بنار الشمس؛ وإنما هي لئلا أواجه أي أحد ولا حتى المساجين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة في ديار جهنم هذه...

من أين عليّ أن أبدأ كتابة الفصل الثاني من حياتي؟ أمن يوم وطئت قدماي هذا المكان؟ فكرت كثيرًا في هذا؛ لكنه غير ممكن فهناك بقع مظلمة كبيرة تعتم أجزاءً من هذا الفصل الثاني في عقلي.

كان السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة في غويان ينقسمون إلى طبقتين: أرستقراطيين وعوامًا.

فكان السجناء من طبقة العوام يكسرون الحجر في الغابات ويعيشون ويموتون تحت أعباء لا تحتمل...

أما الأرستقراطيون فكانوا يعملون في الإدارة وفي أعمال الكتابة وفي المشفى ورعاية المرضى والخدمة ببيوت بعض الموظفين والتجار.

إلا أن كل المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة سواءً أكانوا من الطبقة الأولى أم من الطبقة الثانية؛ يجب عليهم العودة إلى أكواخهم قبل غروب الشمس؛ إذ إن الأبواب توصد ما إن تغرب الشمس، وبعدها تبدأ الحياة الحقيقية للسجناء داخل أكواخهم مع صرخات قرود الغابة وقططها البرية في الليل بالخارج...

تتعالى القهقهات والشتائم في ظل أجواء الكوخ الحارة الخانقة شبه المظلمة ذات الرائحة الكريهة، وتفرش خرقة صغيرة كل ليلة في الطرف للعب القمار.

قطنت أنا وحسين الكوخ رقم (4) في البداية وكان معنا سجين آخر اسمه مارسلين

لا يلعب القمار؛ حيث لم يكن يستطيع رؤية شيء على الرغم من رقاده على شبكة فاتحًا عينيه؛ بسبب إصابته بمرض يطلق عليه هنا اسم «العمى الليلي» لأن المصابين بهذا المرض يصيبهم العمى بمجرد حلول المساء على الرغم من استطاعتهم رؤية كل شيء نهارًا، ويرى السجناء أن دواء هذا المرض؛ أكل كبد نيِّئ، ومع أنه كان يقتل كل يوم قطة ويأكل كبدها نيئًا مدمى إلا أنه لم يُشفَ.

كانت الليلة الثانية لمجيئنا إلى الكوخ، فكان حسين يلعب القمار وكنت أنا راقدًا ممدًا ظهري على الشبكة.

ومن ثم انتابني البكاء فجأة، وكانت هذه المرة الأولى التي أذوق فيها طعم الدموع منذ أن صرت شابًّا.

أحسست بانحناء رأس فوق شبكتي بغتة، كان وجهه مقطوع الأنف يحمل أثر جروح مرض الزهري.

انحنى عليّ أكثر وقال بصوت هامس:

- «لِم تبكي يا صغيري؟ أيمكنني مواساتك؟».

بدأت أصابع يده ذات الأظافر السوداء الطويلة تمر على بطانيتي.

انقطع بكائي فجأة فحدق الرجل في وجهي وشعرت بأنفاسه الحارة القريبة مني للغاية فتراجعت للوراء ثم اعتدلت داخل الشبكة وقلت له: «اذهب إلى عملك هيا!».

ضحك ضحكة قبيحة مبديًا أسنانه المسوسة:

- «لا ترهق نفسك عبثًا يا صغيري، فمهما يكن...».

فار الدم في رأسي فجمعت كل قوتي ونزلت بقبضتي على فك الوغد فتدحرج على الأرض محدثًا جلبة كبيرة.

وثبت من الشبكة على الفور فسقطت فوقه وقبضت على حلقه.

ثمة قاعدة متعارف عليها هنا بين الأكواخ، لا أحد يتدخل بين المتشاجرين بل يراقبونهم من بعيد فقط، وبسبب علم حسين بهذه القاعدة على إثر شجار جرى بالأمس لم يتدخل هو أيضًا، كما ظل أصدقاء الوغد يشاهدون كذلك، لم أدع الشقي

حطمت رأسه ضاربًا إياه بالأرض؛ ولولا أني سيطرت على نفسي بالنهاية لكنت قتلته.

انقضى عام. كنت أنا وحسين من طبقة العوام وبدؤوا في تشغيلنا في الطريق رقم (1) المار داخل الغابة البدائية التي لم تمسها يد، ومن ثم أرسلونا إلى جوردون ڤيلا على بعد 50 كم من كورون، وعملنا هناك في الغابة المليئة بالأشجار القيمة التي تقدر قيمتها بالذهب، كنا ثلاثين سجينًا دون أي حارس أو سجان لأنه لم يكن أي منهم ليقبل بالحياة هنا ولو ليوم.

حيث كان هناك نوع من أسوأ الحيوانات الوحشية وأشد سمًّا من الأفاعي؛ هو الحمى المرعبة التي تقتل من يصيبه؛ لدرجة أنها يوم أصابتني كدت أن أعتصر حلقي بيدي لئلا أستمر في الحياة.

كانوا يبعثون لنا بالمؤونة كل أسبوع، ويالها من مؤونة!

وخلال الأشهر التي عملنا بها هنا وكنا خلالها نواجه الموت على الدوام؛ لم يمر طبيب على موقعنا ولم يصلنا أي خبر.

عدنا ذات يوم -وكانت المياه التي بحوزتنا قد نفذت- إلى الأكواخ بعد شربنا من مياه المستنقع الراكدة القذرة إثر انتهاء عملنا فظهر أمامنا فجأة رجلان؛ وعلى الرغم من أن بنطاليهما وقبعتيهما كانا مختلفين عنا إلا أنه كان جليًّا كونهما من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة مثلنا.

كانا حافيين ووجهاهما شاحبين، اقترب أحدهما منا وقال: «أنا سالير 2465! وهذا صديقي 2515 وقد فررنا من معسكر راش، فأعطونا شيئًا نأكله لأننا جوعى».

أعطينا هذين الشخصين، أو بالأحرى الحيوانين البريين الجائعين بعضًا من خبزنا الجاف ومعلباتنا الفاسدة، فأكلا وذهبا في اليوم التالي.

ومن عجب العجاب أن يوجد الواشي والمخبر في جهنم هذه حتى! فما لبث أن تردد أننا ساعدنا اثنين هاربين فحاصرنا نقيب معكسر راش بكتيبة سريته.

ولم يكن بأيدينا ما نفعله سوى الاستسلام! فأمامنا مليء بالحيوانات الوحشية والأفاعي السامة، وعلى جانبنا الأيمن بحر تسبح داخله القروش وخلفنا وعلى يسارنا جنود معسكر راش.

استسلمنا، فأخذونا إلى العاصمة وزجوا بنا بين جدران السجن الحجري لأننا ساعدنا شخصين جائعين.

بدأ السجن الحجري الذي كان يحمى مثل الفرن نهارًا ويبرد مثل الثلج ليلًا في قتل واحد تلو الآخر من الثلاثين شخصًا الذين لم تستطع جوردون ڤيلا حتى القضاء عليهم، فنزلنا من ثلاثين لعشرين ثم بتنا خمسة عشر.

حل الشهر الثاني لزجهم لنا في هذه السلخانة التعسة، وذات صباح نزل زائر جديد ضيفًا على مهجعنا، كان رجلًا طويل القامة غزا الشيب لحيته يوحي مظهره بالاحترام على الرغم من كون وجهه نحيلًا وشاحبًا كجمجمة ميت.

كنت أنا أول من تحدث معه، فسألته أولًا عن رقمه، ورد:

«3678».

قلت: «واسمك؟».

أجاب: «مختار».

كان يوجد بغويان كثير من السجناء الذين تم جلبهم من المستعمرات المسلمة التابعة لفرنسا ومن الجزائر وتونس على وجه الخصوص، لذا ظننت أن مختار ذا الرقم 3678 واحد منهم؛ إلا أن الرجل الذي أمامي لم يكن يشبه الجزائريين ولا التونسيين.

فسألته: «من أين أنت؟».

قال: «من إسطنبول».

قلت: «وأنا أيضًا من هناك، من إسطنبول».

فبدا على وجه مختار المريض النحيل كالجمجمة البهجة، وشعرت بأنه أمسك نفسه بصعوبة كي لا يلقي بنفسه عليّ ويمطرني بوابل من القبلات.

اقترب حسين في هذه الأثناء من جوارنا فقلت مشيرًا إليه:

- «وهذا أيضًا من إسطنبول».

قبض مختار على يدينا، وبدأنا نتحدث بالتركية، فقال:

- «ماذا حدث وجاء بكما إلى هنا؟».

فحكينا له ما مر بنا، وصدق على الفور أن هيئة المحاكمة لم تصدقنا، كما أنه كان يعرف أبي بالاسم.

قال: «لا تتضايق يا بني! لم يكن أبوك رجلًا صالحًا؛ لكن ليس من العدل أن تدفع أنت مقابل ذنبه هكذا».

ومن ثم حان وقت استجوابنا نحن فسألناه:

- «وأنت ماذا حدث وأتى بك إلى هنا؟».

بدأ حديثه بقوله: «ربما لم تسمعوا بهذا الخبر؛ اقتحمت جيوش وأسطول دول التحالف إسطنبول».

لم نكن قد سمعنا بهذا الخبر –وإن أردتم الحقيقة- فحتى لو كنا سمعنا به؛ ما كان سيؤثر بنا تأثيرًا فعالًا، فقد كنت أنا وحسين بعيدين كل البعد عن الوطن...

قلت: «لا؛ لم نسمع».

تنهد مختار ثم استأنف حديثه متمعنًا في عيوننا ومفتشًا عن الهم في أعماقهم:

- «أنا من سلالة جوموش أوغلو، ولي ابنة وابن وزوجة، كنا نقيم في اسكودار، وذات مساء كنت عائدًا لبيتي، وبينما كنت أنحرف إلى حيّنا رأيت ثلاثة عساكر من جنود الاحتلال متجمعين أمام باب بيتي يصرخون ويصيحون.

استأنفت سيري مهرولًا، وفي هذه اللحظة تمامًا انفتحت رأس أحد جيراني وصرخت امرأة عاليًا:

- اركض، اركض يا مختار بك! أدرك زوجتك!

أصابني الجنون فركضت إلى أمام بيتي؛ وماذا رأيت؟ الجنود أمام الباب يتعرضون لزوجتي العائدة من السوق، والمرأة المسكينة تمزق شرشفها وسالت الدماء من وجهها وعينيها، فتخبطت وحاولت إنقاذها من بين أيدي الأوغاد السكارى.

لم أدرِ ماذا أفعل، فسحبت مسدسي فجأة وأفرغت رصاصاته الست دفعة واحدة!

واختلط الوسط، ودوت الصافرات، وحين تمالكت نفسي وجدتني في المخفر، ولئلا أطيل الحديث عليكم فقد قتلت أحد العساكر وجرحت اثنين و..».

توقف كلام مختار فجأة هنا ثم أضاف ناكسًا رأسه:

- «توفت زوجتي -أيضًا- بإحدى الرصاصات التي أطلقتها!».

ثم سكت.

حك حسين رأسه بحيرة؛ بدأ السجناء الآخرون ينتبهون لحديثنا وإن كانوا لا يفهمونه.

قلت: «ثم؟».

رد: «ثم أرسلني ديوان الحرب المشترك لقوى الاحتلال إلى هنا».»...

ترك خالد جميل القراءة هنا لوهلة ثم أعاد فتح دفتر مذكرات جوكسل من الأمام وتوقف عند سطر:

- «أنا من سلالة جوموش أوغلو، ولي ابنة وابن وزوجة».

ذكرته كلمة «جوموش أوغلو» هذه بعدة أشياء، أجل؛ عائشة... كانت عائشة قد قالت له:

« أنا ونوري آخر أبناء سلالة جوموش أوغلو!».

يعني هذا أن جوكسل تعرف على والد عائشة خلال محكومية الأشغال الشاقة في غويان؛ حسنًا لكن ماذا حدث لمختار بك والد عائشة بعد ذلك؟ ماذا حدث حتى تزوجت عائشة بجوكسل؟ ولِم لَم يبحث نوري أخو عائشة عنها ولم يرَها لمدة عشر سنوات بعد أن تزوجت بجوكسل؟ ولماذا أرادت عائشة قتل جوكسل؟ وكيف أتى جوكسل إلى إسطنبول كمليونير؟

أدرك خالد جميل أن لا سبيل أمامه لإيجاد حل لهذه الأسئلة التي ملأت رأسه مثل سرب نحل أطلق من خليته؛ إلا بإكمال قراءة مذكرات جوكسل، ففتح الدفتر ثانية وبدأ القراءة من حيث توقف عند آخر سطرين أو ثلاثة أسطر من الصفحة:

«ربطت بيننا أنا وحسين ومختار علاقة وطيدة لا تنفك أبدًا وبعد بقائنا لشهر آخر في السجن الحجري أخرجونا وبعثوا بنا لتكسير الأحجار في الطريق رقم 1».

أدار خالد جميل صفحة المذكرات؛ لكن الدهشة أصابته عندما وجد أمامه صفحة فارغة فقلب الدفتر بارتباك إلا أنه لم يكن هناك ولا سطر واحد حتى نهايته، نظر مرة أخرى إلى الصفحة التي أنهت المذكرات فجأة وحينئذ لاحظ أنه قد تم نزع بعض الصفحات بعد هذه الصفحة.

كان الصباح قد أشرق بالخارج وسمعت في الأرجاء جلبة مرور الترام الأول من شارع الاستقلال، وأصوات إبريق اللَّبّان وحدوات حصانه، وأبواق سيارة أو اثنتين.

وبدت المصابيح الكهربائية التي في الغرفة شديدة البياض كأنما تنازع روحها بعدما نزفت دماءها طوال الليلة.

فنهض خالد جميل وأطفأ المصباح وأراد تخبئة دفتر مذكرات جوكسل.

ذهب إلى الفراش فرفع الوسادة وأدخله وخبأه بين القطن ثم عدل الوسادة وأعادها إلى مكانها.

كانت الحياة قد بدأت للتو في الخارج، وبائعو الخضروات يمرون واحدًا تلو الآخر من الحي صائحين.

أما خالد جميل فقد اعتراه حزن عميق؛ فمع أنه قد علم عدة أمور من الدفتر؛ إلا أنه فقد المفتاح بينما كان على وشك فتح باب السر الكبير.

الأفضل الآن ألا يفكر بأي شيء وأن يرحل إلى الأناضول دافنًا ذكرى عائشة في قلبه.

داعب النوم جفنيه فسار للفراش وتمدد عليه دون نزع ملابسه.

وبينما كان مسلمًا نفسه تمامًا فوق الفراش؛ فُتح باب الغرفة فجأة، فتجمد على نفس وضعيته.

كان يقف عند الباب مدنيان مع شرطيين رافعين مسدسيهما وتقدم أحد الشرطيين إلى وسط الحجرة قائلًا:

- «لا تتحرك! أنت موقوف باسم القانون بتهمة قتل المليونير جوكسل!».

7

صباح المليونير جوكسل

كان جوكسل في ذلك الصباح الذي استيقظت فيه عائشة في بيت مدموزيل روز وتم توقيف خالد جميل في حجرته؛ يذرع أطراف الحجرة التي في الطابق الأعلى من قصره في ببك ذهابًا ومجيئًا بنفاذ صبر بينما يترقب الخبر من غلامه علي.

أصابه الحنق فلم يصل إلى الآن خبر من علي.

كان قد أتى إلى هنا مباشرة بعد أن جعل خالد جميل يحل محله في الفندق الكبير، فاختبأ هنا ولم يكن أحد يعرف مكانه غير علي الذي خبأه هنا.

فقد علم في نهاية صدفة عجيبة للغاية بوجود خالد جميل، هذا الرجل الذي يشبهه كأنه أخوه التوأم، فقد تعقب ذات ليلة عائشة زوجته التي كان يراقبها منذ مدة وعلم أنها قد خرجت قرب الصباح من العمارة التي دخلتها لرؤية أخيها نوري، وعندما حقق في سبب بقاء المرأة الشابة بجانب أخيها الثمل حتى ذلك الوقت المتأخر؛ ظهر خالد جميل في داخل الأمر.

وعندئذٍ اجتاحته مع الغيرة المستعرة في أعماقه، الرغبة في التعرف على خالد جميل، فلاحظ الشبه الذي بينهما عندما أظهر له نفسه وفكر في الاستفادة المضاعفة من هذا العمل.

فالاستفادة الأولى أن يجعل زوجته تقتل حبيبها.

وأما الثانية أن يلهي أعداءه الآخرين حتى لو أن رصاصة زوجته ذهبت سدى.

بيد أن سير الأحداث لم يتقدم حيث كان يأمل منه.

فعائشة أطلقت النار على خالد جميل ظانة إياه جوكسل؛ لكن الرصاصة ذهبت عبثًا

كما أنها ارتابت في الأمر.

ولو كانت المسألة انتهت عند هذا الحد لكان جيدًا! إلا أن خالد جميل هو الآخر تراجع عن الدور الذي وافق أن يلعبه.

بيد أن...

طرق باب الغرفة من الخارج.

فزعق جوكسل:

- «ادخل!».

كان الداخل علي.

فسأل جوكسل بقلق:

- «ما الأخبار يا حسين؟».

نبهه علي بتحذير جاف قبل أن يجيب عن سؤاله:

- «أنت مرتبك للغاية! لقد فقدت السيطرة على نفسك لدرجة أنك ما زلت تناديني حسين».

قال جوكسل غاضبًا:

- «عذرًا!».

ثم سأله ثانية:

- «ماذا جرى يا علي؟».

جلس علي -تبعًا لاسمه الجديد وحسين تبعًا لاسمه القديم- على المقعد وأجابه:

- «كل الأمور تسير حاليًا في مسارها، من حسن الحظ أني فكرت في كل شيء وأبلغت الشرطة عن اختفائك وإلا..».

سكت علي.

فسأله جوكسل بفروغ صبر:

- «وإلا ماذا؟».

- «وإلا كنا سنفلت خالد جميل من بين يدينا».

- «لم؟ كيف؟».

- «سأشرح لك، أنصت إلي! ألا يوجد صدقي الذي وضعته في إثره؟“.

- «أجل يوجد! وماذا فعل صدقي؟ أولم ينجح في عمله؟ أحدث مكروه؟».

امتقع وجه جوكسل بشدة، فتطلع علي للمليونير بحيرة:

- «لم أرك قلقًا إلى هذا الحد من قبل، يا سيدي الصغير! ماذا حدث لك؟ لم تصل إلى هذه الحالة حتى في غويان. اهدأ! وتمالك أعصابك! وإلا فأنت أعلم بما سيحدث لو شابت الأمور الغيرة، فأنت ابن أبيك مهما يكن! وتعلم هذا جيدًا؛ فهو الآخر كاد أن يقتلك بسبب لوسي..».

- «دعك من الثرثرة واحكِ!».

استقبل علي الأمر الذي أصدره له جوكسل بابتسامة ثم بدأ يحكي بروية:

- «أعد صدقي كل شيء وسار الأمر أولًا في مساره لدرجة أن خالد جميل ذهب بقدميه طوعًا إلى محل البيت الذي جهزه صدقي كما لو كان صاحب دعوة، وانخدع سريعًا بدور سمسار البغاء الذي لعبه وولِج البيت..».

لم يحتمل جوكسل ثانية:

- «حسنًا إذًا! تقول إنه لم يحدث مكروه».

- «لا؛ بالعكس فالأمور كانت تسير حتى هنا على ما يرام؛ لكن زهرا أفسدت الأمر تمامًا».

- «ومن تكون زهرا؟».

- «رفيقة صدقي، وقد نشبت صداقة بينها وبين خالد جميل لدرجة أنها تحدثت

فجأة وعلم خالد جميل بكل شيء».

- «يا للمصيبة!“.

- «وكما ستعلم فلم يستطيعا قتله؛ لكن..».

- «وهل ظل لكن؟“.

- «ظل قطعًا، فأنا فكرت بكل الاحتمالات ونظرًا لأني أبلغت الشرطة فقد تم توقيف خالد جميل منذ نصف ساعة بتهمة قتله المليونير جوكسل، وإذا ظهرت المليون إسترليني التي أعطيتها له بالخطأ فالموضوع مُنتهٍ».

سحب جوكسل نفسًا عميقًا وقال:

- «واه! أي أنه الآن داخل الحبس... لا توجد نتيجة أفضل من هذا!».

لفهما الصمت لمدة ثم كان علي هو البادئ بالحديث:

- «لا تقل هذا! فعما قليل كادت عائشة أن ترحل إلى العالم الآخر، لكن لحسن الحظ أدركناها في اللحظة المناسبة وأمسكنا بها بينما كانت تلقي بنفسها في البحر».

استفسر جوكسل بألم غريب شاب صوته هذه المرة:

- «حسنًا! وأين هي الآن؟».

- «حبيسة في بيت روز، جعلوها تشرب من شرابي، وقد كانت فاقدة لكل إرادتها مثل الميتة».

صمت علي ثانية، وظل يحدق في جوكسل الذي جمع بروده من جديد في عينيه الزرقاء الجامدة، فقد كانت حالة جوكسل هذه ووثوقه من نفسه تثير حنقه منذ أمد، وكان يستمتع بشدة عندما يراه قلقًا ومرتبكًا كما كان منذ قليل، فكونه المكلف بالترتيب دومًا من وراء جوكسل في الحياة المظلمة المشوشة التي عاشاها معًا جعلت منه خصمًا له شيئًا فشيئًا، والآن بات يستمتع من أقل هزيمة له، وإن كان إلى الآن يساعده فلأنه يعلم أن الهزيمة الكبيرة التي ستصيبه والتي لا يمكن إصلاحها لن تقضي على جوكسل وحده وإنما عليه هو الآخر.

- «فيم صمتك يا علي؟“.

أعاد سؤال جوكسل المباغت هذا فتمالك علي لنفسه وقال:

- «لا شيء! كنت أفكر..».

- «وبم تفكر؟».

- «بشيئين».

- «اشرحهما واحدًا واحدًا!».

- «لأشرحهما؛ الأول هو: تم توقيف خالد جميل، وعائشة محبوسة في بيت روز؛ لكن..».

- «ألم تزل هناك لكن في هذا..».

- «ما زالت هناك؛ لكن أخو عائشة نوري لا يزال يتجول هازًّا ذراعيه الاثنتين إلى الآن».

ضحك جوكسل قائلًا:

- «ليتجول! وماذا نفعل؟ فإذا كان يزعجك تجوله هازًّا ذراعيه لنقل له: «لقد أصابك التعب يا نوري بك! فهلا استرحت قليلًا!»، كما أني أظن أنه لم تعد هناك حاجة له، فنوري رجل سكران ومريض، في حين أنه يعتني بحاله دون أن يتدخل في شأننا..».

وحين أراد علي أن يجيبه بشكل مباشر بهذه الكلمات:

- «انظر لا تزال عندي بمثابة البيك الصغير، أفلا أخبرك شيئًا؟! الكره يولد الخوف».

ضحك جوكسل ثانية وقال:

- «ما هذا يا علي؟ أتبدأ بعد الآن في اختراع الأمثال! ماذا يعني الكره يولد الخوف؟».

رد علي بصوت أجش:

- «ما أردت قوله إن الإنسان ينتابه الخوف من الإنسان الذي يكرهه، ونوري يكرهك لأنه يخاف منك لكنك –أيضًا– تخاف منه لأنك تكرهه، فلا تحاول إخفاء خوفك بالتذرع بقول إنه رجل مريض وسكران!».

- «ياله من حكم مدهش؛ كما أنه..».

ظلت جملة جوكسل في منتصفها حيث طُرق باب الشارع ورن الجرس داخل البيت ست مرات؛ ثلاثًا قصيرة ثم اثنتين طويلتين ثم واحدة قصيرة، فقال علي:

- «أتى أصحابنا». ثم هبط إلى الأسفل لفتح الباب.

أشعل جوكسل سيجارة، وذهب إلى جوار النافذة ثم بدأ التأمل في البحر فخطرت على باله عائشة؛ عائشة المحبوسة في بيت روز، أكثر إنسانة أحبها وأكثر إنسانة كرهها في الوقت نفسه، أكثر إنسانة أخافها وأخافته.

دلفا إلى الحجرة فاستدار جوكسل، ووجد أمامه مع علي الرجل الذي أنقذ عائشة بينما كانت ستلقي بنفسها في البحر وحبسها في بيت مدموزيل روز، فتوجه إليهما على الفور، وقال:

- «علمت بالحكاية، أحسنت! فقد وصلت في وقتك بالضبط!».

أجاب منقذ عائشة ضاحكًا ضحكة صفراء متزلفة:

- «كنت في إثرها أساسًا؛ لكني لا أعلم إن كان علي قد أخبرك فقد مرت صباح اليوم الذي أرادت فيه إلقاء نفسها في البحر بخالد جميل؛ لكنها لم تبق كثيرًا عنده بالأعلى فخرجت سريعًا ونزلت إلا أنه كان بيدها شيء يشبه الرسالة، ولا بدَّ أنها تركته».

اشتعل وجه جوكسل غضبًا ففكرة كون خالد جميل هو آخر شخص تريد عائشة تذكره قبل ذهابها للموت؛ طعنت قلبه كسكين، وقال بصوت بارد:

- «وماذا بيدنا أن نفعل؛ أكنا سنغض الطرف عن موتها لأنها كتبت رسالة لحبيبها!".

- «لأني فكرت هكذا تدخلت أنا الآخر في الوقت اللازم».

أثار هذا الجواب الغضب في جوكسل لسبب ما فعلق:

- «قلنا إنك فعلت حسنًا!».

ثم أردف ملينًا صوته:

- «أتعلم ماذا سأفعل؟».

- «لا يا سيدي».

- «سأذهب هذه الليلة إلى بيت روز فعائشة لا تزال حتى الآن تحت تأثير شراب علي؛ أليس كذلك؟».

تدخل علي في الكلام قائلًا:

- «يستمر تأثير شرابي لأسبوع كامل»؛ ثم استدار إلى منقذ عائشة:

- «كم قطرة قطرت لها داخل الشراب؟».

- «أربعًا!».

- «جيد! أربع قطرات كافية لجعلها تفقد وعيها لأسبوع».

قال جوكسل بشرود:

- «جيد للغاية! سأذهب إلى بيت مدموزيل روز هذه الليلة؛ مفهوم؟ لتخبرهم يا علي!».

أراد علي أن يعترض بقوله:

- «لا أعلم؛ ألا يعد هذا تهورًا؟!». لكنه لم يجد في مواجهة رعب عيني جوكسل الجامدتين الباردتين غير قول:

- «حسنًا، سأبلغهم!».

خرج علي، وبقي جوكسل بمفرده مع منقذ عائشة فأخرج من جيبه رزمة مال دون أن يعدها وقال له:

- «خذ هذه!».

أخذ الرجل المال وعده ثم قال:

- «ثلاثة آلاف!».

دنا جوكسل منه وحدق في عينيه:

- «نعم؛ إنها ثلاثة آلاف؛ لكنك إن أردت أن تجعلها ستة آلاف عليك إضافة نوري إلى حساباتك».

- «أهذا الرجل السكران؟».

- «أجل!».

- «أمره سهل! أتأمر بشيء آخر؟».

- «لا!».

- «أستودعك الله!».

- «مع السلامة! قل لعلي ليساعدك».

8

الحمى الصفراء

عاد نوري إلى العمارة فانتابه القلق عندما لم يجد خالد جميل في حجرته، وفتش جيدًا كل مكان لربما يكون قد ترك له رسالة؛ لكنه لم يعثر على شيء.

وكان أول ما خطر على باله الذهاب إلى بيت جوكسل في أياس باشا؛ لكنه ما لبث أن تراجع عن هذا وحدث نفسه قائلًا:

- «خُدعت كالغر، ليس هناك رجلان باسمي جميل وجوكسل في الأصل؛ بل إن جوكسل طلب جواري باسم جميل وعاش معي كي يراقبني، فجميل وجوكسل هما نفس الشخص».

بيد أن هذا لم يبدو له صوابًا عندما أمعن أكثر في التفكير وكاد أن يصاب بالجنون فانطلق إلى الشارع.

كانت ليلة أخرى من ليالي شارع الاستقلال؛ الإعلانات الكهربائية المضيئة وأبواب السينما التي تمتلئ وتفرغ والسيارات والترامات...

توقف أمام سينما إيبك؛ كان معلق على بابها يافطة ضخمة ملونة تحمل صورة نجمة شديدة الشبه بعائشة.

خطرت عائشة بباله فاجتاحه الغضب كما اعتصره الألم؛ فمن يعلم أين هي الآن؟ فليس هناك أي خبر ممن يعرفون عائشة.

سار فاشترى جريدة «المساء» من بائع التبغ المقابل له، وشرد وهو يقرأها حتى أصابه الجمود بغتة عندما طالع خبر:

«انكشف ستار اللغز!

تم القبض على شخص يدعى خالد جميل بتهمة قتل المليونير جوكسل، وتم العثور معه على ورقة بقيمة مليون إسترليني، وقد أراد المجرم تضليل المحققين بإنكار الجريمة والرد بهراءات».

أعاد نوري قراءة هذه الحادثة مرة أخرى، ثم غمغم قائلًا:

- «يعني هذا أن خالد جميل شخص وجوكسل شخص آخر بالفعل».

دس الجريدة في جيبه واختلط بالزحام.

... ...

نكز منقذ عائشة علي الواقف بجواره هامسًا له:

- «ها هو ذا الذاهب من أمامنا!».

حث كل منهما الخطى ولحقا بنوري عندما كان ينعطف إلى اليمين من جامع آغا، وحين كان علي يمر بجواره مسرعًا اصطدم بكتفه فتوقف ودار ثم صرخ:

- «أأنت أعمى يا هذا؟!».

فرد نوري على هذا الرجل الثمل الذي لم يكتفِ بالاصطدام بكتفه بل سبه علاوة على هذا؛ ببرود أعصاب من اعتاد على مواجهة هذا دومًا:

- «هيا اذهب إلى عملك!».

غير أن علي صرخ مستمرًّا في تمثيل ثمالته الشديدة:

- «بل اذهب أنت إلى عملك! أيمكن هذا؛ كأن الشارع الكبير ملك لأبيه... لم يبق إلا أن يطرد الناس منه..».

لم يرد نوري عليه وسار في طريقه لكن علي لم يتخلَّ عن ملاحقته، وفي النهاية لم يستطع نوري تحمل المزيد فاستدار وكال اللكمات لوجه علي.

وحينئذ تدخل منقذ عائشة ووبخ علي:

- «ألا تمل؟ أفلا يكفي أنك سكران طينة لكنك تزعج الناس علاوة على هذا».

استدار منقذ عائشة إلى نوري بلطف كبير بينما كان علي يترنح في الجانبين جراء الصفعات التي أكلها وقال له:

- «أستميحك عذرًا يا سيدي! لا تؤاخذنا! فقد صوابه قليلًا وإلا فإنه صبي طيب! فهو صديقي!».

عنف علي ثانية:

- «هلم فلتسر إلى بيتك هيا! اغرب من هنا! لم يعد هناك من يأتي إليّ بسببك».

وبينما كان علي يلج متململًا أحد العمارات المظلمة التي بقي بابها مفتوحًا؛ كان نوري يتحدث مع منقذ عائشة قائلًا:

- «ليس هناك إزعاج يا عزيزي، فهذه ضريبة السكر».

فتأبط الآخر ذراع نوري:

- «أيصح هذا يا عزيزي؟! لا أبدًا، لم يترك ما لم يفعله منذ قليل، كيفما كان فهذا كما ذكرتم ضريبة السكر؛ لكن هناك فائدة من كل مصيبة، فقد تشرفنا بمعرفتك جراء هذا، اسمي أحمد؛ أحمد آقتوغ..».

قدم نوري هو الآخر نفسه:

- «وأنا أيضًا نوري جوموش أوغلو!».

- «تشرفت بمعرفتك! والآن لنتجرع قدحين على نخب قوة صداقتنا إن سمحت!».

كان هذا هو العرض الوحيد الذي لا يستطيع أن يرفضه نوري فقال:

- «على الرحب والسعة!». ثم استدرك ضاحكًا:

- «والخزي على من لا يفي بعهده!».

خرج علي بينما كان نوري وأحمد ينعطفان إلى أحد الشوارع المظلمة متأبطين

ذراعي بعضهما، وتبعهما ضاحكًا.

سار الصديقان الجديدان من شوارع كثيرة متشابكة، فقال نوري خالطًا مزاحه ببعض الجدية:

- «أف! لم أسر بهذا القدر من قبل لأجل قدح عرق».

فرد عليه أحمد محولًا الأمر إلى مزاح بالكامل:

- «اصبر قليلًا! اصبر قليلًا! فكما هو معلوم: «ينال الدرويش الصابر مراده!»».

تقدما للأمام قليلًا ثم توقفا أمام بيت في شارع أشد ظلامًا وضيقًا من كل الشوارع التي مرَّا بها، كان بيتًا شبيهًا ببيوت أثرياء الروم القدامى اللاتي تصادفها فجأة في الشوارع الخلفية من بي أوغلو.

قال أحمد:

- «وصلنا! هو هنا إن لم أكُ مخطئًا».
- «أهي المرة الأولى التي تأتي فيها إلى هنا؟».
- «أجل؛ وصفه لي صديق مولع بمزاجه».
- «حسنًا؛ لكن ما هو هذا المكان؟».
- «ستعرف الآن!».
- «ألا يوجد اسم يشتهر به هذا المكان يا عزيزي؟».
- «يوجد؛ وكيف لا يوجد! يطلقون على هنا اسم «الحمى الصفراء»».

فتح أحمد باب البيت الخشبي السميك، ودلفا إلى الردهة، كانت مضاءة بضوء أصفر خافت، تفحص نوري الأرجاء من حوله؛ غير أنه لم يستطع معرفة من أين ينبع هذا الضوء الأصفر العجيب، وبعد أن تقدما قليلًا في الردهة صادفهما فتحة سلم هابط لأسفل إلى البدروم، وقد كان هو الآخر مضاء بالضوء الأصفر ذاته.

هبط نوري الدرج في المقدمة ومن خلفه أحمد، قابلهما باب ففتحاه ووجدا البدروم.

كان جو البدروم رطبًا، وكان مضاءً كذلك بنفس الضوء الأصفر، وعلى الجدران كانت توجد نقوش تكعيبية غريبة الشكل، وبينما كان نوري يتمعن في هذه النقوش بدقة؛ لاحظ أنها رسومات لحيوانات بحر ملونة؛ إستاكوزا وأخطبوطات وثعابين بحر وسط أعشاب بحر عجيبة تم رسمها بأسلوب تعبيري...

وعلى أطراف الجدار وُضع صف من الطاولات الخشبية بشكل مبعثر.

أجلس أحمد نوري على إحدى هذه الطاولات، ثم جلس أمامه.

سأله نوري:

- «ياله من مكان عجيب!».

رد عليه أحمد مقهقهًا:

- «هو هكذا بالفعل! ألم أقل لك إنها المرة الأولى التي آتي فيها أنا الآخر إلى هنا؛ لكن وفقًا لصديقي المولع بمزاجه: فهنا يوجد أفضل العرق في تركيا؛ يعني أفضل العرق المهرب، ثم إن المشهيات –أيضًا- لا مثيل لها، تأمل أنت الرسومات التي على تلك الجدران، فهي تخبرنا أن الرسامين والفنانين يأتون إلى هنا، وغدًا تصير هذه الرسومات التي على الجدران آثارًا للعباقرة. لتجلب لنا العرق؛ أيها النادل!».

أخذ النادل الطلب وابتعد.

تأمل نوري الرسومات التي على الجدران لمدة ثم أخذ الفتور يصيبه فقال:

- «جيد لكني لست بفنان ولا مشعوذ، والمكان هنا كئيب للغاية ويجعل الإنسان يشعر بالملل».

كانت هناك جماعة على إحدى الطاولات المقابلة؛ ومع أنهم كانوا يتحدثون بهمس إلا أن أصواتهم كانت تتعالى بين الفينة والأخرى، كما أنه لم يكن هناك غيرهم في البدروم.

أرهف نوري أذنه للمتحدثين أمامه؛ كان هناك واحد منهم يدعونه حسن كان يضرب الطاولة بقبضته ويصرخ قائلًا:

- «عظيم! هذا وعد مني! إن أعطيتني خمسمئة ورقة سأقتل لك الرجل!».

- «ليكن! لكني سأعطيك مئتين وخمسين فقط نقدًا والمئتين والخمسين المتبقين بعدما نرى عملك، أتوافق؟».

- «أوافق! هات النقود!».

هب نوري على قدميه فجأة، فقال له أحمد وهو يحاول إجلاسه ثانية:

- «اجلس يا عزيزي! لا تقحم رأسك في مصيبة! دعك منهم!».

بيد أن نوري كان قد فقد السيطرة على نفسه إثر جنون مفاجئ يصاب به مدمنو الكحوليات فصرخ قائلًا:

- «اتركني! يدخلون في مساومة أمام أعين الناس كي يقتلوا رجلًا، هؤلاء ليسوا فنانين ولا يمكن أن يصبحوا عباقرة في الغد!».

تخلص من يد أحمد الذي كان يمثل أنه يمسك بذراعه ثم سار إلى الطاولة المقابلة.

وفي هذه اللحظة تمامًا ظهر ظل فوق الدرج هابط إلى البدروم ثم اختفى سريعًا؛ كان هذا علي، ورآه صديق نوري الجديد الذي عرف له نفسه باسم أحمد فرمشت عيناه.

اقترب نوري من الطاولة وسألهم والدم يشتعل في وجنتيه:

- «من الذي تجهزون لقتله هكذا؟».

قام كل من على الطاولة على الفور ورد رجل منهم ضخم مثل الجمل فقال:

- «أنت! أنت من سنسحقه مثل البعوضة يا شقي!».

كان قائل هذه الكلمات هو من يدعونه حسن.

صاح الآخرون:

- «أعط هذا الأنيق حسابه بين عينيه يا حسن! وضف عليه حسابنا!». شعر نوري بغتة بألم مدهش في وجهه، وتدفقت الدماء من أنفه وترنح؛ كان قد نال لكمة

من حسن بين حاجبيه بالضبط، فدار رأسه، واسودت عيناه ثم تماسك بصعوبة كي لا يسقط أرضًا.

ظل من حوله يصرخون:

- «ضف عليها واحدة أخرى يا حسن! ضف عليها واحدة أخرى!».

تراجع نوري لئلا ينال لكمة ثانية وقال لهم:

- «انتبهوا لي! لو أن بينكم رجلًا لتصارعنا فردًا لفرد».

ضحك حسن مقهقهًا:

- «عظيم! يريد السيد أن نتعارك رجلًا لرجل، استعد إذًا..».

نزع معطفه، وتراجع الباقون إلى الطرف، فأخذوا يفركون أيديهم ويطلقون السباب ضاحكين وهم يحسبون أنهم سيقضون على نوري في دقائق معدودة.

ثم بدأ العراك.

اقترب نوري ببطء وبهدوء مخيف من حسن، وكانت عيناه تلمعان ببريق بهجة، كان يعلم أن حسن أقوى منه بكثير؛ لكنه كان واثقًا في الملاكمة التي تعلمها عندما كان في المدرسة الأمريكية وكان بطل المدرسة فيها.

هجم حسن على خصمه المتقدم تجاهه ببطء، وهز قبضتيه الطائشتين المخيفتين أمام رأس نوري عاويًا مثل حيوان وحشي؛ لكنه تابع بدهشة عجيبة ذهاب لكمتيه في الهواء على الفور، وكأن رأس نوري الواقف أمامه مباشرة قد محتهما، فثار غضبه وجن جنونه وهجم مجددًا على نوري، لكن نوري صار كالزئبق وأخذ ينزلق في الجهتين دون توقف، وظلت قبضتا حسن المشعرتان تطيشان في الفراغ وتضربان الهواء.

بات حسن كالمجنون وأخذ يطلق السباب.

ثم هجم عليه مرة أخرى؛ لكنّ قبضتيه في هذه المرة لم تستطع حتى ضرب الهواء؛ بل إن ذراعيه الاثنتين تراختا كأنما كُسرتا من وسطهما، وخارت قواه جراء ألم اللكمتين اللتين نالهما متتالين في بطنه ومعدته.

صرخ من حولهما:

- «هيا يا حسن!».

- «أطلت الأمر كثيرًا!».

بيد أن حسن بات وجهه شاحبًا للغاية ولم يكن يمكنه التنفس إلا بصعوبة.

كانت حاله الآن أشبه ببناء ضخم خرب أوشك على الانهيار، وكي لا ينهار فوق نورى ويبقى تحت جسده الضخم؛ أنزل نوري قبضته على عينه اليسرى ووثب خطوتين متراجعًا للوراء.

وعلى الرغم من أن اللكمة لم تكن قوية إلا أن عين حسن اليسرى لم تلبث أن تورمت.

ثار جنون حسن بعدئذٍ ووجه ركلة إلى بطن نوري؛ لكن نوري قبض بيديه على هذه القدم التي كانت ستنزل على بطنة بقوة المطرقة في منتصف الطريق وشدها فتدحرج حسن على الأرض، واصطدم رأسه بالأحجار كبطيخة جوفاء، ثم نهض مرة أخرى من المكان الذي سقط فيه وهاجمه من جديد.

تشاجر المتعاركون أربع أو خمس مرات أخرى وفي نهاية كل هذه الشجارات جُرحت شفة حسن السفلى وسحقت أنفه وسالت الدماء من صدره.

إلا أنه لم يستسلم، فقد كان واثقًا من أنه سيقدر على هذا الأنيق الذي ينسل من بين يديه كالمياه مهما يكن ومن أنه سيقبض عليه، وها قد واتته الفرصة وقبض على يدي نوري.

كان حسن مخطئًا، فلم يلبث نوري أن أنقذ يديه اللتين سقطتا بين مخالب خصمه وبدأ ينزل بقبضتيه على حلقه الأجوف حتى كاد يزهق روح الثور.

لم يكن هناك إلا عمل وحيد يستطيع حسن القيام به، وهو الهرب والإمساك بسكين، وهذا ما فعله.

هرب ثم سحب سكينًا من حزامه وقذفها تجاه صدر نوري بسرعة السهم.

لم تجد السكين هدفها.

وصرخ نوري:

- «ها! أي تقول ضع هذه أيضًا في حسبانك؟! إن كان هذا فانتظر!».

ثم ألقى بنفسه فوق حسن الذي لم يعرف ماذا يفعل بعد ذهاب السكين التي قذفها في الهواء، وقال:

- «خذ هذه اللكمة! مع أنها لا تتناسب كثيرًا مع الوضع لكنك أنت من أردت!».

تدحرج حسن على الأرض باللكمات التي نالها في منتصف وجهه، فأخذ نوري يركل بطرف حذائه رأسه بينما هو راقد ممدد على الأرض.

- «يسجلون الضربات الحرة في كرة القدم هكذا!».

ألقى نظرة على من حوله ثم قال:

- «أهناك المزيد؟ ألا يوجد بينكم من يلبي الدعوة؟».

لم يجبه أحد، وعم الأجواء صمت غريب حتى إنه لو طارت بعوضة لسمع صوتها.

لمحت عينا نوري إذ فجأة الدرج الذي يهبط إلى البدروم، كان هناك ظل يرغب في الصعود إلى أعلى دون إثارة جلبة.

فاندفع على الفور نحو السلم وأمسك بياقة علي –الظل– وساقه مجرورًا إلى الأسفل:

- «واهٍ أهذا أنت؟! أنا أعرفك من مكان ما، ها ألست أنت السكران الذي اصطدم بي في الطريق؟! لكن ياه كم استفقت بسرعة! انتظر لأعلم ماذا صار بصديقك الذي دعاني إلى هنا؟».

تراجع بسرعة للخلف دون أن يترك ياقة علي، قام بهذه الحركة في وقتها بالضبط؛ لأن أحمد الذي رأى تفاقم الأوضاع كان قد أمسك بزجاجة بيرة وهم بإنزالها على رأسه.

فدفع نوري بعلي إلى الطرف وأفرغ مسدسه الذي ظهر فجأة بيده في زجاجة البيرة التي يمسك بها أحمد، فتهشمت الزجاجة.

- «إن كنتم لا تريدون أن تتحطم رؤوسكم لفتات مثل هذه الزجاجة فاصطفوا

واحدًا تلو الآخر وراء بعضكم».

لم يكن أي من هؤلاء الرجال يهاب المسدس أو يتراجع أمام الموت لكن الدهشة أصابتهم، فلجؤوا إلى زاوية البدروم جارّين حسن الذي ما زال مسجى على الأرض، وتراجع نوري إلى السلم وراءه دون أن يزيح المسدس من على رؤوسهم، ثم صعد درجات السلم بسرعة كأن الموت يطارده وعبر الردهة ثم ألقى بنفسه في الشارع.

وعندما وجد نفسه تحت أضواء شارع الاستقلال الملونة لم يعد لديه الطاقة ليخطو خطوة أخرى، فولج مطعم حلواني وقال:

- «شاي ساخن!».

كان رأسه مشوشًا، وكان منفعلًا لدرجة أنه لم يلاحظ أن رأسه مجروح من الأعلى وأن من حوله ينظرون إليه.

غمغم فقط:

- «هذا عمل جوكسل، أبي وأختي وخالد جميل... والآن جاء دوري، يعني هذا أن خالد جميل لم يقتله، جوكسل حي..».

9

عالم قسطموني

انتشر خبر زيارة جوكسل لمدموزيل روز بين فتيات البيت على هيئة «سيجيئنا هذه الليلة تاجر أناضولي بالغ الثراء».

أما بيت مدموزيل روز فكانت مؤسسة نصفها من الهاربين ونصفها الآخر يعمل في العلن.

تم تنظيف الصالون من أوله لآخره... وتغيير ملاءات السرائر في كل الغرف ونفض الأتربة من على الأباجورات الوردية وغسل الحمامات؛ لأنه لم يكن يمكن القطع بالطبع مع من وفي أي حجرة سينزل الضيف الثري.

هاتف علي مدموزيل روز مرة أخرى قبيل المساء وقال:

- «يرغب خاصتنا في إقامة عالم قسطموني، فأعدي ذلك له!».

لم يكن لدى مدموزيل روز أي فكرة تتعلق بعالم قسطموني، فكل ما تعرفه عنها أنها مدينة تقع في الأناضول، وعلي كذلك ذكرها بطريقة توحي بأنها أمنية عجيبة لئلا يوضح أكثر أو بالأحرى لئلا يجعلها تطلب المزيد من التوضيح.

تم جلب سراويل فضفاضة من محلات تأجير الملابس التنكرية في بي أوغلو، وارتدت كل فتيات مدموزيل روز هذه السراويل الإفرنجية.

وارتدت عائشة هي الأخرى غصبًا سروالًا أزرق وعليه صديرية ضيقة حمراء بشرائط كاشفة لصدرها.

كانت تبدو في ملابسها التنكرية شبه القروية هذه غاية في الجمال؛ لدرجة أنها جذبت انتباه مدموزيل روز إليها بين الفتيات حتى إن سهيلة إحدى فتياتها التي لا

تدعوها إلا للحفلات الكبيرة كما في هذه الليلة قالت عندما لمحتها:

- «سأقيم القيامة إن أعجب الضيف بهذه الغراء الأعجمية وطلب البقاء معها، سأنزع رأس وأنتف شعر هذه الفتاة المتشردة»، ثم اجتاحتها بعنف الرغبة في نتف شعر عائشة فوثبت فوقها على الفور.

استطاعت عائشة التخلص من يدي سهيلة بصعوبة.

طاولة الشراب الرائعة في الصالون، الإستاكوزا الأكبر والممتلئة باللحم والأشد حمارًا، كل شريحة كافيار صغيرة سوداء رقيقة السمك موضوعة في الكؤوس المكعبة البلورية، وأنواع المشهيات من بيض السمك حتى بياض بيض السمك... والعرق والبيرة والشراب...

تطلعت عائشة إلى كل هذه التحضيرات بعينين خاويتين لا تدركان شيئًا مما يدور حولها حاملة رأسها الجميل الدائخ الممزق بالكامل بين يدي سهيلة؛ كأنها تحمل رأس تمثال رخامي جامد فوق الصديرية الحمراء ذات الشرائط.

لم يعد بها رغبة في الموت، فهي إنما تريد أولًا وقبل كل شيء الهرب من هنا -مهما يكن- وبأقصى سرعة؛ لكن إرادتها هذه لا تزال في حيز المفقود كما أنها لا تستطيع التحكم بما يمكن أن يكون.

أضيئت كل الأضواء في البيت ولا سيما الصالون الذي صار براقًا، وبات صبر الفتيات بوجوههن المبهرجة وسراويلهن الكرنفالية الملونة التي يرتدينها؛ على وشك النفاذ.

كانت عينا سهيلة على عائشة، وكانت تتحين الفرصة كي تحطم مكانتها، وتسيء لهذه الفتاة المجهولة التي نافستها في التاج الذي قلدته لها مدموزيل روز بيديها قبل ثلاثة أعوام.

رن جرس الباب بالأسفل فجأة فارتبكت الفتيات الموجودات في الصالون، وألقت سهيلة نظرة أخيرة على نفسها في المرآة الضخمة، هبطت مدموزيل روز السلالم بقلق فقد كانت تريد أن تفتح بنفسها الباب للضيف العظيم الآتي.

أما عائشة فوقفت مكانها شديدة الشحوب، لم تكن تعلم من الآتي فهي تعلم عدة أشياء لكنها لا تفهم كل شيء.

فُتح باب الصالون بصخبٍ كبير، ودلف جوكسل سكرانَ مترنحًا إلى الداخل، وكان معه ثلاثة رجال.

دخلت مدموزيل روز هي الأخرى، ألقى جوكسل بنفسه فوق أحد المقاعد، وتنفس نفسًا عميقًا ثم استند إلى مرفق المقعد فقام واقفًا وصرخ:

- «كم أن الجو هنا حار!.. أنا أختنق ولا بدّ أن السيدات الصغيرات والفتيات يختنقن أيضًا؛ ألا تختنقن؟».

أجابت مدموزيل روز عوضًا عن الفتيات كلها:

- «يختنقن يا باشا!».

- «لم لا يخلعن لباسهن إذًا؟ أتريدين أن تختنقي هؤلاء السيدات في سراويلهن وصدرياتهن تلك يا مدموزيل روز؟ قولي لهن ليخلعنها، ليخلعن من عليهن كومة القماش هذه، فأنسب رداء للنساء الجميلات هو جلودهن».

انتفض فجأة ليلملم اتزانه وشجاعته.

وشرعت الفتيات في تنفيذ أمر جوكسل وبينما كن يتجهزن للبقاء بجلودهن أنسب رداء لهن؛ كانت سهيلة ترنو بطرف عينها لعائشة.

لم تحرك عائشة ساكنًا وامتقع وجهها تمامًا في رأسها المنتصبة أعلى صديريتها الحمراء ذات الشرائط المغزولة، وغامت عيناها، وارتجف جسدها واصطكت أسنانها بعضها ببعض.

كانت قد تعرفت على هذا الرجل فور ولوجه الغرفة، كان هذا جوكسل، لكنه من الممكن أيضًا أن يكون خالد جميل؟! فأيهما يكون؟

اقترب جوكسل من عائشة متمايلًا ونصب عينيه الزرقاوين الجامدتين الباردتين عليها وظل يتأملها؛ ظل يتأملها بدقة مع حقد وكره ورغبة.

ولم يعد لدى عائشة أدنى شك، فالرجل الذي كان ينظر لها هكذا هو جوكسل.

تراجعت عائشة فورًا بينما كان جوكسل يقترب منها وألقت بنفسها على المقعد التي جلست عليه في أول مرة دخلت الصالون، فأشار جوكسل بيده على عائشة وسأل

روز:

- «ما اسم هذه السيدة؟».

- «عائشة!».

- «عائشة! اسم جميل، أنا مغرم بهذا الاسم، عائشة! انظري إلى نغمة هذا الاسم، عا... ئشة... يحسب الإنسان نفسه عند نطقه هذا الاسم جالسًا عند بحيرة عميقة مضاءة بضي القمر، عا... ئشة... كيف هي؟ ألا تشعرين ببريق القمر وانسياب المياه؟».

كانت عائشة تحدق في جوكسل بعينين اتسعتا من الخوف، لمح جوكسل نظرتها تلك وظن أنها واقعة في حيرة، وأنها لم تتأكد بعد من يكون، وما زالت تخلط بينه وبين خالد جميل.

بعث هذا الاحتمال بهجة عجيبة ومؤلمة في نفس جوكسل جعلته ينهض على قدميه مرة أخرى ويود القفز مرات متتالية حتى سقط نهاية في حضن إحدى الصديقات الواقفات بجواره وأخذ يقبلها بشراهة وهو يحدث نفسه راغبًا في إسماع عائشة:

- «كنت عاشقًا لامرأة في السابق، وجعلتها لي ذات ليلة، كان اسمها هي الأخرى عائشة، كما أنها كانت تشبه هذه الهانم الصغيرة تمامًا، وياله من شبه! ياله من شبه!».

ربما سمعت عائشة هذه الكلمات التي أراد بها تشكيكها في نفسها أو لم تسمعها، فقد كانت هناك رغبة وحيدة تسيطر على ذهنها الذي بدأ يستفيق تدريجيًّا؛ وهي الانطلاق والهروب من هذا الصالون.

خمنت المسافة التي تفصل بين المكان الذي توجد فيه والباب فتراجعت ثم اندفعت راكضة نحو الباب؛ لكنها لم تكد تصل إلى العتبة حتى أنشب جوكسل مخالبه السميكة الغليظة في كتفيها كأنها قطع حديدية مستعرة.

وتلاقت مع جوكسل وجهًا لوجه فقال لها جوكسل ضاحكًا:

- «إلى أين؟ إلى أين أيتها الهانم الصغيرة؟ من الواضح أنك تريدين الصعود إلى

الأعلى! فانتظري لأساعدك!».

ومن ثم رفعها وأخذها بين ذراعيه مثل طفل صغير، وقال بينما كان يعبر عتبة الحجرة وعائشة بين ذراعيه متوجهًا إلى السلالم الصاعدة إلى الطابق الثالث:

- «نحن ذاهبان إلى عالم الأحلام! فلا تنتظرنني واستمتعن بوقتكن!».

ألقى جوكسل بعائشة على الفراش ما إن دخل الحجرة كأن البهجة الأليمة التي يشعر بها انتابته بالجنون، فجلس على كرسي وبدأ يضحك مطلقًا القهقهات المجلجلة كأنه مجنون أطلق من سلسلته.

أصبح ذهن عائشة يعمل جيدًا الآن واستفاق من غفلته الشبيهة بالموت، فاستغلت فرصة إطلاقه القهقهات وقفزت من الفراش مستعيدة سيطرتها على نفسها ثم اندفعت نحو باب الغرفة.

بيد أنه قبض عليها عند عتبة باب الحجرة بالضبط كما جرى بالأسفل، كما أثارت محاولة فرارها الثانية هذه حنق جوكسل، فأمسك بها من مؤخرة عنقها بغبطة صقر أخذ بثأره وقبض على دجاجة ذات عرف، فأخذت تنتفض بقوة وقفزت إلى زاوية الحجرة ساقطة على ركبتيها.

وقف جوكسل منتصبًا في مواجهتها بعد أن أوصد الباب ثم زمجر قائلًا:

- «ما هذا؟ لم تعجبي بي على الأغلب!».

وَهَنت إرادة عائشة التي بدأت تستعيدها منذ هنيهة وبدأ يجتاحها شعور بالوحدة والرعب وبأنها ملتصقة بالظلام، كانت خائفة؛ خائفة كما لو أنها سقطت بين مخالب حيوان بري، وبدأ خوفها هذا يتجسد شيئًا فشيئًا حتى بدا شيئًا يمكن رؤيته بالعين يمسك بيديها ويؤلم روحها، أرادت الصراخ والصياح بصوت عالٍ منادية «النجدة! ساعدوني!» لكن صوتها لم يخرج.

أمسكها جوكسل من مؤخرة عنقها ثانية مثل هرة مسكينة وأوقفها على قدميها.

لم يعد جوكسل سكرانَ الآن بل أصبح الانتقام المخيف وحده مع تلك الغبطة الغريبة المؤلمة هو ما يسيطر عليه، واشتعلت عيناه الزرقاوان بنيران الحقد فأمر عائشة

بصوت مختنق:

- «اخلعي ملابسك!».

وقفت عائشة متجمدة كأنها لم تسمع أمره هذا.

فأعاد جوكسل عليها:

- «قلت لكِ اخلعي ملابسك!».

غير أن عائشة وقفت منتصبة في سروالها وصديريتها الضيقة الصغيرة المشغولة ذات الشرائط.

أمسك جوكسل بغتة بشعرها وبدأ يشده بكامل قوته فاحمر وجهها وارتفع حاجباها الرقيقان لأعلى.

ودون أن تدع يده اليسرى شعرها نزعت يده اليمنى صديريتها الحمراء المشغولة ذات الشرائط موجعة ذراعيها وساحجة كتفيها.

كان شعرها لا يزال في يده واستأنف الضحك مطلقًا القهقهات من جديد كالمجنون، فكان يضحك ويتحدث ببطء وبكلمات متقطعة، فاحتياجه للحديث الآن كان مثله مثل الرغبة عند قاتل مجنون في القتل، فتحدث:

- «أنت! أنتِ تعجبينني كثيرًا! لكن كثيرًا... كثيرًا... كثيرًا... لِم تفرين مني؟ أنا... هل تعرفين من أنا؟ أأنا جوكسل؟ هل أنت متأكدة؟ ماذا لو كنت خالد جميل؟!.. أتظنين أنه لست أنا؟ أجيبيني هيا! كما أنه بم سيفيدك هذا؟ سواءً أكنت جوكسل... أو كنت خالد جميل... سأدفع لكِ النقود التي تطلبينها».

كان جوكسل يتكلم بشكل متقطع هكذا من جهة ومن جهة أخرى كان يداعب كتفيها العاريتين وكانت يده اليمنى تترك مع كل حركة لها على جلدها العاري هذا آثارًا حمراء.

- «ماذا كان اسمك؟ عائشة! أليس كذلك؟ أنت تكذبين فعائشة هو اسم زوجة المليونير جوكسل، وإلا فأنت هي؟! هيا قولي! أأنت هي؟».

لم تعد عائشة تستطيع سماع المزيد من الكلام الذي يهذي به فأصبحت لا تصغي

له وأخذت كي تخلص رأسها من يده تنتفض بشكل مفاجئ كأنما خنقتها كراهيته.

لكن جوكسل سارع فجذب شعرها ناحيته وحوله كله خلف ظهرها ونزل بقبضته اليمنى التي ضمها كقطعة حجر على صدرها.

تحطمت مقاومة عائشة الأخيرة إثر هذا، فقد كانت قد فطنت ما إن رأت هذا الرجل إلى أنه جوكسل؛ لكنه حتى لو ما زال بداخلها أدنى شك في هذا فقد محته هذه اللكمة التي نالتها في صدرها، غمغمت قائلة:

- «جوكسل! جوكسل! إنك جوكسل! أعدى خصومي على وجه الأرض وأكثر رجل كرهته في حياتي».

لكنه استمر في التضييق على عائشة مطلقًا الصرخات والسباب دون أن يلتفت حتى لغمغمتها هذه، ومن ثم استسلمت عائشة مرة أخرى لهذا الاضطهاد الذي خضعت له مرات عديدة في السنوات الأخيرة.

أدار جوكسل بعد ذلك ظهره لها ونام بغطيط فاتحًا نصف فمه، أو أنه بدا نائمًا...

ابتعدت عائشة عنه بهدوء كي لا تشعر بمس جسده أكثر ولاذت بالجدار المستند إليه الفراش.

كانت مفاصلها تئنّ ورأسها يؤلمها كما لو أنها سقطت من فوق شجرة عالية.

نزلت من على الفراش دون أن توقظ الحيوان الراقد بجوارها، لم يكن الفرار يخطر ببالها فهي لا تستطيع التفكير بهذا في الوقت الحالي.

أغمضت عينيها رويدًا رويدًا.

وانطلقت الفيلة الصغيرة الضئيلة التي تعلقها في رقبتها على طرف سلسلة ذهبية رفيعة؛ في رحلة مجهولة من جديد.

الفيلة الحمراء.

الفيلة التي حملت خالد جميل ذات ليلة إلى بلاد الأحلام التي لا يبلغها أحد...

تقدمت الفيلة الحمراء وحملت عائشة إلى خالد جميل تحت الأمطار الذهبية...

... ...

ما إن أفاقت عائشة من منامها حتى تفحصت الأطراف حولها، وخُيّل إليها أن الحجرة التي تضيء بالأباجورات الوردية مصطبغة باللون الأحمر القاني.

وعندما تذكرت داخل هذه الإضاءة الحمراء كل التفاصيل التي نسيتها؛ بدأت أحداث حياتها تتدفق وتتالى بعضها إثر بعض، كانت الحوادث والوجوه والمحادثات التي تراها وتسمعها وهي تظهر وتختفي أسفل مياه بحيرة دامية؛ واضحة للغاية لدرجة أن الرعب اجتاحها فأطبقت عينيها.

وعندما فتحتها بعد ذلك بدقيقة كانت الأشباح قد اختفت والأصوات قد عادت إلى المكان الذي أتت منه.

أرادت أن تستند إلى مرفقها وتعتدل ثم تراجعت عن هذا؛ لا؛ يجب ألا أتعجل، فمع أقل حركة متهورة ستنقلب كل الأمور رأسًا على عقب، لا يزال هناك وقت، كانت تعلم من تجربتها الطويلة أنام جوكسل بالفعل أم لا، فنومه ثقيل ويستمر طويلًا.

يجب التفكير، عليّ التفكير أكثر في الأمر.

تشعر الآن بنفسها أكثر قوة وقدرة على التفكير، فهي لا ترغب في أي خطأ آخر بعد الآن، فلن تجد فرصة مثالية كهذه بعد ذلك، فإن لم تستطع انتهازها...

أدخلت يدها تحت الفراش ببطء فسحبت السكين التي خبأتها هناك وأخرجتها، كانت صغيرة؛ لكن نصلها كان حادًّا للغاية...

كانت هذه هي السكين التي تحملها معها طوال الوقت، وقد خبأتها في تلك الليلة تحت السرير عندما أحضروها مغشيًّا عليها إلى هذه الغرفة؛ بمحض فطرة وعادة لا إرادية منحتها لها السنوات الطويلة.

كانت تفكر وهي تقلبها بيدها كيف تجعل جوكسل يقاسي الألم فقد كانت تود بشدة رؤيته يتلوى من ألم لا يطاق...

حبذا لو قامت بفقء عينيه ونخرها بنصل السكين الحاد مثلما يُزال العفن من التفاحة!

لا! فسيصرخ، ويركض ممن في الأسفل على جلبته ثم يخلصونه من يديها ويقبضون عليها فلا تستطيع الفرار؛ بالإضافة إلى أنها الآن باتت ترغب في الحياة، الحياة والعيش بحرية كما رأت في حلمها.

قال لها خالد ذات ليلة:

- «كوني زوجتي يا عائشة!».

وستعيش لأجل أن يمكنها سماع هذه الكلمة مرة أخرى.

اعتدلت واقفة ببطء وكان يلمع بعينيها الزرقاء كالبحر بريق دموي مظلم.

لم تكن يداها ترتجفان وتدلى نصل السكين من يدها ذات الأصابع الطويلة الرفيعة ناصعة البياض إلى أسفل.

ثم ألقت آخر نظرة على جوكسل.

كان نائمًا.

صوبت السكين إلى قلبه وبينما همت أن تنزل ذراعها بكل قوتها على صدره الذي يحمل أسوأ قلب في الدنيا؛ توقفت.

لا؛ فالسكين يمكنها أن تخطئ قلبه.

لا بدَّ أن قطعة الحديد هذه التي حملت على نصلها الحاد كل حقدها وكرهها وربما –أيضًا– نجاتها ستضل قلبه فلا أمان له.

ماذا عن عنقه! لتقطع الشريان الغليظ قي رقبته العارية تلك!

أنزلت السكين بكل قوتها على هذا الشريان الغليظ المنتفخ في رقبته.

لكن...

لكن السكين لم تمس جوكسل الذي كان يلف حينئذٍ من جهة اليسار إلى اليمين، واخترقت الفراش في موضع ما كانت رقبته.

فتح جوكسل عينيه الزرقاوين الجامدتين حادقًا بمكر وهم بالقفز من فراشه وهو

يقول ضاحكًا ملء شدقيه:

- «ما شاء الله؛ لقد أحرزت تقدمًا كبيرًا في هذا العمل يا عائشة!».

ألقت عائشة بكل ثقلها فوقه ففقد توازنه وبينما هو يقع ثانية على ظهره على الفراش اصطدمت رأسه بمعدنه البرونزي الثقيل ففقد وعيه.

انطفأت رغبة عائشة في قتله حينئذ وأدركت أنها لن تستطيع قتله فاقدًا للوعي راقدًا على الفراش، تعجبت من ردة فعلها المفاجئة هذه؛ لكنها فكرت في أن عليها أن تنجو بنفسها وتعود للحياة مهما حصل.

أخذت المنشفة المعلقة على طرف مسند الفراش ففتحت فمه وحشرت طرفها فيه ثم سارت وقطعت شرائط الستائر وربطت يديه ورجليه جيدًا.

ثم ارتدت ملابسها التي أعادتها لها روز هذا المساء.

ولم يلاحظ أي أحد كيف هبطت السلالم وفتحت باب الشارع وخرجت للخارج كأنها شبح.

وجدت نفسها في شارع الاستقلال عندما كان الصباح على وشك الطلوع، ولم يكن ثمة ضوء سوى خلف نافذتي عرض لحلوانيين بقيا فاتحين حتى الصباح؛ أما أغلب المحال الأخرى فكانت نوافذها مغلقة وواجهاتها المظلمة تقف ساكنة على طوال الطريق كأنها غيلان عابسة.

هبطت عربة الترام من المستودع في شيشلي إلى تونِل بين الشوارع خاوية، كانت هذه أول عربة ترام تراها تمر دون إطلاق ناقوسها.

سارت مباشرة تجاه تقسيم، فعبر حربية، ثم توقفت قبل أن يبلغ نيشان تاشي في فضاء الأرض بين المضيق وتلال تشامليجا.

كان الجو نقيًّا ناصع البياض كاللبن والهواء ساكنًا بلا غبار ولا صوت.

جوّلت نظرها في الأنحاء.

كان البحر يبدو على الجهة اليمنى، جزء من البحر مستقيم لامع كأنه مرآة وفوقه السفن الساكنة وبرج الفتاة يقف كأنه لعبة.

بدأت الألوان الباهتة الخفيفة تغزو بخجل بياض الجو الضارب إلى السماوي الفاتح، ثم بدأ اللونان الأصفر الذهبي والأحمر يفوقان هذه الألوان وينتشران، وابتلعا في أعماقهما كل البياض المتبقي.

أشرقت الشمس، غير أن إشراقها المصطبغ بالألوان والمطرز والمرصع بالسحب هذا؛ كان يبدو أشبه بلوحة زيتية بسيطة من اللوح التي تباع على كروت البريد المصورة في زاوية الجامع الجديد.

كان شروقًا غير مألوف؛ يتسم بقوة ونعومة لم ترها عائشة من قبل، أصابتها الحيرة فقد كانت المرة الأولى التي ترى فيها شروقًا كهذا وتدركه.

كانت سعيدة بحياتها وتود أن يظل هذا الشروق لامعًا في عينيها الزرقاوين حتى الموت.

تطلعت إلى كل العمارات المحيطة بها، فبدت لها أكوام الحجر هذه عنيدة للغاية رغم ضآلتها، يعيش أناس في كل طابق وداخل كل حجرة وخلف كل نافذة، أناس يحمل كل منهم آمالًا متباينة وأحقادًا وأفراحًا ومخاوف مختلفة؛ ومع هذا تتصادم كل قهقهاتهم ومطامعهم ودموعهم المتفرقة هذه بعضها ببعض، ثم يتدفق هذا النهر الذي لا بداية له ولا نهاية سائرًا بلا توقف وبلا استراحة دون أن يعثر على هدفه مطلقًا.

بدأت أبواب هذه العمارات تُفتح واحدًا فواحدًا، وبدأ الناس يخرجون الآن؛ بعد هنيهة من أفواهها المفتوحة هذه وينتشرون في جهات المدينة الأربع، ويحيون حياتهم صارخين وصائحين وضاحكين وباكين ومتعدين بعضهم على بعض وساحقين بعضهم بعضًا.

أثارت حياة الناس غير المتناسقة هذه تحت الشمس التي تبدد الظلام بجمال لا يوصف وتشرق بتناسق خارق للعادة؛ التفكير في ذهن عائشة.

فتأملتها قائلة: «ياللعجب! تُرى كم طفلًا ولد الآن خلال هذه الدقيقة؛ وهذه الثانية، وكم إنسانًا مات في هذه المدينة الضخمة؟».

سرت رعشة في أطرافها ما إن خطر الموت ببالها؛ لم تكن تخاف الموت؛ بل لم تكن

تريده فحسب.

الحياة! خطر خالد جميل على بالها، بل إنه لم يغادره أبدًا.

كان قلبها أشبه بالميداليات القديمة، ألم تكن هناك ميداليات قديمة تصك على هيئة قلب وتوضع عليها صور الأحباب، هكذا كان قلب عائشة: ميدالية تحمل صورة خالد جميل.

ضحكت على هذا التشبيه؛ ليس من بساطته بل من كونه طفوليًّا.

بدأت الحياة تسير والترامات تعمل.

استدارت عاشة. لم تعد ترغب الآن إلا في شيئين: العثور على خالد جميل، ومحاسبة جوكسل.

توجهت إلى حربية.

تناهى إلى سمعها صوت محرك وبوق سيارة تعرفه، فتوقفت، واختبأت خلف سارية موقف الحافلات، انحرفت السيارة الخاصة أمامها إلى شيشلي بسرعة جنونية ثم اختفت.

كانت هذه سيارة جوكسل.

سارت بسرعة بعد أن اختفت سيارة جوكسل من أمام ناظريها وهبطت إلى تقسيم، كانت ذاهبة لرؤية خالد جميل.

لكن أين كان هو؟

أما زال في أياس باشا يلعب دور المليونير في حين كان جوكسل يهجم على عائشة في بيت مدموزيل روز؟

أو حصل على الرسالة التي تركتها له عائشة؟

لم تكن تعرف أي شيء، وعندما وصلت إلى تقسيم ترددت في الانعطاف إلى أياس باشا، ماذا لو لم يكن خالد جميل هناك؟ ماذا لو قابلت هناك جوكسل بالفعل؟

تراجعت عن الذهاب إلى أياس باشا، ستبحث أولًا عن خالد جميل في عمارته.

سارت، كان درج سلالم عمارة خالد جميلًا معتمًا في النهار إلى حد ما.

صعدت السلالم، وطرقت بابه ثم انتظرت، لم يرد أحد، فطرقت الباب ثانية وانتظرت من جديد، لكنها لم تحصل –أيضًا– على جواب.

ماذا عليها أن تفعل؟

لو كان خالد جميل لا يزال في أياس باشا ولم يأتِ أبدًا إلى هنا فلا بدَّ أنه لم يأخذ رسالتها التي تركتها له قبل ذهابها للموت.

ماذا عليها أن تفعل؟

كانت ترغب بشدة في رؤيته... وتدرك أنها لو لم تجده؛ لن تلبث أن تتوقف فجأة الرغبة في الحياة التي تجول في شرايينها بعطر آلاف الزهور العابرة كأنها نسائم ربيعية، فهي لا ترغب في الحياة وحدها؛ بل معه، فعندئذ فقط تكون للحياة معنى.

لكنه ليس موجودًا.

صعدت إلى طابق أخيها نوري بالأعلى، وطرقت بابه هو الآخر، ثم انتظرت؛ لكنه لم يصدر صوتًا.

لم يبقَ أمامها إلا عمل واحد تقوم به؛ وهو الذهاب إلى أياس باشا.

جال بخاطرها وهي تهبط السلالم الضيقة المعتمة: «ربما أصادف البواب في الأسفل وأعلم منه هل أتى خالد جميل أم لا».

بحثت عن البواب ونادت عليه؛ لكنها لم تجد أحدًا.

بدأت السير ناكسة رأسها كأنها لا تستطيع حمل الثقل الذي بأعماقها.

كان شارع الاستقلال مزدحمًا، والترامات تعبره مجيئًا وذهابًا كأنها سلال عنب ممتلئة إلى فوهتها.

توجهت ثانية إلى ميدان تقسيم ثم انحرفت إلى أياس باشا، طالعها بيت جوكسل، يجب أن تراقبه أولًا قبل أن تلجه، لم تكن تود أن تبدو مثل غزالة شريدة تلج عرين حيوان وحشي؛ لذا انتظرت وترقبت.

صوت سيارة، إنه نفس الصوت من جديد، صوت ضجيج محرك؛ نفس صوت المحرك، سيارة جوكسل قادمة، وقفت أمام باب السيارة فهبط جوكسل وكانت رقبته مربوطة.

نعم؛ لم يكن الهابط خالد جميل بل كان جوكسل، لقد صارت الآن تدرك الفرق بين مشية وحركة ذراعي كل من هذين الرجلين الذين يشبهان بعضًا كقطرتي المياه، فحتى لو شابه الناس بين أخوين توأمين في سكونهما؛ فسيظهر الفرق البسيط بينهما وخصائص كل منهما سريعًا عندما يكبران ويبدآن في الحركة والسير، وقد علمت عائشة هذا في باريس أثناء مشاهدتها لهياكل وعارضات وتماثيل رودين الضخمة المصنوعة من الرخام التي يجعلها تسير وتتحدث وتتحرك.

لم يكن من نزل من السيارة ودخل البيت الآن خالد جميل؛ بل كان جوكسل، كما كانت رقبته مربوطة، يبدو أنه أراد مداراة خدش سكين مساء البارحة، حسنًا! لكن لم مرت هذه السيارة من شيشلي قبل قليل.

ما عمله في هذه الأنحاء؟

لم يطرأ هذا السؤال حتى على ذهن عائشة، فما دام أنه قد عاد لبيته فخالد جميل إما أن يكون تراجع عن لعب دوره أو أن دوره انتهى، لم يعد أمامها الآن إلا سبيل واحد، انتظار حلول المساء والذهاب ثانية إلى تلك العمارة ذات السلالم المعتمة الضيقة.

... ...

المساء...

لم تكن عائشة قد ذاقت طعامًا منذ الصباح ولم يكن معها نقودًا فقد أحرقت كل السفن وراءها بينما كانت متوجهة نحو الموت.

لكن على الرغم من أنها تتجول في الشوارع منذ الصباح وعلى الرغم من أنها لم تذق طعامًا منذ الصباح إلا أنها لم تكن جائعة ولا متعبة.

الحب؛ أتعرفون ما هو يا قرائي الأعزاء؟ أأحببتم قط؟ إن كنتم تعرفون ما هو الحب وإن أحببتم من قبل ستفهمون لِم لَم تشعر عائشة بالجوع ولا بالتعب، أما إن لم تكونوا قد أحببتم من قبل فمهما حاولت غزل الكلمات والشرح هنا سيذهب جهدي

هباءً.

المساء...

انعطفت عائشة إلى شارع خالد جميل وقلبها يخفق بسرعة، كانت تسير مهرولة، وعلى رأسها القبعة الخضراء ذاتها كما أنها توقفت تحت ذات المصباح، وأخذت المرأة نفسها ذات القبعة الخضراء تتطلع إلى نوافذ العمارة.

كانت نوافذ الطوابق العليا مظلمة، غير أنه كان هناك مصباح مضيء في حجرة خالد جميل.

انتابكم قط الشعور بالفرح حد البكاء يا قرائي الأعزاء؟ إن كنتم قد احترقتم قبلًا مثل الشعلة بفرحة من هذا النوع فلا بدَّ أنكم ستفهمون عائشة.

طرقت الباب، ولم يفتح الباب؛ تمامًا كما حدث في تلك الليلة، وتمامًا كما حدث في تلك الليلة مد رجل من إحدى النوافذ التي بالطوابق الوسطى رأسه، فصرخت عائشة:

- «خالد!».

وجاءها صوت من أعلى:

- «عائشة!».

مر وقتًا لم تستطع قياسه طويلًا كان أم قصيرًا؛ ثانية كان أو دقيقة أو ساعة أو حتى سنة.

ثم فُتح باب العمارة.

وتلاقت عائشة مع خالد جميل وجهًا لوجه مرة ثانية تحت نفس المصباح.

- «لأوصلك إلى الأعلى إن شئت فالسلالم معتمة للغاية».

لكنه لم ينتظر جواب المرأة ذات القبعة الخضراء هذه المرة؛ بل احتضنها، وبدأ صعود السلالم التي كانت عتمتها تضاء بأعواد الكبريت التي تشتعل وتنطفأ، وتنتشر عليها لطخات الدماء في كل مكان؛ ضامًّا إياها.

لم تكن عائشة في وعيها أبدًا؛ حتى إنه لم يخطر على بالها أن هاتين الذراعين رغم

أنهما قويتان كذراعي البارحة؛ إلا أن ضمتهما لا تشبه أبدًا ضمة هاتين الذراعين الأخريين اللتين حملتاها على الدرج الآخر...

حكت رواية فرنسية عن شاب يصعد درجات السلم حاملًا في حضنه المرأة التي يحبها؛ لكنه كان يشعر بتثاقل حمله كلما صعد؛ حتى إنه عندما وصل إلى الأعلى تهاوى أسفل ثقل المرأة التي يحملها أمام الباب، وهذا الشاب إن لم يكن ضعيفًا للغاية أو أن المرأة التي يحملها كانت سمينة فلا بدَّ أنه لم يكن يحبها بقدر ما يحب خالد جميل عائشة.

فقد كان يشعر في نفسه بقوة جبارة؛ فحتى لو أنه سلم من الحبال معلق بخطاف على القمر لاستطاع تسلقه في الفراغ ما دامت عائشة في حضنه.

كان باب الغرفة مفتوحًا فدلفا إلى الداخل، وشعرت به عائشة يرقدها فوق الفراش بعناية كطفل مريض.

فتحت عينيها، فوجدت عينيه الواسعتين الزرقاوين تتطلعان في وجهها.

تحدث بهمس وبحب وبشفقة كما لو كان يروي حكاية لطفل مريض:

- «عائشة! عائشتي! أي أنك لم تموتي! وجئت لي ثانية أيتها المرأة ذات القبعة الخضراء! ولن تذهبي مرة ثانية!».

أجابته عائشة ناظرة في عينه كما لو كانت طفلة تهذي:

- «أريد العيش يا جميل! أرغب في الحياة رائية ضوءها بعينيك وسامعة صوتها بأذنيك، الحياة التي أرغب فيها لن تكون إلا معك، لذا لن أذهب ثانية».

داعبت شعر خالد جميل بيدين؛ ليستا بيديها، ثم مدت شفتيها الحارتين الحمراوين الملساوين كالحرير النصف مفتوحتين إلى شفتيه بالأعلى...

وبينما كانت المرأة ذات القبعة الخضراء تمد رأسها للأعلى إلى خالد جميل؛ حملتها الفيلة الحمراء الصغيرة: الفيلة التي على صدرها المكتنز الأبيض إلى رحلة حلم آخر مجهولة...

... ...

لم يتحدثا إلا حين كان ضوء الصباح يشرق على النوافذ؛ غير أنهما لم يتحدثا حول أحوال هذه الدنيا والأرض والناس.

- «أين كنتِ يا عائشة؟ ولم أردت الانتحار؟».
- «وأين كنت أنت يا جميل؟».
- «احكي أنتِ أولًا!».
- «لا بل احكِ أنت!».
- «أأول ما سنفعله الشجار؟».
- «لا، يكون هذا سريعًا للغاية، فلأحكي أنا، بعد أن كتبت لك الرسالة..».

ثم حكت له كل ما مر بها منذ أن تركت له رسالتها تحت الباب؛ لكنها لم تحكي له كيف جرها إليه جوكسل بالغصب، خجلت.

- «لأحكِ أنا الآن لك يا عائشة! اعتقلوني بتهمة قتل جوكسل بقصد سرقته؛ لكنهم تركوني اليوم قبيل الظهيرة، فقد اتصلوا من بيت جوكسل وقالوا: «رجع البيك، وأنه كان ذاهبًا في رحلة قصيرة». وبناء على هذا أطلقوا سراحي؛ لكنهم سألوني كيف حصلت على المليون إسترليني التي وجدوها معي، فذكرت لهم الحقيقة؛ ومع أنهم لم يصدقوني؛ إلا أنه حيث لم تقدم في حقي شكوى بالسرقة..».
- «حسنًا! وماذا حدث بالمليون إسترليني؟».
- «تركتها لهم ليعيدوها إلى جوكسل!».

لم تنبس عائشة ببنت شفة وصمتا متطلعين في نظري بعضهما البعض.

بزغ الصباح شيئًا فشيئًا بالخارج.

وكانت عائشة ترقد فوق الملاءة البيضاء داخل ضوء الصباح الذي أضاء حتى الأركان المعتمة في الغرفة؛ مثل عذراء المعبد اليوناني القديم التي لم تمسها يد.

والخاتم ذو الزمردة الخضراء يلمع في أصبع يديها الممتدة إلى جوارها مثل وجه نضر لفتاة شابة استيقظت لتوها من النوم.

أما الفيلة الحمراء الصغيرة فكانت لا تزال في مكانها نائمة كأنما تعبت من الترحال.

ألقت نظرة على خالد جميل الممتد إلى جوارها؛ غير أنها لم تصدق عينيها، وخافت أن تمسه الآن بيدها فتجد أصابعها محل جسده خيالًا.

سألته:

- «بم تفكر يا جميل؟».

- «أفكر بك يا عائشة، حشدت قلبي وعقلي وجسدي ودمعي في عيني لأنظر إليك..».

- «بردت يا جميل! فلتضع شيئًا فوقي!».

نهض وسحب عليها اللحاف ثم ارتدى بيجامته وسار إلى المطبخ لإعداد الشاي.

كان من جهة يشعل موقد الغاز ومن جهة أخرى يتحدث معها:

- «ثمة أمور عديدة أود أن أسألك عنها يا عائشة!».

ردت عليه من الداخل:

- «قلها لأوضحها لك..».

كان يعد الشاي فوضع فنجانين فوق الصينية وتذكر السكر فبحث عنه لكنه لم يجده.

دخل بالصينية إلى حجرة النوم.

نهضت عائشة فارتدت ملابسها ومشطت شعرها.

- «أعددت الشاي يا عائشة؛ لكن ليس هناك سكر، ولا جبن أو ما شابه... لكن كل هذا لا يعد شيئًا مقابل أنه ليس معي مال أيضًا..».

ضحكت عائشة:

- «وأنا أيضًا ليس معي مال».

قطب جبينه:

- «أسوأ ما في الأمر أني جائع..».

- «وأنا أيضًا..».

- «ما زلنا باكرًا فماذا لو أني ذهبت إلى القائم بأعماله وطلبت منه سلفة؛ لا بدَّ أن الوغد لم يذهب لمكتبه بعد».

سألته عائشة بحيرة:

- «أي قائم بالأعمال؟».

- «ها! نسيت أن أخبرك، سنرحل إلى الأناضول يا عائشة! وجدت عملًا هناك قبل يومين أو ثلاثة، سنذهب إلى هناك ونشق طريقنا، تخيلي يا عائشة! قمة جبل ونحن الاثنان..».

أطلقت عائشة الضحكات:

- «والقيام بأعمال تكسير الحجارة، والمهندسون..».

ثم أردفت بجدية:

- «لن نذهب إلى الأناضول يا خالد..».

- «حسنًا لكن يا عائشة..».

- «بدأنا لتونا طريقًا طويلًا للغاية، فربما..».

انتابت خالد جميل الحيرة.

- «أما زال هناك طريق طويل؟ كيف هو؟ وإلى أين يصل؟ أنا لا أفهم شيئًا!».

- «بل تفهم وستفهم أكثر؛ سأشرح لك، والآن قبل أن نرحل إلى الأناضول أو إلى أي مكان أبعد؛ علينا أن نقوم بعمل بسيط للغاية».

- «ماذا يعني هذا؟».

- «يعني أنه علينا الذهاب من هنا حالًا والخروج للشارع وعبور الشوارع الخلفية وما شابه حتى الوصول إلى خارج المدينة».

- «حالًا؟».

- «حالًا!».

- «حسنًا؛ لكن..».

- «لا تنس جوكسل! بما أنه اتصل ليلة البارحة وجعلهم يطلقون سراحك فلا بدَّ أنه يعد أمرًا آخر من جديد، إما أنه سيأتي بنفسه إلى هنا أو يرسل أحد رجاله؛ علي مثلًا..».

- «فهمت، أو بالأصح أن كل ما فهمته أنه يجب علينا الخروج من هنا على الفور».

ارتدى ثيابه على عجلة وقال:

- «أنا مستعد، هيا!».

وبينما كان الاثنان يتوجهان نحو الباب توقف خالد جميل فجأة وقال:

- «ثانية! كدت أن أنسى؛ انتظريني هنا لحظة!».

عاد إلى حجرة النوم، ثم خرج بعد دقيقة والدفتر الصغير الأحمر في يده.

وما إن رأت عائشة الدفتر حتى انتزعته من يده قائلة له:

- «كيف وجدت هذا؟ وكيف وقع في يدك؟ أقرأته؟ لكنه غير كامل أليس كذلك؟».

رد متطلعًا في وجهها ببعض الحيرة:

- «أجل! تم نزع الأوراق التي كانت ستحل مفتاح السر، كنت مرتديًا ملابس جوكسل بالطبع بينما كنت أتبع نوري من أياس باشا إلى هنا، وخرجت هذه من جيبه؛ لكن هذا يعني أنك أيضًا لديك علم به؛ أو أنك! أو أنك قد قرأته كله؟ أو أن الأوراق الأخرى المنزوعة معك؟».

رمشت عينا عائشة وقالت:

- «إنها معي! ليس هناك سر يتعلق بك لتحله، أما في ما يتعلق بي فهناك شيئان؛ أولهما..».

توقفت.

ومن ثم أردفت ببطء:

- «سنتحدث عنهما في ما بعد؛ أما الآن فاصعد أنت إلى الأعلى، وانظر إن كان نوري هناك! فلو كان هناك فأمسكه من ياقته إن توجب وأحضره إلى هنا!».

- «وإن لم يكن في حجرته؟!».

- «وماذا بيدنا أن نفعل، علينا ألا ننتظر منه شيئًا كبيرًا في الأصل، فهو ثمل مختل..».

صعد خالد جميل إلى حجرته على الفور، ولم يكن في حجرته فنزل سريعًا وقال لها:

- «ليس موجودًا يا عائشة!».

- «حسنًا فلنبحث عنه بعد ذلك، والآن هيا بنا إلى الضاحية..».

- «جيد لكننا سنموت جوعًا يا عائشة!».

ضحكت قائلة:

- «انتظر وسنجد حلًا لهذا أيضًا... لنخرج الآن من هنا أولًا..».

هبطا السلالم وقابلا البواب وهما خارجين من الباب فألقى عليه خالد جميل السلام، وتطلع البواب إلى عائشة بفضول.

... ...

قالت عائشة لخالد جميل وهما يلجان شارع الاستقلال:

- «اعبر مستودع الترام بعد عبور موقف الترام بشيشلي، يوجد هناك مكان مشجر قبل الوصول إلى مجيدية كوي؛ أتعرفه؟».

- «أعرفه».

- «سترى هناك مقهى ريفي في الساحة خلف الأشجار، اركب الآن سيارة أجرة

على الفور وانتظرني هناك، يصنع القهوجي هناك سلطة بيض وما شابه، اطلب منها الكثير، وأنا سأحضر بعد ذلك».

تطلع إلى وجهها بحيرة ثم قال:

- «حسنًا لكن أنسيتي أني لا أملك قرشًا، وسيارة الأجرة..».

ضحكت عائشة:

- «فلتنتظر حتى مجيئي».

- «ليكن؛ لكن إلى أين ستذهبين أنت؟».

- «لأجد مالًا».

- «كيف؟ وأين؟».

أظهرت خاتمها ذا الزمردة اللامع بأصبعها الطويل الأبيض الرفيع وقالت:

- «هناك صائغ أعرفه، كما أنه تلزمنا الكثير من النقود؛ الكثير..».

... ...

انتظر خالد جميل عائشة في المقهى الريفي كما قالت.

كان يشعر كما يستشعر الإنسان اقتراب العاصفة منه في يوم صيف حار؛ أن حياته على شفا مغامرة جديدة.

كانت عائشة تتحدث عن طريق بعيد، بعيد عنه، كما قالت منذ قليل تلزمنا نقود وفيرة، وستحصل على هذه النقود الوفيرة ببيع خاتمها ذي الزمردة البديع؛ إلى أين يصل هذا الطريق الطويل؟ ولماذا نسلكه؟

وقفت سيارة أجرة آتية على الطريق، ونزلت منها عائشة وبيدها عدة لفائف، كان وجهها الفاتن مضاء كالشمس، أعطت الأجرة للسيارة التي أقلته.

كانت سلطة البيض جاهزة والعلب مفتوحة، فأكل الشابان مثل الذئاب الجائعة، لم يأكل خالد جميل أكلًا بهذا القدر وهذه الشهية من قبل قط.

سألته عائشة وهما يحتسيان القهوة:

- «ينتابك الفضول حول المكان الذي سنذهب إليه؛ أليس كذلك؟».

- «كثيرًا!».

- «أصغ إليّ إذًا! وقبل أن أوضح لك إلى أين سنذهب، وماذا أريد أن أفعل؛ يجب عليّ أَولًا أن أفتح لك باب السر الكبير الذي بقيت على عتبته».

خلعت قبعتها الخضراء، ثم أدخلت يدها في حرفها المطوي، وأخذت منها رزمة أوراق صغيرة رقيقة ملفوفة، ومدتها إليه...

- «هاك!».

- «أدركت ما إن رأيتها أنها هي الأوراق؛ الأوراق المنزوعة من دفتر مذكرات جوكسل..».

- «إنها هي أجل، خذها واقرأها! ولتقرأها بصوت عالٍ حتى أسمعها أنا –أيضًا– مرة أخرى».

أخذها خالد جميل وبدأ في القراءة:

«حطمت أنا وحسين وصديقنا الجديد مختار الأحجار طوال شهرين في الطريق رقم 1 لغويان.

وذات ليلة بينما كنا نلعب القمار في الكوخ ونغني ونطلق السباب؛ حكى لنا مختار ثانية عن السنوات الأخيرة في إسطنبول.

أحدثت الذكريات والحكايات المتعلقة بإسطنبول التي استمعنا إليها عدة أشهر تغييرًا عميقًا في نفسي ونفس حسين، وألهجت في أعماقنا الرغبة في رؤية المدينة التي خرجنا منها صغارًا، لدرجة أني رأيتها بحلمي ذات ليلة، أكانت هذه المدينة التي رأيتها تشبه إسطنبول بالفعل؛ لا أعرف! لكني عندما حكيت عنها لمختار في اليوم التالي قال لي:

– «لكنك لم حكيت عن بحرها قليلًا وعن مآذنها كثيرًا».

ثم صار بعدها مختار يحكي لنا عن البحر كثيرًا وعن زرقته وهوائه المنعش ويتوقف ليوضح لنا الفرق بين البحيرة والبحر.

قطع حسين ذات مرة كلام مختار فجأة وقال له:

- «ليتنا نرى إسطنبول تلك ولو لمرة قبل موتنا!».

تطلع مختار إلى حسين بنظرة عجيبة ثم نصب عينيه عليّ وسألني كأنما هو على وشك أن يفضي إلي بسر كبير:

- «أتود رؤية إسطنبول؟».

فقلت دون تردد:

- «بشدة! لكن..».

ضحك مختار ضحكة عجيبة وقال:

- «أفهم هذا! كم تبعد غويان عن إسطنبول؟ الأولى تطل على الضفة الأخرى لأمريكا والأخرى تقبع في طرف لأوربا، يفصل بينهم اثنان أو ثلاثة بحار أليس كذلك؟».

نكست رأسي وقلت:

- «نعم، أين إسطنبول وأين نحن!».

مد مختار رأسه من حيث يجلس للأمام وقال بصوت هامس:

- «انصتا إليّ يا صغار! إن كنا نستطيع الوثوق بعضنا ببعض فسنصل إلى إسطنبول».

سألته أنا وحسين صارخين كعادتنا:

- «كيف؟».

- «نهرب من هنا!».

كنت أعلم أني سآخذ إجابة هذا من سياق الحديث؛ لكن حسين لم يخمن هذا فضحك بانكسار عميق:

- «أتمزح معنا؟ إلى أين نهرب؟ أو يمكن الهروب أبدًا من غويان؟ يمكن الفرار من جهنم لكن من هنا مستحيل».

ثم أخذ يرمقه بعينين متسعتين وبنظرات متحدية لا تصدقه كأنه مجنون؛ لكن هذا كله ذهب هباءً وباء بالفشل حيث بدأ في شرح خطته للفرار:

- «أتعرف متجا؟ متجا الأعور ذلك، هو أيضًا أراد الفرار، فرحل آخذًا معه بورتشر وبرابنت ولاڤرنير أشجع وأعتى المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة الذين تعرفهم.

وكان هناك قارب صياد متين يبحر إلى البحر في الأسفل وكانوا يثقون بالرجال الذين سيقلونهم كما كان معهم نقود جمعوها لأعوام من قيامهم بالأعمال الشاقة.

سارت الأمور في البداية على ما يرام، وبمجرد عبورهم لدلتا نهر أويابوك[6] أعطوا لكل واحد من الصيادين الذين جلبوهم لشواطئ البرازيل ستمئة فرنك.

كان الشراع على مؤخرة القارب موجهًا إلى غوناني... ودفة القارب وجهوها نحو البرازيل التي كانت بمثابة مملكة السلاطين السحرية بالنسبة للمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة.

البرازيل! كان كل المساجين الذين يريدون الفرار من غويان واثقين من أنهم سيعثرون هناك على عمل حر، فالبرازيل هي قبلة كل المساجين هنا.

كانوا على علم مسبق بأن الصيادين لن يوصلوهم إلى نهر الأمازون؛ لكن الحدود بين غويان الفرنسية وغويان البرازيلية واسعة للغاية، فلو أنهم يوصلونهم فقط إلى كوتشبور، يكون الباقي سهلًا...

والمسألة ليست فقط الذهاب من كوتشبور إلى غوناني ففي غوناني يوجد عمل كما توجد النساء البيضاوات والشراب الوفير.

أي أنهم كانوا يريدون أن يستمتعوا أولًا قبل أن ينشغلوا بالعمل.

وعلى الرغم من أنهم وصلوا إلى ساحل كوتشبور قبل أن تنفذ مؤونتهم إلا أن

6- نهر أويابوك (Oyapock River): هو نهر يقع في أمريكا الجنوبية ويشكل نسبة كبيرة من الحدود بين غويانا الفرنسية وولاية أمابا البرازيلية.

المشاكل بدأت في محاصرتهم، فقد كان والي كوتشبور قد قرر قبل شهر إبعاد كل الأجانب الذين لا يحملون جواز سفر خارج الحدود.

وقيل للفارين «لن يمكنكم المكوث في البلد، اذهبوا إلى بوليسور وبعد الإقامة هناك لخمسة أعوام يمكنكم الحصول على الجنسية البرازيلية».

عندما يقضي الإنسان عشرين عامًا من عمره في السجن في الأشغال الشاقة؛ ينفذ بداخله حب الوطن، ولا يحيا معه في حبسه إلا شوقه لشيئين: المرأة والحرية.

استمع الخمسة الفارون إلى النصيحة التي قدمت لهم، وخاضوا الغابات البرية التي لم تمسها بلطة لأجل الذهاب إلى بوليسور؛ لكنهم تاهوا في الغابة؛ أو يمكن ألا تضل طريقك في الغابات في ما بين غويان الفرنسية والبرازيلية؟ أتتذكران عثورنا على هيكلين لسجينين تاها في الغابة؟ كانت الحيوانات الوحشية والطيور البرية قد أكلت لحمهما، ألا تذكران كيف كان النمل الأحمر المرعب يلف حول جثتيهما؟ تحدثا! ألا تتذكران؟».

لم يكن حسين يستطيع نسيان هذا، فأحنى رأسه وقال: «أنا أذكرهما».

سعد مختار بالجواب الذي تلقاه من حسين فأكمل حكاية الفارين الخمسة بصوت أكثر شجى:

- «أخذوا يلفون سائرين في دوائر كبيرة لأنهم لم يدركوا أنهم ضلّوا طريقهم في الغابة ثم وصلوا في نهاية سيرهم إلى أسفل شجرة ضخمة.

جلسوا أسفل هذه الشجرة وهم على وشك الموت من الجوع والتعب.

فكل الوسائل التي تفيد في العثور على الطريق في غابة أوربا لا تجدي نفعًا في هذه الغابات البدائية، فالبوصلة لا تشير للطريق حيث تدور إبرتها كالمجنونة، كما أن الشمس لا تدخلها، فإن كانت السماء لا تظهر فوق قمم الأشجار فكيف تظهر الشمس، فالغابة تقبع في ظلام أبدي معتم مخيف، كما أن غابة غويان ممتلئة بالخضرة والأعشاب فيصعب فيها وجود أثر.

ولكي تجد الطريق بهذه الغابات يجب أن تكون ولدت وقضيت حياتك فيها لتستطيع أن تشعر أين أنت وإلى أين تتوجه بواسطة صرخات القرود أو من وضعية أوراق

الأشجار...

ولأن السُّجان لم يدربوهم على هذا في الحبس؛ ضل متجا ورفاقه طريقهم.

وفي حين أنهم كانوا يهبطون إلى البرازيل ذاهبين إلى بوليسور؛ اتسعت الدوائر التي يدورون بها وألقت بهم في غويان الفرنسية على الجهة المقابلة.

ورغم أنهم أدركوا خطأهم هذا أسفل الشجرة التي آووا إليها وهم على وشك الموت إلا أن هذا كان بعد فوات الأوان.

اشتروا طحين المنيهوت بعشرين فرنكًا للكيلو من السكان المحليين المتجولين في الغابة وسلقوا القرود والثعابين والببغاوات التي اصطادوها وأكلوها.

وظلوا على قيد الحياة رغم البوص الحار الذي حرق أجسادهم كلما مسهم وهجوم العقارب والنمل الأحمر عليهم، أخذت ملابسهم تتمزق حتى صاروا عراة بالنهاية، وكانت توجد شجرتا ليمون قريبتان من المكان الذي آووا إليه؛ إلا أنه نفذ الليمون من على الأفرع ومع شربهم من مياه المستنقع؛ أصابتهم الملاريا، فأنهكتهم العدوى المرعبة أكثر من العقارب والثعابين والنمل الأحمر والبوص الحار، واشتدت نوباتهم، وذات صباح خرجت روح مسابرو الذي كان أقوى المساجين جسدًا في الحبس وهو يتمرغ عاريًا فوق التراب وأسنانه تصطك بعضها ببعض، ثم لحق به لاڤرنير بعد ذلك بثمانية أيام.

ومن ثم لم يعد أمام متجا وبورتشر وبرابنت غير مغادرة هذا المكان، فساروا، وهم يعرفون أنهم سيقعون في غويان الفرنسية ثانية ويدركون أنهم راجعون بأقدامهم إلى الأشغال الشاقة مرة أخرى.

وعندما اقتربوا ذات صباح من سان أنتونيا أمسكت دورية الشرطة بهؤلاء العراة شبه الموتى واعتقلتهم، وقد كانوا نحيفين لدرجة أن الكلبشات لم تمسك بمعاصمهم.

ثم ماذا حدث؟

أحضروهم إلى العاصمة وحكموا على كل منهم بثلاثة سنوات أخرى لأجل محاولتهم الفرار، والآن يشغلونهم في أقسى الأعمال في تشرقين..»

حدق حسين في وجه مختار بعد أن أنهى كلامه وقال:

- «وهل هذا هو الفرار؟ الذهاب والدوران والعودة إلى هنا مرة أخرى؟ لا! لا يمكن الفرار من جهنم هذه، وكيف يمكننا الفرار بعدما لم ينجحوا فيه؟».

لم يرد مختار.

انقضت هذه الليلة هكذا، ورأيت في منامي الغابة البدائية ترتفع فوق بحر إسطنبول وعناقيد من النمل الأحمر تنسدل على فروعها.

فتح مختار الحديث نفسه ثانية بعد ثلاثة أيام بقوله:

- «ثقوا بي يا أبنائي! فقد اتخذت كل احتياطاتي وسأذهب كيفما كان، ويؤلمني كثيرًا ترككم هنا، ولتعلموا أيضًا هذا..».

وغاص بنظراته في أعماق عينينا:

«سنعود إلى إسطنبول بثروة ضخمة..».

لم نرد أنا ولا حسين هذه المرة.

أعاد مختار علينا عرضه في الليلة التالية والتي تليها...».

قطع خالد جميل قراءته بغتة وقال:

- «عائشة! تم تخطي ما بعد هذا، الصفحات التالية لهذا ناقصة».

فأجابته:

- «أجل! لم أستطِع أن أخبئها كلها، كانت تحتاج مكانًا أكبر، فرزمة الأوراق كانت سميكة لدرجة لا تحتملها قبعتي؛ فاحتفظت بالأوراق المهمة الأصلية فقط، أما الأوراق التي أحرقتها فيحكي فيها جوكسل كيف وافقا مع إلحاح أبي على الهروب وكيف هربوا، وصلوا إلى فنزويلا بعد العديد من المصاعب، ما عليك أن تعرفه أنهم هربوا ونجوا من الأشغال الشاقة بمساعدة أبي ثم استقروا في فنزويلا؛ والآن أكمل القراءة!».

استأنف خالد جميل القراءة من جديد:

«تعرفنا في فنزويلا على طبيب اسمه لورانت يحوز احترام الجميع لكونه مواطنًا استطاع الهرب من الأشغال المؤبدة مثلنا تمامًا.

كان لورانت رجلًا غريب الأطوار، ووفقًا لادعائه؛ أنه لقح زوجته -بمحض إرادتها- ببكتريا مرض الجذام، ثم عمل على مداواتها من هذا المرض وفق طريقة قال إنه اكتشفها؛ لكن المرض لم يُشف، وعندما أدرك أنها ستموت في كل الأحوال؛ قتلها مطلقًا عليها الرصاص حسب رغبتها -أيضًا- على حد قوله، ثم ذهب وسلم نفسه للقضاء فحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة وتم إرساله إلى غويان.

كانت لدى الطبيب لورانت غاية وحيدة وهي القضاء على الجذام، وإيجاد مصل يشفي منه على الفور.

سألنا ذات يوم إن كنا قد ذهبنا إلى جزيرة المصابين بالجذام في غويان.

فقلنا: «لا، فإنه لا يمكن الذهاب إلى هناك أساسًا».

ضحك وقال: «أما أنا فقد ذهبت، مررت عليها قبل عشرة أعوام بينما كنت أفر من غويان مجازفًا باحتمال القبض عليّ وعودتي للأشغال الشاقة مرة أخرى.

كانوا يرسلون المساجين الذين يصيبهم مرض الجذام إلى جزيرة سانت لويس.

وعندما وصلت إلى الجزيرة قابلني ثلاثة مرضى؛ لم يكن لدى أولهما يدان بل تتدلى أجزاء لحم مهترئة من معصمه، والثاني لم يكن لديه أنف ولا أسنان؛ أما ثالثهما -اسمه فيوتي وكان يرقد معه في نفس الكوخ في غويان- فصدره مليء بتحدبات مثل حراشف الأسماك.

لم يتكلم أحد غير فيوتي؛ لأن الآخرين كانوا يعرفون أنهم إذا فتحوا أفواههم ستنبعث منها في وجه من يقابلهم رائحة الجيف.

- نحن نعرفك يا دكتور، ورؤيتك على وشك الفرار من جهنم، ومجيئك لتوديعنا رغم الخطر المحدق بك أسعدتنا كثيرًا، فأنت لا تخاف من المصابين بالجذام، كما أنك قد ضحيت بزوجتك من أجل إيجاد الدواء لهذا المرض المميت، لا تخف! فلا أحد سيمسك بسوء هنا، كما أنك لن تمكث أكثر من خمس دقائق، فسأجولك بالجزيرة ولا تخف مني! فلست مصابًا بالجذام؛ بل أنا مصاب بالزهري من الدرجة الثالثة؛ لكنهم ألقوا

بي هنا ولم يلتفتوا لكلامي.

جزيرتنا ليست كبيرة كما ترى فطولها ثلاثمئة متر وعرضها ثمانون مترًا تقريبًا.

تعال أولًا لأطلعك على مستشفانا، يأتي إلى هنا طبيب كل شهر.

كان المكان الذي يطلقون عليه مشفى هو بناء من الطوب اللبني يحوي حجرتين، وكانت هاتان الحجرتان قذرتين بشدة وتفوح منهما روائح نتنة يكاد معها الإنسان أن يسقط أرضًا مثل البعوضة؛ عند وقوفه فيهما أكثر من دقيقة، كما أنه لا يوجد بهما أي دواء لهم يسكنون به آلام هذا المرض العضال المميت ولا أي ضماد نظيف يربطون به جروحهم.

خرجنا للخارج وأتى بي عند ڤابرا، لم يكن لدى ڤابرا قدمان؛ قرضهما الجذام.

كان يوجد على الجزيرة في ذلك الوقت أربعة وثلاثون مصابًا بالجذام، وقد بُني لأجلهما 20 عشة بالية، ولم يكن هناك ماء، بل مستنقع صغير يغسلون جروحهم فيه ويشربون المياه منه».

سئمنا من الاستماع والإنصات لحكايات دكتور لارونت عن الجذام التي لا تنتهي ولا تنفذ؛ لكن مختار كان يتفق مع الطبيب جيدًا، لذا كنا نضحك في وجهه تلبية لرغبة مختار.

وذات يوم قال مختار:

«يا أبنائي! الطبيب فقط هو من يمكنه أن يؤمن لنا المال والوسيلة اللازمة لنا للذهاب إلى إسطنبول، وهناك أكثر من هذا: إني قد تعرفت في الحبس على سجين قدم معروفًا له؛ أنتم تعرفونه: بيار رقم 2465... وقد تحدث عن ذهاب الطبيب إلى غينيا الجديدة[7] لمدة من أجل فحوص الجذام، وغينيا الجديدة هي مملكة الذهب، فلو أمكننا الذهاب من هنا إلى قناة بنما وسلك طريقًا من هناك حتى الوصول إلى هذه الجزيرة الموجودة في شمال أستراليا؛ يمكننا أن نصبح كلنا مليونيرات، والطبيب لارونت هو من يمكنه مساعدتنا في هذا العمل».

7- غينيا الجديدة: هي جزيرة كبيرة تعد ثاني أكبر جزيرة في العالم، وتقع في جنوب غرب المحيط الهادئ شمال أستراليا.

كنا نصغي إلى حديث مختار واتضح أنه على حق، أمن لنا الطبيب الوسيلة بالفعل، فخط من أجلنا رسائل توصية لعدة تجار من غينيا الجديدة الذين لا يزال على تواصل معهم، وأعطاها لنا ثم ذهبنا في طريقنا...».

توقف خالد جميل مجددًا وقال:

- «ثمة أوراق أخرى ناقصة يا عائشة، الحديث يقفز فجأة».

ردت عائشة عليه هذه المرة لكن بحزن:

- «نعم؛ لكن الذنب ليس ذنبي، فلسبب ما كان جوكسل يتخطى الحديث عن رحلته من بنما إلى غينيا الجديدة كلما أتى ذكرها في مذكراته، سترى أنه لا معلومات تتعلق بقوارب الذهب ولا بما قابلوه في غينيا الجديدة، اقرأ وسترى فالحديث يبدأ ب: «وصلنا إلى مناجم الذهب»».

أجال خالد جميل نظره في الأوراق التي بيديه ثم قال:

- «نعم! بدأ ما كتبه بــ»وصلنا إلى مناجم الذهب»».

- «اقرأ الآن، أكمل هيا..».

شرع خالد جميل من جديد في قراءة مذكرات جوكسل بصوت عالٍ:

«طار صوابي؛ كأنما الحمى أصابتني فجأة، والتفت إلى حسين فإذ به يحدق في قطع الأحجار الرمادية المائلة إلى الصفرة المكسرة من المناجم الصخرية؛ وحده مختار هو من لم يفقد ثباته.

أقمنا معسكرنا على الفور وكان برفقتنا عشرون حمالًا وعاملًا محليين، ثم صرنا ثمانية عشر فقط في المخيم بعد أن توفي في الطريق خمسة أشخاص بسهام آكلي لحوم البشر المسمومة: ثلاثة منهم من البيض وخمسة عشر من الزنوج...».

توقف خالد جميل ثانية:

- «قفز على الأحداث ثانية يا عائشة!».

أجابته عائشة:

- «أجل، كما أنك ستجد بقية المذكرات بعد ذلك هكذا مقطعة؛ تقفز على أحداثٍ وتتخطى أمورًا، فأكمل القراءة!».

قرأ خالد جميل:

«كان العمل شاقًّا؛ لكن العائد وفير، ولو أمكننا مجابهة الحمى والمجاعات التي تظهر؛ سنعود ثلاثتنا إلى إسطنبول بعد عام مليونيرات...

مرض مختار ذات يوم فاستدعاني إلى جواره عشية ليلة وأخبرني:

«يا بني! إن مت فابنتي عائشة أمانة عندك، ولتؤمن مستقبلًا لابني نوري»، ثم أعطاني عنوانهما وقال لي: «إن لم تجدهما هنا فاذهب إلى إزميت فقد يكونان هناك برفقة خالاتهم»، وكتب لي عنوان إزميت كذلك، «كان نوري وعائشة يدرسان في المدرسة الأمريكية حين مغادرتي لإسطنبول، ربما يمكنك العثور عليهما هناك».

ثم أضاف: «أخبرهم بشعوري نحوهم..».

ثم تعافى مختار؛ لكنه مع ذلك صار ضعيفًا للغاية... واستمر العمل... ذهب! ذهب! ذهب!..

لا يزال مختار ضعيفًا إلى الآن ولا يعمل ويرقد طوال النهار على ظهره...

عدت ذات مساء مع حسين من العمل وقلت له:

- «أيا حسين! هل سنعمل نحن ونضيف مختار مجانًا؟».

حدق حسين في وجهي قائلًا:

- «أصبت! أيصير الرجل غنيًّا من كدنا فقط لأنه أحضرنا إلى هنا؟».

- «مختار كسول للغاية، ويقول إنه مريض؛ هراء! لا أصدقه..».

أتى مختار إلينا ذات صباح يتصنع الأنين وقال:

- «ضاعت حزمة الكينين[8] خاصتي! وبحثت فلم أستطع العثور عليها؛ فهل

8- الكينين: هو أول علاج فعال استخدم في أوربا لعلاج الملاريا، ويوجد في الطبيعة في لحاء شجرة الكينا.

أخذتموها أيها الأولاد؟».

رمقت حسين بنظري فقال: «لا؛ لم أرَها».

قلت: «وأنا أيضًا لم أرها!».

سار مختار متهالكًا...

فسألت حسين:

- «أأنت من أخذ حزمة الكينين يا حسين؟».

قال: «نعم! إن كان سيموت فليمت في أسرع وقت!».

لم أصدر صوتًا فحسين محق، إن كان سيموت فليمت في أسرع وقت...

في هذه الليلة أتى إليّ أحد الحمَّالين المحليين خائفًا وقال لي بإنجليزية غريبة:

- «سيدي! لنذهب من هنا، عثرنا على ذهب كثير للغاية... كما أني سمعت أن هناك احتفالاً ضخمًا لآكلي لحوم البشر وسيأتون إلى هنا ويقتلوننا جميعًا!».

أبلغت حسين بما أخبرني به الحمَّال.

فقال: «لنهرب، لقد عثرنا على ذهب يمكننا من عيش بقية حياتنا كمليونيرات؛ أيها البيك الصغير».

كان لا يزال يلقبني «البيك الصغير».

حزمنا أمتعتنا لنهرب في الغد، وصنع مختار لنفسه نقالة؛ ولأنه كان سيحتاج لحمَّالين ينقلانه على الأقل؛ كنا سنضطر لترك تبر الذهب المختلط هنا.

أنترك الآن جزءًا من الذهب الذي جمعناه بجهد جهيد بسبب هذا الرجل؟ كما أنه مريض، وسيموت في الطريق على أي حال...

رحلنا في الصباح الباكر، وكان مختار نائمًا في عشته يحلم أحلامًا سعيدة...».

قال خالد جميل مادًّا الأوراق إلى عائشة:

- «انتهت؛ انتهت مذكرات جوكسل... يعني هذا أنه..».

- «تركوا أبي؛ أبي الذي جمعهم بالحرية والثروة؛ تركوه صباحًا في غابات غينيا الجديدة مريضًا بالحمى وهربوا..».

صمتت عائشة فسألها خالد جميل بصوت متهيب خافت كأنما هم في حضرة ميت لم ترفع جنازته بعد:

- «تمام؛ لكن بعد هذا؟».

- «بعد هذا... ينتابك الفضول حول كيف وجدني، ولم بحث عني، وكيف تزوجنا؛ أليس كذلك؟».

أومأ خالد جميل برأسه.

- «لأحكي لك باختصار؛ كنت حينئذ قد أنهيت المدرسة، فانتقلت إلى منزل خالتي في إزميت، وبقي نوري في إسطنبول، كان لأبي محل مؤجر هناك وأجرنا -أيضًا- البيت الذي في أسكودار، كما كنا نحصل على مال وفير من حصة أمي في مزرعة خالتي في إزميت، وكنت أدع كل هذا لنوري؛ وقد أخطأت بهذا؛ لأنه غرق في الملذات في إسطنبول وبدأ إدمان الشراب فما عاد يفكر بي ولا يسأل عني.

أتى جوكسل ذات يوم إلى المزرعة في إزميت؛ ولأنه في تلك الأزمنة لم يكن قانون اللقب مطبقًا بعد، فقدم لي نفسه باسم سيف الله باشازاده سيفي، وروى لي عن المغامرة التي خاضها حتى نهايتها، لكنه لم يذكر في روايته غينيا الجديدة، وبحسب ما رواه؛ فإن أبي توفي في فنزويلا، أما هو فقد كسب مالًا وفيرًا في فنزويلا، ولئلا أطيل في الحديث بلا داعٍ أو بالأحرى لأن تذكر هذا ثانية يؤلمني كما لو أنه ينخر قلبي بالسكين.

شعرت في البداية بالألفة والثقة اللانهائية تجاه الرجل الذي كان بجوار أبي وهو يموت والذي بحث عني حتى وجدني، وكان هو ماكرًا في استغلال هذه الألفة وتحويلها إلى حب، فأحببنا بعضنا بعضًا ثم تزوجنا...

سافرنا إلى أوربا وأقمنا في باريس ولندن وفيينا وبرلين، وخلال هذا كانت صلتي بأخي نوري قد انقطعت تمامًا، كما عمل زوجي كل ما بيده لئلا نتواصل مرة أخرى.

انقضت السنون هكذا ومرت؛ حتى وجدت دفتر مذكرات جوكسل ذات ليلة بالصدفة، وعرفت أني عشت؛ بل وأحببت الرجل الذي تخلى عن أبي وتركه بين أذرع الموت المرعبة».

سكتت عائشة.

فقال خالد جميل:

- «والباقي أنا أعرفه؛ تحول حبك إلى بغض رهيب وسيطرت رغبة وحيدة على عقلك وهي: قتل الرجل الذي قتل والدك..».

- «نعم؛ لكن ليس هذا فقط؛ بل قتله والذهاب للبحث عن أبي..».

- «حسنًا؛ لكن!».

- «لا أصدق أن أبي مات، وهذا هو سبب ترددي الدائم في قتل جوكسل، وقد شكل ترددي هذا ألمًا رهيبًا في أعماقي حتى إنني فكرت في قتل نفسي للتخلص منه.

لم يمت أبي يا خالد جميل! ربما يكون هذا مجرد وهم؛ ولكن هذا الوهم يجب أن يتم التحقق منه عن طريق دليل ملموس كاللحم والعظم، أو دليل غير ملموس كالدخان وإلا فإنني سأحيا داخل عذاب جهنم هذا حتى الموت ما دام عقلي يفكر في هذا..».

- «أفهمك..».

- «أنا واثقة من أنك تفهمني، ولا أعلم؛ ففي الليلة التي قابلتك فيها أسفل مصباح الشارع..».

صمتت من جديد ومن ثم سألت:

- «أتحبني كثيرًا يا خالد؟».

- «كثيرًا؛ كثيرًا لدرجة لا يمكنك قياسها ولا استيعابها..».

- «إذًا لنذهب لإيجاد أبي وليس إلى الأناضول يا خالد..».

- «لنذهب يا عائشة».

اقتربت يد عائشة البيضاء ذات الأصابع الطويلة من يد خالد جميل الموجودة فوق المنضدة، ولاذت براحته مثل فرخٍ طائر غلبه النعاس.

تجمدوا في وضعهم هذا لمدة؛ تلاقت عيناهما، وحكت بلغة القلوب ثم بدأ فاهاهما بالحديث بلغة الكلمات:

- «متى نسافر يا عائشة؟".
- «لا أعرف! كلما كان أسرع كان أفضل، لننظر في مواعيد السفن..».
- «سننسافر إلى غينيا الجديدة؛ أليس كذلك؟».
- «نعم، فقد تركوه هناك وفقًا للمذكرات... ويوجد في حوزتنا نقود تكفي لإيصالنا إلى هناك ولمعيشتنا هناك كذلك..».

نظر إلى يدها البيضاء الموجودة بين راحته وتأمل في أصبعها الطويل موضع الخاتم ذي الزمردة الخلابة تلك، وكانت هذه المرة الأولى التي يشعر بالسخط فيها تجاه فقره.

الفصل الثالث

من مذكرات خالد جميل

1

في جهنم المحيط الهادئ

بين آكلي لحوم البشر والباحثين عن الذهب
على جزيرة غينيا الجديدة

لن أكتب عن رحلتنا من إسطنبول حتى غينيا الجديدة؛ لأنه لا شيء فيها يستحق الذكر؛ قمرات السفن المريحة ومقطورات نوم وفنادق وبحر ثم بحر... لو كنا عبرنا قناة بنما وقابلنا القراصنة الصينيين خلال طريقنا في الذهاب لغينيا الجديدة أو اشتعلت حريقة في سفينتنا عند تجاوزنا المحيط الأطلسي؛ كنت كتبت عن ذلك بالتأكيد، ازداد حبنا أنا وعائشة وتعلقنا ببعضنا بين زرقة البحار خلال رحلتنا إلى غينيا الجديدة، ولم يقع في رحلتنا التي استمرت شهرًا وأسبوعًا حدثًا جديرًا بالذكر غير تفاجئنا من تعاظم حبنا كل يوم زيادة عن سابقه.

ويوم وصولنا غينيا الجديدة لم نكن نملك غير نقود تكفينا قليلًا بالإضافة إلى

المخطط المنزوع من دفتر ذكريات جوكسل وقلبين متعلقين بعضهما ببعض.

ويمكن من هذا المخطط الوصول إلى المكان الذي تُرك فيه والد عائشة؛ لكني أريد أولًا الكتابة عن تاريخ هذه الجزيرة التي تقبع في شمال أستراليا؛ قبل المرور إلى الذكريات التي تبقت من الأيام المليئة بالخوف والفرح والشوق والمخاطرة التي قضيناها بين آكلي لحوم البشر والباحثين عن الذهب في غينيا الجديدة.

اكتشفت هذه الجزيرة التي يطلق عليها اليوم (غينيا الجديدة) عام 1528 سفينة إسبانية تُسمى (Alvaso de Savora) وأطلقت عليها اسم (İsla del Oro) أي «جزيرة الذهب».

وبعد اكتشافها هذا بأربعة قرون؛ استولى عليها الألمان.

ثم قطنها الإنجليز فور اندلاع الحرب العالمية.

وفي 12 سبتمبر 1914 تمت دعوة حشد من مواطني غينيا الجديدة من أهالي رابول والقرى المجاورة إلى اجتماع تم عقده أسفل بركان خامد.

صعد مندوب ملك بريطانيا خلال هذا الاجتماع إلى المنصة التي علت قمتها راية الإمبراطورية البريطانية خفاقة وتلا البيان المكتوب بلغة إنجليزية محلية؛ وهذه اللغة الإنجليزية المحلية هي لغة عجيبة نشأت عن طريق المزج بين قواعد اللغة الإنجليزية وقواعد لغة آكلي لحوم البشر في غينيا الجديدة.

تحدث مندوب الملك بهذه اللغة العجيبة:

- «أنتم ترون الراية الجديدة، الراية الجميلة... راية بريطانيا... والرجل البريطاني أفضل من الألماني بكثير... فالبريطاني يحب رجال غينيا الجديدة كثيرًا للغاية، وهم كذلك عليهم أن يحبوه بشدة، كما أن عليهم ألا يأكلوا البشر ولا يقتلوا الناس وألا يأذوا أحدًا!».

فرح السكان المحليون الذين استمعوا لهذا الخطاب برحيل الألمان وحل الإنجليز محلهم؛ ربما بأمل أن تُخفض الضرائب.

بيد أنه قبل مرور الكثير على هذا الخطاب؛ علقت فرحتهم هذه في حلوقهم وازداد

يقينهم مرة أخرى أنه بغض النظر عن العرق الذي ينتمي له فإن الرجل الأبيض سيئ؛ سيئ للغاية، الرجل الأبيض لا يتوقف عن فرض الضرائب!

يقولون إن هناك ثلاثة أشياء لعبت دورًا أساسيًّا في الحياة البريطانية البرجوازية؛ الإمبراطورية، الويسكي، والإنجيل...

فما إن تطأ أقدامهم أرضًا سواءً أكانت بقرب القطب الشمالي أو واقعة على خط الاستواء؛ حتى يبدؤوا في تدشين النظم التي تحمي تجارتهم، كما يقررون إقامة كنيسة ونادٍ، ومستعمراتهم تحمل الأشياء الثلاثة هذه على ظهورها مثلما تحمل الحلزونة قوقعتها على ظهرها.

ولهذا تشبه كل المدن المترامية في أطراف هذه الإمبراطورية بعضها بعضًا على الدوام، فمدينة بريسلاف في أستراليا، وكالجاري في كندا، ودوربان في جنوب إفريقيا؛ كلها تبدو كأحياء في لندن...

ولا تشكل مدينة رابول عاصمة غينيا الجديدة استثناء في هذه القاعدة، فما ينطبق على أي ولاية تابعة للإنجليز؛ ينطبق هنا؛ إلا أن هناك فرقًا وحيدًا وهو أنك تصادف في شوارعها أثناء الحرارة الحارقة زنوجًا محليين عراة تمامًا لا يرتدون شيئًا غير خرقة صغيرة يطلقون عليها لاب-لاب.

وهذا ما ثبت في قناعة عائشة التي مكثت هناك شهورًا وزارت مدنًا وأحياء إنجليزية عديدة غير لندن؛ أو على الأصح هذا ما أكدته هي من صفات مدن وأحياء الإمبراطورية.

لففنا في اليوم الثاني لوصولنا مدينة رابول المدينة من شرقها لغربها، وقابلنا بها ساحة جولف وملعب تنس ومشفى ومحكمة ومكتبة وفندقين وناديين وأسواقًا ومخابز وكنائس ومقابر وشارعًا مظللًا بالنخيل تتجول الناس فيه بالأحصنة وأطباء ومحامين ومعلمين وصغار الموظفين الحمقى ورجالًا مضجرين وصحفيًّا وعجائز وسيدات تتبادلن النمائم وسيدات يدعي الجميع عدم استطاعته فهمهن بالإضافة إلى التجمعات العائلية.

كانت هناك لفة مغلقة على قبعة ورداء أكلت ياقته العثة في خزانات ملابس الرجال، أما النساء فكن يحلمن بالأيام التي سيقضينها في لندن، والفتيات الشابات كان كل ما

يأملنه هو مواعدة موظفي أو مساعدي آبائهن وارتفاع مرتبات أحبائهن.

كانت مدينة البيض هكذا.

أما عن السكان المحليين، فقاطنو المدينة منهم كانوا يعيشون في أكواخ منشأة من التراب والحشائش البرية والأشجار؛ وبالرغم من أنهم ليسوا في راحة أكثر من البيض؛ إلا أنهم كانوا على الأقل يعيشون مرتاحي البال؛ لأن كل هؤلاء الزنوج سواء المحليين منهم أم المتمدنين لم تشب في أعماقهم شهوة العثور على الذهب كما شبت في أعماق البيض المنتشرين في كل أنحاء الجزيرة كلهب جهنم.

وفي حين كانت أجسادهم تصطلي جراء حرارة خط الاستواء؛ كانت قلوبهم تستعر هي الأخرى بحمى الذهب، حيث لم تكن هناك سوى غاية وحيدة للبيض على جزيرة الذهب؛ هي: العثور على الذهب!

إنها الغاية التي جلبت جوكسل وحسين ومختار من فنزويلا إلى هنا، والطمع الذي جعلهما ينحطان لدرجة ترك إنسان مريض بين أكناف الموت وسط غابة موحشة؛ الطمع في الذهب!

كنت أنا وعائشة نتأمل ما حولنا ونصغي للمتحدثين، وأصابتنا الدهشة من الطمع في الذهب الذي لا حد له في هذه الأرجاء.

فعندما يصاب الذين هنا بالحمى؛ يرتجفون وترتفع حرارتهم ليومين أو ثلاثة ويستدعون الطبيب... لكن شفاءهم ونجاتهم من هذا المرض ممكنة؛ أما حمى الذهب فليست كذلك، فهي إن أمسكت بهم مرة بين قبضتها الصفراء لا تدعهم ثانية قط، فتريهم أحلامًا لا تعقل وتذهب بعقولهم كالمجانين كما أنه لا هدوء ولا توقف لنوباتها!.. حتى أقوى الناس وأكثرهم واقعية ومنطقية يتخلون عن مواقد بيوتهم وعن جوار عائلاتهم وأطفالهم ويلقون بأنفسهم داخل الصمت المهيب لغابات غينيا الجديدة البدائية، يرحلون إلى هناك؛ إلى الغابات التي يقف آكلو لحوم البشر في كل خُن شجرة بها متربصًا ومعه سهامه المسمومة...

ويمكنني القول إن كل شخص في هذه المدينة كان يلهث وراء الذهب؛ فيما عداي أنا وعائشة، فنحن أتينا للبحث عن إنسان تُرك بين أسنان آكلي لحوم البشر الذين

هاجموه وهو مريض في مكان ما على رأس منجم ذهب في الغابة قبل أعوام من الآن، ربما كنا نركض وراء سراب وربما لن نجد أبدًا من نبحث عنه؛ إلا أنه على الرغم من هذا فإننا نركض وراء غاية يمكن لأهالي هذه الأنحاء ولسكان المدينة المهووسين بكل هذا الذهب الاطمئنان إليها والتحقق منها بسهولة على أي حال.

تركت عائشة في الفندق في الليلة الثالثة لوصولنا إلى هنا وذهبت إلى أحد بارات رابول علَّني ألتقط طرفًا للخيط يفيدنا في عملنا.

يطوي البيض الذين يرتدون ملابس بيضاء الكأس تلو الآخر بسرعة تمنحهم إياها عقولهم الغائبة، لفتت غرابة هذا المنظر والسرعة التي يدور بها انتباهي وخطر على بالي «تُرى هل وقع جوكسل هنا في إدمان الويسكي؟».

ربما كان سبب هذا سؤال الرجل الواقف بجانبي أولًا: «من أي دولة جئت؟» ثم قوله دون انتظار جوابي: «أتشرب ويسكي؛ أم قصبًا؟».

يجب عليك ألا تندهش من قفزه للسؤال الثاني قبل تلقيه جوابًا على سؤاله الأول؛ لأنه لا أحد في غينيا الجديدة يهتم بمن أين أتيت ومن أي دولة تكون وما يكون ماضيك أو موقفك القضائي أو معتقداتك.

فهم يسألون الآتي إليهم للمرة الأول سؤالين أو ثلاثة من باب الترحيب به، ومن ثم يقدمون له الشراب على الفور قبل انتظار الجواب لأسئلتهم، وبعد أن احتسيت القدح الأول؛ جرت مناقشة حول مسألتين مهمتين في هذه الأنحاء.

فبمجرد أني تجرعت دفعة واحدة قدح الويسكي الذي مده إليّ نادل أسمر للغاية كخشب الأبنوس؛ سألني ثانية رجل بجواري:

- «كم جرعة كينين تتناول في اليوم؟».

فغرت فاهي عن ابتسامة، فالأسئلة التي سؤلت عنها في القطار وفي السفينة وفي رحلة الباخرة الطويلة تلك على وجه الخصوص وحتى مجيئي إلى هنا؛ تراوحت بين مواضيع مثل: «أترى أن الحرب ستندلع في أوربا؟ هل ستنحل منظمة «عصبة

الأمم»[9]؟ أما هنا فأول سؤال يطرح متعلق بالإنسان بالفعل غير الأسئلة التي تلقى على سبيل الترحيب هو: «كم جرعة كينين تتناول في اليوم؟».

أجبت عليه وتدفقت على إثر جوابي هذه مجموعة أسئلة:

- «من أين تشتري الكينين خاصتك؟».
- «أي صنف تفضل؟».
- «وكم تدفع من النقود مقابل الحزمة منه؟».

أخرجت من جيبي حزمة الكينين وأظهرتها لهم، فاجتمع ثلة من الناس حولي على الفور كل يود رؤية ما أعرضه، وأخذ كل منهم يدعي أن الصنف الذي يستخدمه هو الأفضل واستمر الجدال والصخب.

حتى صرخ فجأة واضعًا يده على كتفي؛ عجوز نبيل إحدى أذنيه مقطوعة حتى المنتصف:

- «كل هذا هراء! فسواء أكان الكينين جيدًا أم سيئًا كله واحد، فالمصيبة الحقيقية ليست الملاريا، فكلنا هنا معرضون لتليف الكبد ومحكوم علينا بالموت! هذه الحرارة الشديدة مع هذا الويسكي! أتفهم؟ وهل يحتمل الكبد تجرع الويسكي في مثل هذه الحرارة؟ أصغِ إليّ وابتعد على الفور بأول سفينة راحلة، اهرب من جهنم هذه! وإلا إن بقيت هنا فحاول على الأقل ألا تشرب أبدًا!».

كانت نصيحته صحيحة وفي محلها؛ إلا أنها أتت متأخرة قليلًا؛ لأنني كنت قد تجرعت خمسة أقداح بالفعل وبدأت في القدح السادس عندما ألقى صديق جديد يدعوه رفقاؤه جيم سؤاله عليّ بغتة:

- «أنت ذاهب إلى هناك؛ أليس كذلك؟».

فرددت عليه متحيرًا:

9- عصبة الأمم(League of Nations) : هي أول منظمة أمن دولية هدفت إلى السلام العالمي وتأسست عام 1919 عقب مؤتمر باريس للسلام الذي أنهى الحرب العالمية الأولى، وكانت سلفًا لمنظمة الأمم المتحدة.

- «ماذا تعني بهناك؟».

ضحك قائلًا:

- «لا تُخفِ! فأنت لم تأت إلى غينيا الجديدة؛ جزيرة الذهب لجمع البرتقال بالتأكيد؛ بل أتيت للبحث عن الذهب؛ أليس كذلك؟».

أجبته بعد تردد قصير:

- «نعم؛ جئت للبحث عن الذهب».

أطلق جيم ضحكاته مجددًا وقال واضعًا يده الثقيلة على كتفي:

- «وما السبب الذي قد يأتي بك إلى هنا غير هذا على أي حال، فكل شخص هنا أتى من أجله، أترى ذاك العجوز ذا النصف أذن، حصل منذ برهة على مئتي ألف جنيه بريطاني ذهبي؛ كما أنه –أيضًا- صاحب هذا البار؟! لم يكن قديمًا يبيع الويسكي كما هي الحال الآن؛ لكن خمسين ألف جنيه ذهبي قلبت رأيه في ثلاثة أعوام، وماذا عني؟! انظر إلي! فلا يزال لدي منه حتى الآن!..».

فتح قميصه وظهرت ندبات صدره المحروق من الشمس، كما كان هناك أسفل القميص جراب صغير من جلد الثعبان معلقًا في رقبته بحبل ويحمل بداخله مزيجًا من الذهب مختلطًا بحصى صغيرة للغاية.

كانت الحصى الصغيرة للغاية جزيئات من حجر أسود، لو أن أحدًا أمسكه بيده وتفحصه بدقه حتى؛ لن يلاحظ أبدًا الخطوط الصفراء الدقيقة كعروق الورقة التي تشق أعماقه.

ذهب!.. امتدت إلى جزيئات الحجر هذه؛ سبع أيادٍ ترتجف تحت تأثير كل من الحرارة والكحول والحمى مجتمعة، وانتقلت قطع الأحجار من يدٍ ليد.

وبدأ صاحب الحصى ذي العروق الذهبية يوضح بغرور كبير:

- «تم العثور على هؤلاء في مورِبا؛ أما هاتان القطعتان فمن واريا... ونسبة الذهب فيهما عشرون بالمئة؛ أما في هؤلاء فأربعون في المئة».

عجت المناقشة التي انقطعت منذ قليل عند الكينين هذه المرة بالحديث حول الذهب،

وادعى كل شخص أنه لا أحد سواه يعلم أين توجد أحجار الذهب الأصلي، وبحسب رأيي فإنه لا أحد منهم يعلم أي شيء.

فأنا أعلم منهم جميعًا في هذا الشأن عن طريق المخطط الذي بحوزتي؛ غير أن الذهب ليس هو ما أبحث عنه؛ بل ربما يكون العثور على ما نحن في إثره أنا وعائشة حلمًا أصعب من الذهب.

وضع الرجل قطع الأحجار ذات العروق الذهبية ثانية في جرابه المصنوع من جلد الثعبان ثم قال لي:

- «ألديك علم بمغامرة آرثر دارلينج؟».

- «لا!».

تعجب قائلًا:

- «ياله من أمر غريب! فكيف تكون باحثًا عن الذهب ولا تعرف شيئًا عن مغامرة آرثر دارلينج، لأحكِ لك عنها؛ فانتبه وأنصت! جاء رجل إلى غينيا الجديدة قبل عام من اندلاع الحرب العالمية؛ كان رجلًا نحيفًا نحيلًا ذا وجه طويل رفيع يشبه دون كيشوت((10)).

قام بتشكيل فرقة استكشاف تتكون من اثني عشر حمالًا مسلحًا في الشهر الذي وصل فيه إلى غينيا الجديدة، وأراد الألمان أصحاب الجزيرة في ذلك الوقت إثناء دارلينج عن مغامرته الخطيرة هذه؛ إلا أن دارلينج الباحث عن الذهب؛ دون كيشوت القرن العشرين رد عليهم قائلًا:

- «دعكم من الخطر هذا! وإذا أتينا للذهب؛ فهو على جزيرتكم، وإن كان يوجد ذهب هنا فحتمًا سأعثر عليه».

وفي ربيع عام 1913 وصلت فرقة استكشاف دارلينج إلى ضفاف نهر كورانجا عابرًا مناطق لم يطأها البيض حتى هذه اللحظة بعد، كانت السهام المسمومة تتطاير مثل

10- دون كيشوت أو دون كيخوتي: هو بطل رواية إسبانية للأديب الإسباني ميغيل دي ثيربانتس سابيدرا نشرها على جزأين بين أعوام 1605-1615؛ مولع بالمغامرة.

الطيور البرية فوق مخيم دارلينج الذي كان يتقدم للأمام بمرور الأيام رغم الحرارة الحارقة، كما كانت المعارك تنشب بين القبائل البربرية على قمم الجبال حولهم.

تهالك دارلينج وأصابه المرض والتعب، وكانت تتبعه في كل خطوة ظلال «قناصي رؤوس الناس»؛ غير أنها كانت تتبعه لتعقب بحثه، وفي النهاية وجد أخيرًا ما يبحث عنه ذات يوم في كورانجا جريك، ذهبٌ ذهب... لكنه ذهب كثير... غطا آرثر دارلينج موقده بالتراب أي أصبحت هذه المنطقة تابعة له اعتبارًا من هذه اللحظة، تفحص ما حولك! فصاحب كل هذه الأبواب الذهبية واحد؛ إنه هو! وقد صار مليونيرًا الآن.

لكن دارلينج لم يكن الوحيد الذي شاهد هذا المنظر؛ بل شاهدته معه طلائع القبائل البربرية التي كانت تتعقبه خطوة بخطوة مختبئة بين فروع الأشجار الكثيفة، وراقبت تحركه ثم تحينت الفرصة.

ترك دارلينج موتاه وعدته وخيمه بعد وصوله إلى ضفاف الذهب بيومين في الحقيقة ووجه شطره إلى الجهة المقابلة وفر مع حمالين بقيا سالمين، انغرز سهمان في كتفه، فاضطر رئيس الحمالين لتقطيع عضلاته وتمزيق لحمه بسكين خبز عادي كي يستطيع إخراج السهمين المنغرزين في كتف زعيمه؛ وعلى الرغم من تعقب البرابرة له فقد استطاع دارلينج الوصول إلى معسكر التبشيريين.

أرقدوه في خيمه على سرير نقال، وعندما همَّ بشرح ما مر به لأحد المبشرين؛ أظهر قطعتي ذهب ملطختين بالدماء وقال له:

- «كنت قد قلت لو كان يوجد ذهب فسأعثر عليه، وهأنذا عثرت عليه... ها هو الذهب... سأعود إلى هناك بمجرد أن أشفى، وسأصير غنيًّا من الآن فصاعدًا؛ غنيًّا للغاية..».

بيد أنه لم يستطع العودة إلى هناك مرة أخرى، توفي بعد يومين، وعندما أمسك المبشرون الواقفون عند رأسه بيديه لأجل ضم ذراعيه ووضع الصليب الخشبي على صدره؛ وجدوا قبضتيه مغلقتين بإحكام، ففتحوا قبضتي الميت وعندما رأوا الحجرين ذَوَا العروق الذهبية بداخلهما أغلقوا راحتيه ثانية...

بعثوا دارلينج وفي راحتيه قطعتا الذهب المدماتان إلى الجنة.

توفي دارلينج؛ لكن ما الضير في هذا؟! فقد كان الهدف هو معرفة أيوجد ذهب في كورانجا جريك أم لا، وقد تمت معرفة هذا والتحقق منه عن طريق جزيئات الذهب التي حملوها مع دارلينج إلى قبره.

تم تنظيم فرق استكشافية جديدة؛ لكن هذه الفرق مُنعت من الذهاب بسبب اندلاع الحرب العالمية في أوربا..».

صمت فقلت:

- «هذا مثير للاهتمام بشدة».

ضحك وقال:

- «ما زال هناك المزيد؛ لكننا لا نعلم شيئًا عن ماضيك رغم أنه من الواضح أنك باحث عن الذهب».

فضحكت وقلت:

- «نعم؛ وما الداعي للكذب!».

- «إن كان هذا فلتصغ..».

كان قد أصبح ثملًا للغاية؛ احمرت عيناه واتسعتا، وأكمل حديثه بطريقة تحمل مغزى:

- «بعد ثلاثة سنين من اتفاق الهدنة ظهر رجل غريب في غينيا الجديدة، لم يكن يعرفه أحد في الجزر المجاورة، كان قويًّا مثل هرقل وتداولت الألسن مغامراته الواحدة تلو الأخرى مثل الأساطير.

لم يكن أي أحد يعرف كيف يعيش وماذا يعمل، أحيانًا بحارًا وأحيانًا أخرى تاجر عبيد أو صائد لآلئ أو مزارعًا، لم يتوقف أبدًا عن تغيير مقره وعمله...

لكن الجميع يعلم بدهائه وشجاعته وأنه قادر على كسب المال من الحجر حتى، ولهذا كانوا يطلقون عليه «ذا عين القرش».

علم بعثور دارلينج على الذهب في كارونجا بغينيا الجديدة قبل انتهاء الحرب بعام

والآن أتى إلى هنا بمجرد إعلان الهدنة لأجل السيطرة على منجم الذهب.

سلك طريقه عام 1921 وغاص في الغابة ومعه أربعة أو خمسة حمالين؛ لكنهم لم يكن يمكنهم غير التقدم كيلومترين في اليوم، كان يعمل 16-18 ساعة في اليوم بالبلطة لشق ممر بين الأشجار وأشجار اللبلاب الكثيفة، ولم تثنِه الأشجار ولا الثعابين ولا آكلو لحوم البشر ولا الملاريا عن طريقه، أصيب مرتين برماح البرابرة، فصنع محفة تحمله وتقدم في طريقه، ثم وصل في النهاية إلى منجم الذهب الذي عثر عليه دارلينج ؛ لكن..».

- «مات هو أيضًا؛ أليس كذلك؟».

- «لا؛ أصبح مليونيرًا..».

أدركت أنني لو بقيت هنا قليلًا ستصيبني حمى الذهب أنا أيضًا.

صار الوقت متأخرًا للغاية، فسألته فجأة:

- «ألم يأت إلى هنا من قبل باحثين عن الذهب أتراك أبدًا؟».

أجاب على الفور:

- «أجل؛ أتى ثلاثة أشخاص، وعاد اثنان منهم، هم -أيضًا- قد عثروا على الذهب، وذهبوا من هنا أثرياء للغاية؛ لكنهم لم يقولوا أين عثروا على الذهب..».

قلت:

- «حسنًا؛ لكن هل يمكنك توضيح كيف أتى ثلاثة أشخاص وعاد اثنان؟».

حدق في وجهي ببلاهة وقال:

- «لا يفكر أحد في إيضاح أمور كهذه هنا».

عم البار حالة من السكر والسباب والأهازيج والشجار، فسددت ديني وذهبت خارجًا.

وعندما عدت إلى الفندق وولجت حجرتنا لم تكن عائشة قد نامت بعد، وبدا جسدها الأبيض تحت سنا القمر المنساب من النافذة المفتوحة كأنما هو مغطى بتُلٍّ سماوي، قالت:

- «ما الأخبار؟».

فرددت:

- «لا شيء! سمعت لمغامرتي اثنين أصابتهم حمى الذهب وتجرعت سبعة أقداح ويسكي وعلمت بشأن من أتى ومن مر هنا».

في أراضينا يبعث ضي القمر برودة في الأرجاء، فعندما تُفتح نوافذ الحجرات الحارة في الصيف التي بقيت مغلقة طوال اليوم من الصباح حتى المساء ويشع بها ضوء القمر تبرد كأنما انساب فيها بغتة ماء النبع اللامع.

أما هنا فليس كذلك؛ هنا حتى ضوء القمر حار.

خلعت ثيابي ورقدت بجوار عائشة، كانت يوجد على النوافذ شبكات مغزولة بإحكام رقيقة بقدر لا يمكن رؤيته بالعين لأجل منع البعوض من الولوج للداخل؛ لأن أكبر عدو هنا كما ذكرت آنفًا هو البعوض الذي يطلقون عليه «موستيك».

نكزتني عائشة بينما كنت على وشك الاستغراق في النوم وجلست فجأة فسألتها:

- «ماذا هناك؟».

همست:

- «يخيل إلي أن هناك شخص يحوم أمام غرفتنا!».

أرهفت أذني؛ كل من الفندق نائم، وليس ثمة صوت...

قلت:

- «يهيأ لك هذا، هيا انعسي، سنخرج في طريقنا بعد أربعة أيام!».

عانقتني مثل طفلة صغيرة وانسدل شعرها على ذراعي ثم استغرقت في النوم.

2

الملكة إيما

جلست في صالة الفندق أنتظر عائشة.

يقولون أحيانًا إن العالم صغير جدًّا ويقولون أحيانًا أخرى إنه فسيح للغاية؛ فيا لصحة هذا! أدركت ضخامة العالم أكثر خلال رحلتي الطويلة تلك؛ إلا أن ضآلته تبينت لي في نهايتها.

وكيف لا يكون؛ فقد قابلنا هذا الصباح في الشارع عائلة إنجليزية كانت عائشة ترافقهم بينما كانت في لندن قبل ست سنوات، فرب الأسرة تم تعيينه هنا في وظيفة رسمية.

دعونا أنا وعائشة لطعام الغذاء، لم أذهب أنا وقلت إن عندي عملًا سأراه؛ أما عائشة فذهبت ولم تعد حتى الآن.

انتابني الملل فأجلت النظر في ما حولي، كان هنالك نساء ألمانيات وإنجليزيات جميلات إلى حد ما؛ كلهن بيضاوات وشقراوات، كان هذا البياض وهذه الشقرة تتناقض بشكل عجيب مع حرارة الجنوب.

وثمة ملاحظة أخرى؛ أن السيدات البيضاوات في المدينة وعلى الجزيرة كان عددهن قليلًا جدًّا، بعض منهن كن زوجات أو بنات الموظفين والبعض الآخر هن زوجات وبنات المزارعين.

بيد أن وجود النساء البيضاوات على الجزيرة وفي مدنها استدعى أمرًا هامًّا للغاية.

فقد كنت قد ذهبت أتجول خارج المدينة بعد أن تركت عائشة هذا الصباح، وصادفت فوق الطريق المار من طرف الغابة إلى المدينة؛ عشة ضخمة للغاية مصنوعة من

الحشائش تشبه من ناحية شكلها الخارجي الركام المرتفع في الأماكن المدمرة، ولم يكن يقف أمامها للحراسة سوى زنجي عارٍ عليه لاب-لاب وفي يده بندقية، لم يكن يوضع هنا إلا من يقترف جرمًا من السكان المحليين فقط؛ أما البيض فكان لهم سجن آخر مختلف في المدينة.

أوقفني وأنا أمر من أمام سجن السكان المحليين؛ الصرخات المؤلمة القادمة من الداخل، ولم يكن الحارس موجودًا...

هدأت الصرخات بعد مدة ثم خرج رجل أبيض يتضح من قبعة المستعمر التي يرتديها أنه موظف هنا ومعه زنجي يقطر الدم من السوط الذي بيده.

ذهب الزنجي ذو السوط دون أن يلتفت إليّ، واقترب الرجل الأبيض مني قائلًا:

- «أمعك كبريت؟ فقد نسيت ولاعتي مع الأسف..».

لم يكن معي كبريت لكن كانت معي ولاعة، فأشعلت له الغليون الذي أخرجه من الجيب الخارجي في معطفه الأبيض، وصرنا أصدقاء، فكما ذكرت أن الصداقة هنا تنعقد بسرعة كبيرة.

وبالطبع كان أول سؤال طرحته عليه عن سبب الصرخات التي سمعتها منذ برهة.

فضحك وقال:

- «أنت جديد هنا على الأغلب».

أجبته:

- «نعم!».

فقال:

- «جلدنا زنجيًّا بالداخل عشرين جلدة، وعشرين جلدة بالسوط لا تعد كثيرة؛ لكن الوغد لم يحتمل وفارق الحياة في الجلدة الخامسة عشرة».

انتصب شعر جسدي بينما كان يروي هذا كأنه أمر عادي، ومن ثم استجمعت رباطة جأشي وسألته:

- «وما جرمه؟ أهو قاتل أم من آكلي لحوم البشر؟».

قال:

- «لا! فنحن لا نجلد القتلة، هذا الوغد يطارد النساء فحسب..».

ثم ضحك... لكني لم أضحك.

فأردف:

- «نعم؛ إنه زنجي سيئ يطارد النساء... لتفكر للحظة! كان يعمل خادمًا ببيت تاجر ألماني، وبينما كانت زوجته تستحم اختبأ في حجرة مجاورة وشاهد جسدها الأبيض، أفهمت؟! إنه يستحق العشرين جلدة؛ أليس كذلك؟».

- «حسنًا؛ لكن هل شاهد المرأة فقط ولم يهاجمها؟».

- «لا! شاهدها فقط؛ لو أنه هاجمها لجلد حينئذ خمسين جلدة، ولو بقي على قيد الحياة بعد جلده خمسين جلدة؛ لحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة».

صمت، ولجنا المدينة جنبًا إلى جنب، ويبدو أنه أدرك من عبوس وجهي عدم تقبلي للعقاب بالجلد هذا؛ فرأى أن يخبرني بقناعته في هذا الشأن وقال:

- «نعم؛ أرى أنا الآخر أن عقوبة الجلد هذه غير مناسبة بعض الشيء، لو أنك فكرت في الأمر ستتعجب من عَفوِهم في الأغلب عن «صائدي الجماجم» وآكلي لحوم البشر الذين يقتلون فرقنا في الغابات ومزارعينا البيض؛ مع قتلهم الزنوج الذين يمتلكون جرأة نصب عيونهم المتقدة على سيدة بيضاء؛ إلا أن هذا هو القانون، كما أن العمل كان يجري قديمًا بشكل أسرع، حيث كان الرجل الأبيض الذي يتعرض زنجي لزوجته يسحب سوطه على الفور ويستمر في ضربه حتى الموت؛ وإن تأخر الزنجي عن الموت بالسوط سدد رصاصة إلى رأسه وراقب صعود روحه.

بيد أنه -ولم أنكر- يقع الذنب في وقائع التعرض هذه في أغلب المرات على نسائنا البيضاوات؛ لأنهن بسبب هذه الحرارة القاتلة يتجولن عاريات في بيوتهن عادة أمام خدمهن الزنوج؛ على الرغم من أن خدمهن من السكان المحليين هؤلاء هم فتيان

أقوياء كالثيران وأغلبهم بعمر بين الخامسة عشرة والعشرين.

وأنت تعلم النساء؛ ولا سيما النساء البيضاوات خاصتنا؛ فهن ما إن يدركن إعجاب رجل بهن سواءً أكان من القطب الشمالي أم من غينيا الجديدة؛ حتى يبدأن في إغوائه بغض النظر عن كونه من الزنوج أو من الإسكيمو؛ وخاصة هنا حيث يشعر الجميع بالملل، ولا يرون مانعًا في تمضية الوقت بلعبة «الإعجاب» الساذجة هذه، فما الضير في مقابلة إعجاب الفتيان السمر الذين يطوفون صامتين بابتسامة أو بنظرة جذابة! غير أنه تبعًا لعلم النفس الخاص بالفتيان الزنوج والسيدات البيضاوات فإنهم لا يكتفون باحتياجهم الروحي المتواضع هذا... بل ينتقدون هذه الابتسامات والنظرات ويفسرونها بشكل مختلف!

وفي الغالب تنجو السيدة البيضاء بضربتين في الوجه والعين؛ أما الزنجي فتُفضي روحه تحت جلدات السوط أو في الأشغال الشاقة، وإن ذهب ولو مرة إلى الحبس فلن يرى المرأة البيضاء ولا حتى في أحلامه؛ لأنه علينا الاعتراف بأن الإنسان إن اشتغل أربع عشرة ساعة في اليوم تحت هذه الشمس وقدماه مصفدتان بسلاسل تزن ثلاثين كيلوجرامًا على الأقل؛ لن يتبقى لديه وقت للحلم حتى».

أتذكر هذه الكلمات الآن وأنا أجلس في صالة الفندق أتابع النساء البيضاوات الشقراوات حولي؛ وأذناي ترن بهما صرخات الزنجي الذي يجلد بالسوط...

ظهرت عائشة أخيرًا عند الباب فاستقبلتها بلهفة:

- «أين كنتِ؟ قلقت بشدة عليك».

جلست مقابلي، كان وجهها قد احترق من الشمس فبدت أكثر جمالًا ونضرة...

قالت:

- «تأخرنا في تناولنا الغداء ثم تبادلنا الحديث من هنا وهناك وحكوا لي عن الملكة إيما».

سألت بفضول:

- «الملكة إيما؟ من تكون؟».

- «أجمل وأقوى وأغنى النساء وأكثرهن غموضًا؛ كما أنها هجينة؛ أبوها أمريكي وأمها من السكان المحليين، وكل القبائل البربرية هنا تقدسها».

قلت لها:

- «لا تتضايقي؛ لكن يُهيأ لي أنها مجرد قصة، شيء أشبه بقصص أميرات الأفلام الأمريكية البرابرة».

لم ترد عائشة؛ لكنه بدا أنها تصدق وجود الملكة إيما تلك.

... ...

كنا سننطلق في رحلتنا اليوم.

أنهينا الأوراق اللازمة بالأمس، وكان معنا سبعة عشر حمَّالًا؛ من بينهم عشرة شباب زنوج يحملون أسلحتنا وبلطاتنا ومؤونتنا.

أمضاني الوالي في مقره على ورقة، وكنا بإمضائنا على هذه الورقة نتعهد بالآتي:

1. أن يتم تطعيمنا ضد التيفوئيد.
2. أن نحمل معنا مقدارًا كافيًا من الكينين وصبغة اليود والضمادات.
3. ألا نقيم مخيمنا بالقرب من قرى القبائل المحلية.
4. كوني أنا المسؤول شخصيًّا عن كل الحوادث التي تحل بنا.

بالإضافة إلى عدم تحمل الحكومة البريطانية لأي مسؤولية بشأن هذا.

3

كيف يؤكل لحم الإنسان

سرنا في الغابة لأيام، وحملنا عائشة على نقالة بإصرار مني.

مررنا بالأمس بجوار قرية بربرية صغيرة بائسة، تطلع سكانها لنا دون أن يحركوا ساكنًا، فمن الواضح أن آخرين غيرنا من البيض والباحثين عن الذهب وصائدي طيور الجنة مروا من هنا قبلنا، فتعلم السكان هنا من التجارب التي خاضوها حتى الآن أن عليهم ألا يهجموا على الرجال البيض في وضح النهار، وبينما كنا نمر بمحاذاة قريتهم؛ كانت عيونهم منتصبة على بنادقنا.

بعد أن اجتزنا القرية بقليل؛ لفتت ساحة صغيرة انتباهي، كانت تحيط بها أشجار سميكة بقدر استيعاب أربعة رجال بداخلها، وشامخة حتى تكاد قممها تمس السحاب، وتقبع وسطها وأعلاها وعلى حوافها؛ أكوام من الحجر الضخم ذي اللون الرمادي المكفهر المحترق بالنار، جذبت أكوام الحجر هذه انتباه عائشة فقالت:

- «ما هذا؟».

أجاب رئيس الحمالين الذي معنا بالإنجليزية العجيبة هذه:

- «هذا إيجاجا..».

كنت أنا السائل هذه المرة:

- «ما هو الإيجاجا؟ ماذا يعني؟“.

- «الإيجاجا هو الحجر الذي يأكل عليه آكلو لحوم البشر الناس..».

نظرت في وجه عائشة إثر هذا الإيضاح الذي قدمه لها، فتحدثت عائشة:

- «يعني هذا أن القرية التي تجاوزناها منذ قليل كانت قرية لآكلي لحوم البشر».

- «إنها كذلك! إن شئت فلنعد إليها يا عائشة ونتسامر قليلًا معهم».

أجابتني مازحة:

- «وإن هموا بأكلنا نحن أيضًا؟!».

رددت عليها ضاحكًا:

- «ربما يودون أكلك، لا تبدو لي رغبتهم هذه غير مبررة، فأنت أشبه بطعام بارد في هذه الغابة الحارة شبه المعتمة؛ لكني أعتقد أنهم سيجدونني هرمًا أكثر من اللازم..».

التفت إلى رئيس الحمالين خاصتنا:

- «نريد العودة إلى القرية والتحدث مع آكلي لحوم البشر، فهل تفهم لغتهم؟".

- «أفهمها».

- «كي لا نقع في ورطة».

- «نحن الآن في النهار؛ كما أن البنادق معنا... فلا خوف إذًا».

عدنا فولجنا القرية التي اجتزناها منذ قليل وتوقفنا في الساحة.

صففت الحمالين المسلحين خاصتنا حول عائشة وقلت لرئيسهم: «افتح هذا الصندوق الذي على اليسار!».

أمسكت بندقية بيدي وأخذت بيدي الأخرى سلسة خرز أزرق وقبضتي تبغ، وقلت لرئيس الحمالين:

- «أبلغهم أني أريد التحدث مع زعيم القبيلة الآن».

ترجم كلامي واختلط الحشد الذي بمقابلنا ثم خطا رجل من بينهم خطوتين متجهًا إليّ. كان رجلًا في الخمسين من عمره، ويحمل بلطة حجر ضخمة على كتفه.

تفرست في وجهه، لم أكن سأتعجب لو أنهم قالوا لي إن زعيم القبيلة المحترم هذا

يأكل بنفسه أمه هنيئًا مريئًا، فقد كانت هيئة سيادة الزعيم مرعبة ومخيفة لدرجة توقف الشعر في البدن.

بدأت حديثي مظهرًا للرجل البندقية التي في يدي والهدايا التي بيدي الأخرى فقلت:

- «أتيت إليك طالبًا الصلح يا زعيم، يُحتمل أن تضع أوراق الموز أمام خيمتي وتبصق عليها لأني أعلم أن هذا يعني إعلان الحرب؛ إلا أنه إن أحسنت أنت ومن في القبيلة التصرف سأهديك هاتين اللؤلؤتين الزرقاوين مع التبغ الذي بيدي».

ترجم رئيس الحمالين خاصتنا هذه الكلمات له؛ لكن الزعيم وقف مكانه ولم يتحرك، فمددت إليه يدي لأعطيه الهدايا؛ غير أنه تراجع خطوتين للوراء، ثم أدار رأسه إلى القبيلة خلفه، فهمهم الحشد الذي تلمع أجساده السمراء العارية من خلفه...

والواضح أن هذه الهمهة كانت تعني: «سيكون من الصواب التفاهم مع هذين الأبيضين وقبول هداياهما»؛ حيث مد زعيمهم يده وأخذ الهدايا.

تم حل الجانب الأصعب من العمل.

كنت أنا من بدأ الحديث من جديد فقلت:

- «رأيت أكواخك وخنازيرك ونساءك وأطفالك؛ أيها الزعيم! وكلها رائعة مما يظهر قوتك وكونك زعيمًا مدهشًا! إلا أنني لمحت منذ قليل الإيجاجا، وكما تعلم أن لحم البشر يؤكل فوقها... لن أسألك إن كنت أنت ومن معك تأكلون لحوم البشر، ولا أريد أن أعلم آخر مرة أُكل فيها لحم إنسان في قبيلتك، ما أرجوه منك شيئًا واحدًا كيف يأكل البشر لحم بشر آخرين..».

تطلع مترجمنا في وجهي بحيرة وقال:

- «لكن هؤلاء يأكلون لحم الإنسان كذلك يا مستر، هؤلاء أيضًا من آكلي لحوم البشر».

أمسكت نفسي بصعوبة كي لا أضحك ثم تحدثت:

- «ترجم أنت كلماتي كما هي، فلو قلنا لهم «اشرحوا لنا كيف تأكلون لحم إنسان!»؛ لن يجيبونا وسيظنونا من موظفي الحكومة ويخافون منا».

تعجب المترجم من دهائي ثم ترجم كلماتي وبمجرد أن أنهاها حتى استدار زعيم القبيلة واختلط بالجمع، وبدأوا يتحدثون جميعًا في الوقت نفسه وعلا صياحهم وصرخاتهم، ومن ثم عاد الزعيم لنا ثانية وتحدث بعدة أشياء، فسألت المترجم:

- «ماذا يقول؟».

- «يقول إنه لا يعلم كيف يؤكل الإنسان..».

لم يُجدِ دهاؤنا نفعًا أمام كثرة الرجال الذين يتعقبونهم ويعتدون عليهم من حين لآخر هنا، وكان لا بدَّ من اللجوء إلى حيلة أخرى.

ذهبت إلى عائشة في الحال، كانت تتابع سير الأمور وهي تجلس فوق نقالتها كأنها إلهة حقيقية، انحنيت أمامها بغتة وقلت:

- «لا تعبسي يا عائشة رجاءً! حدثيني فقط في عدة أمور؛ لكن بصوت عالٍ كأنك تأمريني!».

تحيرت عائشة وقالت:

- «بم سأتحدث؟».

قلت:

- «بما يخطر على بالك؛ لكن لا تنسي أن تتحدثي بالتركية كي لا يظنوا أننا من الحمالين المحليين، هيا ابدئي!».

بدأت عائشة تتحدث كأنها أميرة أسيرة من أميرات الزمن القديم مرسلة إلى الموت:

- «أحبك يا خالد جميل؛ أحبك حد الجنون وحتى الموت، فيا ليتنا نعثر على أبي وننجو من جهنم هذه بأسرع وقت! أخاف من هؤلاء الأوغاد يا خالد جميل! أنا أحبك، أحبك، أحبك..».

ذهبت من عندها محاولاً عدم الضحك، فعدت إلى البرابرة الذين تابعوا بحيرة عرضي هذا ولا سيما مع إعجابهم بجمال عائشة الذي لا مثيل له منذ اللحظة التي وقعت فيها عيونهم عليها ثم تحدثت:

- «أيها الزعيم أنا أتحدث معك وأنقل لك الآن كلام شخص أبيض؛ بل أكبر زعيم للبيض، فالزعماء البيض الآخرون يرتجفون رعبًا وهم ينظرون إلى عينيها، وهي أغناهم جميعًا، فلديها مئات الخنازير ومثلها من الخنزيرات، ولو أنك أخبرتها الآن كيف يؤكل الإنسان لمنحتك أقيم ما بخزانتها؛ أما إن كذبت عليها ستستدعي جنودها المترقبين في الغابة فيربطونك أسفل شجرة ويجلدونك عشرة أسواط».

أخرجت مرآة من الصندوق بينما كان المترجم يترجم كلماتي؛ وكان لها تأثير مدهش.

فما إن رأى الزعيم وجهه فيها حتى قفز من مكانه قفزتين في الهواء، ثم أخذت المرآة تتنقل من يدٍ ليد وخالجت أعماق الرجال الذين يرون وجوههم في المرآة مشاعر بين الدهشة والرهبة والهيبة كما انتابهم في الوقت نفسه شعور بالقوة فبدؤوا يتصايحون، ثم انتقلت المرآة إلى النساء أخيرًا، وراقبتهم بدقة؛ ففور أن مرت المرآة إلى يد المرأة الأولى حتى شرعت في تعديل شعرها على الفور، ويا للعجب! فهذا –أيضًا– أول ما تفعله المرأة البيضاء عند تطلعها في المرآة.

ثم مرت المرآة من يد النساء إلى الأطفال، وهؤلاء –أيضًا– أخذوا يخرجون ألسنتهم أمام المرآة ويفتحون عيونهم ويغمضونها ويتمازحون ويسخرون مثل صغار القردة.

اقترب الزعيم الذي مرت المرآة إلى يده في النهاية منا وأخبرنا عن طريق مترجمنا:

- «إن كنتم ستمنحوننا هذا الشيء الأكثر قيمة من عشرات الخنازير؛ سنخبركم نحن أيضًا كيف يؤكل الإنسان، تفضلوا بالسؤال!».

ألقيت سؤالي الأول:

- «أي أناس تأكلون؛ يعني كيف تكون الناس التي تؤكل؟».

وكان الجواب الذي تلقيته:

- «بعضهم من الموتى جراء الأمراض وأسرى الحروب وبعضهم من الشيوخ والنساء الأرامل».

- «وكيف تصنعون طعامًا من لحم إنسان؟».
- «يتم تقطيعه قطعًا مثل الخنزير بالضبط، تنزع أولًا أمعاؤه وشرايينه وأعصابه، ثم ينضج وتتم تسويته فوق الأحجار التي رأيتموها منذ قليل حتى الاحمرار، وبعدها تلف قطع اللحم البشري هذا المشوي في أوراق القلقاس وتوضع فوق هذه الأحجار؛ وتشوى مع تقليبها فوقها على ناحيتيها؛ لكننا لا نفعل هذه الأشياء، تفعلها القبائل المجاورة لنا، وإنما سمعتها منهم؛ غير أن القبائل المقيمة بجوار النهر في الأسفل لا يأكلون لحم الإنسان مشويًّا بل مسلوقًا، فهم يلقون الميت في مرجل كبير ويسلقونه دون أن ينتزعوا منه الأمعاء؛ لكنهم في القبائل المجاورة هنا يقولون إنه من العيب أكل لحم الإنسان هكذا».

كان الواضح مما حكاه الزعيم -الذي لا يزال يخدعني بقوله إنهم لا يأكلون لحم الإنسان وإنما تأكله القبائل المجاورة لهم- أنه لا يرجح السلق مطلقًا...

استفسرت من جديد قائلًا:

- «قل لي يا زعيم! ما هو ألذ موضع في لحم الإنسان تبعًا لجيرانكم آكلي لحوم البشر هؤلاء؟».

انحنى حضرة الزعيم وأشار إلى باطن فخذه قائلًا:

- «ربلة الساق!».
- «ألذ لحم الإنسان هو ربلة الساق إذًا!».

عندما تلقيت هذا الجواب خطر على بالي: «عجبًا! أترى وجود علاقة لهذا الميراث الذي تبقى لآكلي لحوم البشر من أجدادهم القدماء مع ترك النساء البيضاوات لسيقانهن عارية؟ لأن ما أعلمه أن أكل لحوم البشر عادة مألوفة قديمة قدم الدنيا وفقًا للكتب المقدسة ولهومر وهيرودوت وماركو بولو، فأجداد كل البشرية وكل الأعراق والعائلات كانوا يأكلون لحوم بشر في عصور ما قبل التاريخ، وتبعًا لهيرودوت فالقبائل التي كانت تقيم على نهر الطونا في عصور ليست متقدمة كثيرًا كانت تأكل لحم الإنسان؛ أما سانت جيروم فيحكي عن سكان بلد غالة القدماء فيقول «إنهم كانوا من آكلي لحوم البشر وكانوا يأكلون لحم الإنسان»».

ألقيت على الزعيم سؤالًا آخر لئلا أخوض أكثر في هذا الموضوع:

- «أتأكل القبيلة المجاورة لكم لحم الإنسان الأبيض؟».

وما إن ترجم له المترجم سؤالي هذا حتى تجهم وجهه ورد بصورة حاسمة:

- «لا!».

- «لِمَ؟».

- «لأن لحم الإنسان الأبيض تفوح منه رائحة كريهة؛ عفنة للغاية!».

ولم سأكذب؟! فقد أخجلني قول زعيم آكلي لحوم البشر أن لحم الإنسان الأبيض رائحته عفنة، فقد خمنت أنه سيقول لسبب ما إن لحم الإنسان الأبيض ألذ لحم خاصة بعد أن ذاقه.

سألته سؤالًا آخر:

- «وما الفرق بين لحم الإنسان ولحم الخنزير على سبيل المثال؟».

أجابني الزعيم:

- «لحم الإنسان حلو مثل العسل؛ لكنه مسكر ولذيذ للغاية؛ ولهذا يلفونه في أوراق القلقاس، فأوراق القلقاس مرة، فتُذهب بعضًا من الحلاوة التي تفسد طعم اللحم البشري».

لم يعد لدي شيء آخر أسأل عنه فأهديته علبة كبريت ثم غادرنا.

كنت جالسًا مع عائشة أمام خيمتنا مشعلين النار أمامنا في الغابة ليلًا، ثم جاء رئيس الحمالين ومترجمنا إلينا فقال:

- «أود أنا –أيضًا– أن أخبركم ببعض الأمور يا مستر؛ إني أنا الآخر أكلت لحمًا بشريًّا قديمًا قبل أن أنتقل للمدينة، كما أني أكلت كثيرًا؛ كثيرًا للغاية..».

حملقت متعجبًا في آكل اللحم البشري السابق هذا ثم قلت:

- «أخبرنا لنعلم!».

- «ألذ لحم هو لحم الصينيين، وبعده تناول قلب الإنسان فهو الأفضل؛ لأن شجاعة وقوة الإنسان الذي أكلت قلبه تنتقل إليك، بالإضافة إلى الشجاعة والقوة التي لديك فيصبح عندك شجاعتان وقوتان».

ضحكت وسألت عائشة:

- «حسنًا؛ لكن لِم يأكلون لحم الإنسان؟».

أجابها آكل لحوم البشر السابق بسذاجة كبيرة:

- «ولِم لا يأكلونه؟ فلحم الإنسان شهي ولذيذ، ليأكل الإنسان الإنسان الميت بدلًا من أن تأكله التماسيح والطيور والثعابين، هذا أفضل؛ أليس كذلك؟».

لم أستطع أنا ولا عائشة الرد على هذه الكلمات في الواقع، إذ كيف نوضح له قباحة أكل لحم إنسان؟! فعلينا أولًا أن نشرح له أن قتل الإنسان جرم قبل أن نبين له السوء في أكل لحمه، وأي إنسان أبيض يستطيع قول هذا! ألم نقتل نحن البيض في ما بيننا كثيرًا من البرابرة؟

كنا نسير وأمامنا اثنان من الحمالين؛ لكنهما لم يكونا يحملان على ظهريهما صندوقًا ولا شيئًا آخر، كانا يحملان بندقيتيهما فقط ويتقدمان ببطء وجسداهما العاريان مغطيان حتى نصفهما بالحشائش، كانت تصادفنا أحيانًا خشائش بطول نصف متر فنغوص في أعماقها كأنما نغوص في مياه...

والحمالان اللذان يتقدماننا كانا يشقان الأعشاب بكعبي بندقيتيهما فيفرقانها إلى الجانبين، ولم يكونا يفعلان هذا لأجل شق طريق لنا فقط؛ بل لأجل اكتشاف وإرهاب البرابرة المختبئين بين الخشائش إن وجدوا.

لم نستطع حمل عائشة على المِحَفَّة اليوم؛ لأنه لم يكن التقدم بها ممكنًا بين بحر الخشائش هذا، فسارت بجواري وكانت ترتدي سروالًا وقميصًا أبيض مفتوح الصدر بينما كان شعرها اللامع مختبئًا أسفل قبعتها الكبيرة، وكانت تستند إليّ من حين لآخر.

تفقدت حالي، كنت كمهر يبلغ مبلغ الفرس لأول مرة في دولة الغابات والصحاري وآكلي لحوم البشر والمناخ الحار هذه، حيث لم أكن أستطيع النظر إلى صدر عائشة

البارز من ياقة قميصها المفتوح دون أن تتقد عيناي وتنقبض عروقي.

وهي –أيضًا- مثلي كانت تمسك بيدي في الطريق من حين لآخر وتشب في أطراف أصابعها مادة شفتيها إليّ، حتى انتابني الخجل من نظرات الحمالين حولنا الذين بدؤوا يحدقون فينا بدهشة ولا سيما في عائشة.

تابعنا السير حتى خرجنا من بحر الخشائش فوجدنا أنفسنا في ريف؛ ريف خاو فسيح مترامي الأطراف، لم يكن فيه أثر للبرابرة ولا للحيوانات البرية، وكان النسيم يهب باردًا عليلًا فلم تكن الشمس قد أشرقت بعد؛ غير أنها كانت على وشك الشروق وحينئذٍ كانت هذه الأراضي ستتحول إلى جهنم.

ظهرت الجبال مقابلنا وكان خلف هذه الجبال قرية لإحدى القبائل، لم يكن باستطاعتنا اجتيازها وخوض الغابة حيث تهالكنا على الأرض جميعًا؛ وصرت أنا وعائشة على وجه الخصوص كطائرين أصيبا في رأسيهما.

سرنا من جديد...

فذهبنا إلى الجبال، وعبرنا القرية؛ كانت القرية فارغة تمامًا، ووصلنا إلى الغابة أخيرًا، تثاقلت خطواتنا مجددًا، ووصلنا إلى مكان كثيف في أعماق الغابة لا تبدو السماء من داخله بينما كان الظلام يحل.

أمسكنا البلطات وبدأنا بشق ساحة تتسع لإقامة خيمة لنا وإيقاد نار أمامها، وتسلق الحمالون فروع الأشجار وباتوا هناك؛ لكنني عينت ثلاثة حراس حولنا.

اتقدت النيران فجلست أنا وعائشة بقربها، وبدأت تنبعث الأصوات ليلًا من الغابة، ومع أن الظلام كان كثيفًا وحالكًا؛ إلا أن النيران التي أوقدناها أضاءت حلقة ضوء في محيط مترين أو ثلاث حولها.

أسندت عائشة رأسها إلى كتفي ونامت؛ وعلى الرغم من تسرب النوم إلى جفني إلا أنني كنت منهكًا بشدة لدرجة أني لم أكن أستطيع رفع عائشة ولا حملها لداخل الخيمة ولا حتى القيام من مكاني.

غلبني النعاس، كان هناك صراخ حيوان غريب من مكان ما في الغابة يتناهى إلى مسامعي؛ ربما هو بعيد للغاية أو ربما يكون على فرع الشجرة التي فوقي، كان

يصرخ كأنما ينشج أو يجهش في البكاء...

أغمضت عيني، واستسلمت للنوم مع الشعور الرقيق الذي خالجني ورأس عائشة على كتفي وصدرها على صدري...

استيقظت بغتة منتفضًا على إثر هدير صاخب كما يستيقظ البحارة على عاصفة مفاجئة.

دائمًا ما كنت بارد الأعصاب، حتى إن جوكسل قد اندهش كثيرًا من برودي هذا، فلم أواجه طوال عمري رعبًا هائلًا.

بيد أني لم أستطع هذه المرة المحافظة على برودي هذا فما إن فتحت عيني؛ حتى صرخت صرخة هائلة مثل طفل رأى كابوسًا مخيفًا.

كان ظلام الغابة مضاءً بآلاف المشاعل كزيٍّ ملطخ بالدماء، ويحيط بنا أناس عراة حالكو السواد على رؤوسهم طراطير يصرخون ويصيحون ويتقافزون جميعًا في نفس اللحظة مقتربين منا على هيئة دائرة تضيق تدريجيًّا، بعضهم يحمل في يده عصا سميكة مشتعل أعلاها وبعضهم يحمل مِزراقًا وبلطة والبعض الآخر يمسك بيده رأس إنسان مقطوع.

اتضح الأمر؛ فقد تعرضنا لهجوم من صيادي رؤوس البشر الوحشيين أشد آكلي لحوم البشر رعبًا هنا.

ارتجفت عائشة خوفًا ومنحني خوفها هذا الشجاعة فقلت لها:

- «لا تخافي يا عائشة!».

ثم نادينا على الحمالين خاصتنا؛ غير أن أحدًا لم يجبنا، فإما أنهم تركونا وفروا أو أنهم قد قتلوا.

اقترب منا صيادو رؤوس البشر أكثر فأكثر وفي قبضاتهم المشاعل السميكة والمزاريق ورؤوس الناس المذبوحة تهتز في أياديهم...

وقُرعت بلا توقف الصنوج والطبول التي يعلن طنينها خبر الموت لسكان إفريقيا

وأستراليا وكل جزر الجنوب كافة.

ضاقت الحلقة من حولنا، حتى إننا استطعنا رؤية الوجوه جيدًا، وتقدم واحد من بين الجمع نحونا ثم بدأ الصراخ محركًا يديه وذراعيه، ويبدو أنه كان يتحدث بشيء؛ لكن بم كان يتحدث يا ترى؟ فبالنظر إلى نبرة صوته لا يبدو أنه يقول «مرحبًا بكم!» على أي حال...

أنهى حديثه وبمجرد أن أنهاه حتى وثبوا علينا، هممت بالمقاومة لكنها ذهبت هباءً، أخذت عائشة تصرخ، وربطوا ذراعينا نحن الاثنين.

قامت القيامة في الغابة وابتهج الأوغاد كما لو أنهم فقدوا عقولهم.

أخذونا وسطهم، وكانت عائشة شبه فاقدة للوعي.

ثم أخذت الصنوج تقرع بقوة وبرعب أكثر.

وبدؤوا دفعنا للسير والرقص حولنا وهم يدفعوننا ويركلوننا.

كنت أنا وعائشة متجاورين في البداية، فحاولت إسماعها صوتي بين هذا الصخب؛ لكنها غادرت جواري بعد سيرنا قليلًا وفقدتها داخل الحشد.

كان هناك رأس زنجي مذبوح يهتز في يد الوغد السائر أمامي بالضبط؛ رأس يقطر دم من حوافه الممزقة والمقطوعة...

تعلقت عيناي بهذا الرأس المذبوح؛ بينما كنت أجر خطاي شاردًا ومنهكًا.

خرجنا من الغابة، والآن نحن في وادٍ حيث كاد الصباح أن ينبلج.

وصلنا عند سفح الجبل حينما أشرقت الشمس، فتطلعت أمامي؛ كان المتقدمون في الأمام يصعدون إلى الجبل داخل العتمة المنفرجة ثم اختفوا فجأة هناك بعد أن وصلوا إليه.

فصرخت مناديًا:

- «عائشة! عائشة!».

لم يردني جوابًا، وكان كل ما وصلني مقابل ندائي هو جلجلة الصنوج والأناشيد

الحماسية للبربرين.

وصلنا سفح الجبل، وسرت في جسدي رعشة مباغتة ونحن نلج إلى داخل الجبل عبر فوه ضخمة مضاءة بالمشاعل.

وقلت في نفسي «إن هذه ربما تكون مغارة مقدسة لصائدي الجماجم»؛ لكنها ولا شك مغارة كبيرة للغاية كي يتسع داخلها لكل هذه العصابة.

ولجنا المغارة فرفعت رأسي ونظرت إلى السقف، كان معتمًا؛ فلم يظهر، أتت أصوات من أعماق المغارة، فخمدت نشوة من حولي، ثم تقدمنا في ضوء المشاعل الخافت.

لم تكن هذه مغارة بل ممر أسفل الأرض ينحرف يمينًا ويسارًا وصعودًا وانحدارًا، فداخل الجبل كان مجوفًا، لا بدَّ أنه كان بركانًا لأن هؤلاء البرابرة لا يمكنهم حفر هذا الممر الطويل.

كنا نتقدم سائرين وكلما خطونا للأمام كانت الأصوات تزداد خفوتًا ثم أطبق الصمت على صائدي الجماجم.

خطرت عائشة على بالي وطار صوابي عندما تخيلت رأسها الجميل مقطوعًا.

دلفنا إلى ساحة فسيحة، وعجيبة للغاية، كنا هنا أسفل قمة الجبل بالضبط؛ لأن ضوء النهار كان ينساب إلى هنا عبر ذروته، وكأننا أسفل قمع مقلوب؛ نحن موجودون في قاعدته وتتخلل أشعة الضوء لأعماقه عبر ذروته المدببة والضيقة.

تفحصت أطرافي، كان البرابرة يصطفون على حافة جدار الساحة محيطين بنا والمشاعل تتقد في أياديهم.

تنحيت جانبًا مع المجموعة التي تطوقني، وكانت جدران المكان الذي انتقلت إليه مزخرفة بحفائر متنوعة؛ أقنعة شياطين وحشية غريبة ورسومات لتماسيح؛ غير أن إطلاق لفظ رسم عليها ليس صحيحًا تمامًا؛ لأن التماسيح المنحوتة في الحجر كانت كأنها تنظر إلينا.

لمحت فجأة في ضوء مشعل أمامي وجه عائشة الأبيض بشعرها الأحمر اللامع، كانت عيناها مغمضتين وتبدو بخصلات شعرها الذهبية وهي تقف بين الأجساد

السوداء العارية كشمعة تحترق.

ناديتها صارخًا:

- «عائشة!».

ولم تسمع.

فناديتها مرة أخرى:

- «عائشة!».

فتحت عينيها؛ لكنها لم تجب، ومن ثم أغمضت عينيها ثانية وسقط رأسها على كتفها.

نفضت ذراعي محاولًا التملص من أيدي الرجلين الممسكين بهما، فضرب أحدهم رأسي بالجهة الخلفية للبلطة، لم أشعر بالألم؛ لكني لاحظت وشعرت بتدفق الدماء الحارة على وجهي.

لا سبيل للقيام بأي شيء، فليس بيدنا إلا الترقب والانتظار، انتظار الموت...

بدأت الصنوج ترن من جديد على حين غرة وتردد طنينها في هذه الساحة القابعة أسفل الأرض.

بيد أني تنبهت إلى أن الصنوج تقرع هذه المرة بطريقة مختلفة.

انكب البرابرة الذين بجواري وحولي منبطحين على الأرض.

أدرت النظر في ما حولي فلم أجد غيري أنا وعائشة اللذين ما زلنا وقوفًا وسط هذه الساحة الفسيحة، فناديتها ثانية:

- «يا عائشة!».

رفعت عائشة رأسها وتطلعت إليّ، فقلت:

- «اقتربي مني بهدوء!».

أضيء بصيص أمل في أعماقي واعتقدت أننا ربما نستطيع الهروب للخارج دون أن

يلاحظنا الرجال المنبطحين على الأرض.

تحركت عائشة؛ لكنها ما إن خطت خطوة حتى تدحرجت منبطحة على الأرض فهممت بالركض تجاهها بذراعي المربوطتين؛ إلا أنهم أمسكوا بقدمي من الأسفل فخررت أنا الآخر على الأرض.

وهذا يعني أنهم أمسكوا بقدم عائشة من قبلي وأسقطوها، أي أنهم على الرغم من انبطاحهم على الأرض لكنهم يحاصروننا.

قمت واقفًا من موضع سقوطي ثم اعتدلت عائشة هي الأخرى وحدقت بعينيها داخل الضوء الأحمر الخافت البعيد باحثة عني.

بدأ قرع الصنوج بغتة بإيقاع لم نسمعه من قبل، فأخذ البرابرة يتمايلون إلى الجهتين مكان رقادهم منبطحين، ثم سطعت في المقابل على حافة أبعد زاوية في هذه الساحة القابعة تحت الأرض أشعة ضوء أحمر دموي كما لو كان منسابًا من جروح آلاف الناس.

نظرت إليها، وأدركت سبب ضيائها الأحمر، حيث كان هناك ما يقرب من ثلاثين بربريًّا يندفعون وفي أيديهم قصعات ترابية نحو فتحة أخرى للممر الممتد طويلًا القابع تحت الأرض، وتحترق داخل قصعاتهم هذه خشائش متنوعة تشتعل بضوء أحمر قانٍ، كما كان الرجال ذوو القصعات الترابية المشتعلة هذه يضعون أقنعة مخيفة، وكلما اقتربوا من الساحة انتشرت في الأجواء روائح مخدرة نتيجة الخشائش المشتعلة في القصعات...

تقدم أصحاب المشاعل الغريبة هؤلاء حتى الساحة ووقفوا فيها على هيئة نصف دائرة، فبدأ قرع الصنوج حينئذ بإيقاع آخر، ثم ظهر موكب جديد من الفتحة المقابلة لي، وأمكنني داخل الضوء الأحمر الذي يغمر الأجواء تمييز وجوه القادمين وهيئاتهم وأزيائهم، كان يوجد باليد اليسرى لكل منهم رأس بشري ذُبح حديثًا وأحيط فاهه الممزق بأوراق ذهبية؛ وبأيديهم اليمنى أسلحة منحوتة من عظم الإنسان.

كانوا جميعًا عراة إلا من طراطير عجيبة يضعونها تزدان بأجنحة وذيول طيور الجنة وطيور أخرى وريش آلاف الطيور الذي يباع بفرنك في أوربا.

اصطف هؤلاء –أيضًا– على هيئة نصف دائرة مشكلة من مشاعلهم وهم يتمايلون إلى الجانبين بخطوات منتظمة متبعين إيقاع الصنوج.

نظرت إليهم وتابعتهم بفضول وحيرة دون أن يخطر على بالي أنهم ربما يقطعون رأسي بعد نصف ساعة ولا أستطيع رؤية عائشة ولا العالم المضاء بضوء الشمس القابع وراء تلك المغارة مرة أخرى، أضيء الممر في ظل جلبة الصنوج التي تقرع بجنون؛ بضوء ذكرني بضوء القمر، وظهر ما يقرب من ثلاثين امرأة وبأيديهن قصعات حجرية يبزغ منها ضوء أزرق اللون؛ غير أنهن لم يكن زنجيات، بل كن أشبه بالشقراوات؛ يمتلكن أجسادًا سمينة وفاتنة بشكل لا يصدق وذوات قامة متوسطة، لهن وجوه دائرية وعيون خرزاء مسحوبة، كن أشبه بنساء الهند والصين والسياميين، وقد حول امتزاج الضوء الأزرق المشتعل في القصعات الحجرية اللاتي يمسكن بها بلون أجسادهن الأصفر كلًّا منهن إلى امرأة خضراء ساحرة.

تقدمن وعبرن الفتحة الأخيرة ثم سكتن تمامًا ما إن وصلن إلى الساحة، كنت لا أزال أشاهدهن؛ غير أني لم أعد أخاف، بل انتابني الضحك حتى؛ ضحك أشبه بالذي ينتاب الإنسان أمام فيلم أمريكي مليء بالمغامرات في إفريقيا المرعبة.

لم تستمر الرغبة في الضحك لمدة طويلة؛ حيث ظهر من الفتحة شبح امرأة تكتسي بالبياض ووجهها محجوب بتل نصفه أزرق ونصفه أحمر، لم تكن طويلة للغاية، وكان بقدميها العاريتين صندلان مشغولان بالذهب مصنوعان في أوربا ولا شك، ويبدو من شعرها الكستنائي الكثيف للغاية المنسدل على كتفيها وكل ملامحها وجسدها بكل استداراته البادية من أسفل الرداء الحريرية البيضاء العجيبة التي ترتديها على جلدها العاري؛ إنها امرأة صارمة.

كان يتقدم على طرفي هذه المرأة الخيالية أربعة صينيين يحملون مهفات مصنوعة من ريش طيور الجنة، وكانوا مغطين من الأعلى والأمام والخلف بقفاطين حمراء مطرزة.

تحدثوا عشر دقائق واستدرت أنا ناحية عائشة محاولًا السيطرة على أعصابي؛ كانت لا تزال واقفة؛ لكنها تبدو غائبة عن الوعي لا تدري ما يحدث حولها.

انتهى حديث المرأة فقرعت الصنوج مرة أخرى وهب البرابرة المنبطحون على

الأرض وقوفًا وبدؤوا الصراخ بصوت عالٍ مدبدبين بأقدامهم على الأرض.

استمرت هذه الرقصة لنصف ساعة، ثم رفعت هذه المرأة يدها، فتوقف الرقص، شاهدتها؛ كانت تسير بخطى وئيدة نحو عائشة فاجتاحني الهلع وكاد قلبي أن ينخلع من مكانه.

اقتربت المرأة من عائشة ووضعت يدها على كتفها، فرفعت عائشة رأسها وما إن بصرت أمامها حتى تدحرجت على الأرض صارخة بجنون.

انتفضت مكاني وأردت الركض لنجدة عائشة؛ غير أنهم كانهم يقبضون عليّ بقوة لم...

رفعوا عائشة فاقدة الوعي من محلها بإشارة من المرأة ولمحت شعرها ذا الضي الأحمر المنسدل على الأذرع السوداء.

صرخت؛ لكن صرخاتي كانت بالتركية، فالإنسان في مواجهة الخطر لا يمكنه الصراخ إلا بلغته الأم.

التفتت المرأة إليّ بينما يحملون عائشة عبر الفتحة بعيدًا، فقدت عائشة.

اقتربت مني المرأة ذات الرداء الأبيض ولاحظت أنها كلما اقتربت كان البرابرة الملتفون حولها يرتجفون بشدة ويتدحرجون على الأرض كالعجلات.

ثم توقفت المرأة على بعد خطوة بيننا، كان هناك ثقبان وسط التل الأزرق والأحمر الذي يحجب وجهها، وكانت تنظر إليّ عبر هذين الثقبين بعينيها السوداوين الواسعتين البراقتين رائعتي الجمال، ثم بدأت الحديث بإنجليزية عجيبة:

- «أنتما لستما من الإنجليز ولا من الألمان فقد رنت الصرخات التي أطلقتها منذ قليل في أذني، ولم تكن تشبه الإنجليزية ولا الألمانية».

انتابني الأمل إثر حديث المرأة التي أمامي بلغة أوربا فأجبتها:

- «لا! لست إنجليزيًّا ولا ألمانيًّا؛ أنا تركي».

قالت:

- «أأنت تركي؟ أأنت تركي؟».

فأعدت ثانية:

- «نعم!».

قالت:

- «إن كان هذا فلا بدَّ أنكما أتيتما من غويان؟!».

أدهشني ما قالته كثيرًا حتى إنني لم أستطع إجابتها على الفور.

لِم قالت لي «إن كان هذا فلا بدّ أنكما أتيتما من غويان؟!» عندما أخبرتها أني تركي؛ يعني هذا أنها قد تعرفت على عدة أتراك قدموا من غويان... يعني هذا...

قلت:

- «لا؛ لم آت من غويان؛ لكن هل تعرفين أحدًا من الأتراك القادمين من غويان؟».

لم تجبني ، فأعدت سؤالي:

- «أتعرفين الأتراك القادمين من غويان؟ فنحن نبحث عن أحدهم، هو رجل عجوز تركه أصدقاؤه هنا على هذه الجزيرة، واسمه مختار. أتعرفينه؟!».

لم ترد ثانية، وكنت على وشك أن أفقد عقلي، واجتاحتني رغبة عارمة في القفز عليها وتمزيق الساتر الأحمر والأزرق الذي يحجب وجهها، صرخت مرة أخرى:

- «أجيبيني!». ثم قفزت عليها...

شعرت بألم رهيب في رأسي حينما استيقظت؛ وضعت يدي على رأسي فلمست يدي لفافة؛ كان رأسي مربوطًا.

أخذت أتذكر شيئًا فشيئًا...

فبمجرد أن وثبت على المرأة؛ صك صخب رهيب مسامعي ثم تهاويت على الأرض بغتة إثر ضربة ببلطة حجرية على رأسي.

ثم؟

ثم فقدت الوعي بلا شك، وهأنذا أستيقظ هنا...

وأين أنا هنا؟

اعتدلت فوق الأريكة التي كنت أرقد عليها ممددًا، وعندما فتحت عيني وجدتني على أريكة مغطاة بفرو نمر، فأجلت النظر في ما حولي.

كنت داخل عشة واسعة مصنوعة من فروع الأشجار والبوص وأوراق الشجر السميكة والكبيرة للغاية، وكان الضوء يمر إليها عبر الباب المفتوح وليس هناك شيء آخر سوى الأريكة التي أجلس عليها.

حولت نظري إلى السقف، وأمسكت نفسي بصعوبة عن الصراخ، حيث كان معلقًا به مجموعة رؤوس زنوج مقطوعة حديثًا.

هبطت من على الأريكة وسرت متجهًا نحو الباب؛ لكنني ما لبثت أن تراجعت للخلف، فأمام الباب كان يقف اثنان للحراسة مديرين ظهريهما للباب، ولو أنهم لاحظوا استيقاظي فربما يهجمون عليّ على الفور، كما أنني لا أزال أحتاج المزيد من الوقت للتفكير؛ لذا من الأفضل أن أتمدد على الأريكة ثانية وأرقد كأنني ما زلت فاقدًا للوعي...

تمددت على ظهري ثانية فوق الفراش، وأغلقت عيني كي لا أرى الزينة الدامية المتدلاة من السقف، ثم حاولت التفكير، وكان أول ما خطر على بالي عائشة... فاكتوت أعماقي وكدت أن أبكي! أين عائشة؟ وكيف هي؟ إلى أين حملوها؟ وإلى أين نقلوني بعد ذلك الصخب الرهيب؟ وأين أنا الآن؟

وماذا سيحدث لو عرفت الإجابة على كل هذا؟ فمن تكون هذه المرأة؟

صدرت جلبة عند باب العشة ثم شعرت بولوج أحد إلى الداخل، واقترابه مني، ومن ثم أُغلق الباب، فرجت عيني قليلًا ونظرت من بين جفوني، باتت العشة الآن شبه معتمة إلا من الضوء المنساب من جدرانها المصنوعة من الفروع والخوص.

رأيت من فرجتي عيني المقترب مني وانحناءه فوقي.

كانت تلك المرأة...

كان على وجهها نفس البيشة الحمراء الزرقاء وترتدي الرداء الأبيض ذاته، وتنظر إليّ عبر ثقبي البيشة.

أغمضت عيني...

وإذ بها تمسك بكتفي وتحتضني قائلة:

- «استيقظ ولا تخف! فأنت بأمان».

فتحت عيني واعتدلت جالسًا؛ كانت تجلس على طرف الأريكة فسألتها:

- «أين عائشة؟».

- «أتقول عائشة؟ من تكون هي؟».

- «السيدة الشابة التي أسرتموها معي».

- «اسمها عائشة؟ أهي تركية أيضًا؟».

- «نعم».

اتقدت عيناها السوداوان الجميلتان المخيفتان وسألتني:

- «أهي زوجتك؟».

- «تعتبر زوجتي».

اعتدلت واقفة فصرخت:

- «إلى أين تذهبين؟ أقول لك؛ أين عائشة؟ أقتلتموها؟».

أجابتني ببطء:

- «لست ذاهبة لأي مكان، أما عن عائشة فلا تزال حية لم تمت».

- «إن كان الأمر هكذا فلم لا تخلوا سبيلنا؟ اتركونا لنذهب من هنا».

لم ترد، وكنت أعلم بالتجربة أنه لا فائدة من الإلحاح عليها إن لم ترد، وعلى ما يبدو فإننا لسنا الآن في وضع خطير ما دام أن عائشة لا تزال حية، وما دام أمكنني تبادل

الحديث؛ رغم غرابته مع تلك المرأة الواقفة أمامي التي شاهدت بنفسي نفوذها غير المحدود على البرابرة، لذا فكل ما علينا هو البحث عن أفضل وسيلة للنجاة من هنا.

جال بخاطري كل هذا قبل أن أقول للمرأة الواقفة أمامي بصوت مفعم بالاحترام:

- «أنا لا أعلم من أنتِ؛ لكني أظن أنك لن تؤذينا على أي حال؛ لأننا لم نقم بأذية أي أحد، فنحن لم نأتِ من بلدنا إلى هنا للبحث عن الذهب ولا لاصطياد طيور الجنة؛ بل أتينا للبحث عن إنسان مفقود في هذه الأنحاء».

قالت:

- «أعرف».

قلت:

- «أتعرفينه؟ تعرفين مختار؛ أليس كذلك؟ أهو حي؟ وسليم؟».

سألت بدلًا من أن تجيب:

- «مختار يكون والد عائشة؛ أليس كذلك؟».

- «بلى؛ لكن..».

رفعت يدها فسكت.

اقتربت مني ببطء وجلست بجواري ثانية؛ لكنها هذه المرة كانت قريبة مني لدرجة جعلتني أشعر بحرارة جسدها العاري أسفل ردائها الحريري.

خلعت الحجر الأحمر الذي بأصبعها، فتأملته؛ كان يغطيه غلاف ذهبي رقيق للغاية، ألا توجد تلك الخواتم التي تحمل السم التي نقرأ عنها في الروايات؛ كان هذا الخاتم ذو الحجر الأحمر يشبهها.

فتحت المرأة خاتمها وأخرجت منه شيئًا أسود مستديرًا صغيرًا للغاية ومن ثم مدته إليّ قائلة:

- «ابتلع هذه فورًا!».

تناولته وقلبته بين يدي فقالت لي:

- «لا تخف! فهذا ليس سمًّا، أنت متعب ورأسك مجروح كما أنك فقدت دمًا، وستمنحك هذه الحبة القوة والصحة والراحة».

قذفت الحبة في فمي؛ كانت لها رائحة عجيبة وطعم شديد المرارة. قالت:

- «ارقد الآن هنا!».

رقدت فنهضت من جواري ثانية، فقلت لها:

- «أأنتِ ذاهبة؟».

ردت:

- «لا!».

وقفت في مواجهتي، ولفنا الصمت، لم أكن أرى غير عينيها، دار رأسي وشعرت بدوخة شديدة كما لو كنت ثملًا...

تسارعت ضربات قلبي ومن ثم شعرت بالدفء يسري في أوصالي كأنما أرقد تحت الشمس. كانت محقة؛ فلم أشعر قبلًا بأنني قوي مثل الآن.

نظرت إليها فرأيتها تبتعد عني ببطء متراجعة نحو زاوية العشة، وقعت أشعة الضوء المنساب عبر الجدران على ردائها الأبيض الرقيق فبدت ساقاها أسفل القماش مثل عمودين.

رفعت يدها وقالت:

- «أنا الملكة إيما!».

ثم صمتت.

الملكة إيما! المرأة الغامضة التي حدثتني عنها عائشة؛ أغنى وأقوى وأجمل امرأة في غينيا الجديدة... ملكة البرابرة الهجينة!

تطلعت إليها... وهي تزيل بيدها المرفوعة البيشة الحمراء الزرقاء التي تحجب

وجهها وألقتها على الأرض، ثم وقعت حزمة من الضوء المنساب من الجدار على وجهها.

لم أرَ في حياتي وجه امرأة بهذا الجمال والغموض والجاذبية الساحرة.

فوجه هذه المرأة المولودة من أمريكي وامرأة من السكان المحليين كان يحمل مزيجًا بين ملامح الأمريكيين وسكان غينيا الجديدة، حيث كان لها عينان سوداوان مسحوبتان لأعلى، وشعر كستنائي كثيف، وحاجبان رقيقان كحاجبي الشيطان، وفم كبير ذو شفتين حمراوين غليظتين، وأسنان ناصعة البياض، وبشرة سمراء؛ لكنها سمرة تميل للحمرة. كانت آية في الجمال أبدعها امتزاج الدم الزنجي بالدم الجرماني.

وكانت واثقة من انبهاري بجمالها قبل نظري إليها حتى فسألتني:

- «أأنا جميلة؟».

أجبتها:

- «نعم».

فضحكت:

- «أجمل من عائشة؛ أليس كذلك؟».

لم أرد فضحكت مجددًا ثم قالت:

- «سأثبت لك أني أجمل منها».

تدفقت الدماء الحارة في شراييني، واجتاحني شعور وحشي، من تأثير الحبة المرة ذات الرائحة العجيبة التي ابتلعتها منذ قليل ولا شك...

فوقفت محدقًا في المرأة الواقفة أمامي ببلاهة كأنما فقدت إرادتي ومحيت ذاكرتي.

قامت إيما بحركة مباغتة لم أكن أتوقعها أبدًا؛ فأرجعت يدها اليمنى خلف ظهرها ولا بدَّ أنها حلت زرًّا هناك أو ما شابه ليسقط رداؤها على صندليها المزخرفين بالذهب وتصبح أمامي عارية...

أغلقت عيني؛ لأني شعرت بشراييني المتقدة تكاد تنفجر في مواجهة جمالها الرائع

هذا الذي انكشف فجأة.

- «افتح عينيك!».

عكس صوتها الآمر هذا بعضًا من جمالها.

فتحت عيني فاقتربت مني ببطء وقالت:

- «ما هذا؟ أأنت خائف؟ لا تخف! أو يمكن أن يُخاف مني قط؟ قد يفقدون حياتهم أو عقولهم لأجلي؛ لكنني غير مخيفة..».

كانت تقترب مني وكلما اقتربت كلما شعرت بتحولي لحيوان ذي رائحة رطوبة مخدرة. اختلجت أنفاسي وصرت بعدئذ مجرد حيوان؛ حيوان كأي حيوان وحشي نما وترعرع في الغابات الجنوبية الحارة.

اقتربت مني بقدر أني لو مددت يدي للمستها وقالت:

- «أغمض عينيك!».

فأغمضتها...

وعندما فتحتها وجدت نفسي عبدًا مقيدًا لها.

كان أول ما خطر على بالي عائشة؛ عائشة التي ما زلت أحبها بجنون، وخيّل إليّ أني أرى وجهها وعينيها الزرقاوين كالبحر وشعرها الأحمر اللامع من وراء ساتر ضبابي؛ لكن هذا الخيال لم يستمر طويلًا وما لبث أن اختفى.

فأنا لم أعد أستحق حتى رؤية وجهها، سألتني إيما الراقدة إلى جواري:

- «بم تفكر؟».

قلت:

- «لا شيء!».

فضحكت قائلة:

- «تفكر بعائشة؛ لا تفكر! لا تشعر بعذاب الضمير مثل رجل أبيض مبتدئ، فأنت هنا في هذه الغابات الموحشة تسري عليك قوانين الحيوانات المفترسة وآكلي لحوم البشر وصائدي الجماجم، وهذه القوانين لا تمنع أن يكون للرجل امرأتان وثلاث وخمس وحتى عشر؛ بل على العكس فالرجال الذين ليس لديهم أربع أو خمس نساء لا يعتبرون رجالًا، وبقدر ما كانت عائشة زوجتك؛ أصير أنا الأخرى زوجتك كما بإمكانك أن تتزوج من أي امرأة أو فتاة تختارها من أسيراتي».

لم أرد عليها ولم أعرف ماذا أقول!

قامت من جواري فأخذت رداءها الحريري الأبيض من الزاوية وارتدته ثم أتت إليّ مرة ثانية فقالت:

- «سأتحدث مع العرافين، وأخبرهم أنك صديق، وأقيم مراسم احتفال على شرفك هذه الليلة وستظل هنا باعتبارك زوجي، أما الآن فسأرسل إليك زوجتك الأخرى عائشة، وسيخرجونك من العشة الليلة وبعدها تصبح حرًّا بجواري..».

أردت الصراخ فيها:

- «لا ترسلي عائشة! لا أريدها، دعيها لتذهب!». إلا أن صوتي لم يخرج.

فتحت باب العشة واختفت خارجه...

لا أستطيع تذكر كم مضى من الوقت ولا ما مر بذهني خلاله...

فُتح باب العشة ثانية ورأيت عائشة على عتبته.

كان الضوء يشع من وراء عائشة فبدت داخل هالته واحدة من القديسات المسيحيات.

لمحتني بعد أن اعتادت عيناها على عتمة العشة فهرولت نحوي، وأغلق باب الحجرة من الخارج. طوقت عائشة عنقي بذراعيها وقالت:

- «يمكنني الآن الموت براحة ما دمت استطعت رؤيتك مرة أخرى، ليقتلوني بعد ذلك إن أرادوا..».

داعبت شعرها الذهبي ذا البريق الأحمر، ولم سأكذب؛ فلم يخالجني شعور بتأنيب الضمير بينما انسابت شعراتها المضيئة كأشعة الشمس الحمراء بين أصابعي كالماء؛

بل شعور بالمتعة فقط، فانقبضت شراييني ثانية وبت كحيوان وحشي مرة أخرى، وأدركت عندئذ أني –أيضًا– تسري عليّ قوانين زعماء الغابات الموحشة.

عانقت عائشة فقد أصبحت لي...

تحدثنا مثل مسافرين نجوا من العاصفة فقالت عائشة:

- «لنهرب من هنا يا خالد جميل! لنبحث عن وسيلة للفرار والعودة إلى إسطنبول».

انتابني شعور غريب وأنا أجيبها:

- «حسنًا يا عائشة؛ لكن والدك».

تحيرت عائشة قليلًا ثم قالت بصوت حاسم:

- «لا فائدة من البحث عن أبي، أدرك الآن أننا ضحينا بأنفسنا لأجل السعي وراء سراب، وهل يمكن أن يدعوه هنا سليمًا؟ مجرد التفكير بأن والدي ظل حيًّا بين آكلي لحوم البشر وصائدي الجماجم ضرب من الجنون».

انجلى الشعور الذي انتابني بوضوح أكثر؛ لم أكن أود الذهاب من هنا، فالملكة إيما وعائشة والأخريات ربطوني بهنا فجأة، أن أصير الرجل الوحيد لكل هؤلاء النساء...

قلت:

- «يا عائشة! الملكة إيما..».

فصرخت:

- «أهي الملكة إيما؟».

- «نعم؛ إن هذه المرأة هي الملكة إيما، تداولت معها الحديث وأظن أن أبيك لم يمت وأنه هنا في مكان ما».

- «أهي من قالت لك ذلك؟».

- «لم تقل هذا بوضوح؛ لكني أدركت هذا من بعض كلامها وأسئلتها، والآن فكري؛ كيف يمكننا الذهاب رغم تعزز شكوكنا في تركهم أباك هنا وأنه ما زال على

قيد الحياة».

لم ترد عائشة ولفنا الصمت.

ثم كانت هي من شرع في الحديث من جديد:

- «حسنًا وهل سيتركوننا أحرارًا هنا؟! ألا ترى أننا بين صائدي الجماجم، فماذا لو أعجبتهم رؤوسنا..».

- «لا تخافي يا عائشة! فقد تحدثت مع إيما حول هذا أيضًا، فقالت: لن يمسكم أحد بضرر، امكثوا هنا قليلًا إذ يستحيل عليكم الذهاب الآن، وبعد ذلك فربما أرسل معكم من هنا مرافقين لكم في البحث..».

كذبت عليها، كانت هذه المرة الأولى التي أكذب فيها على عائشة؛ لكني مع هذا لم أخجل ولم أحزن لأجل هذا...

وصدقت عائشة وسألتني:

- «إلى أين أحضروك؟».

- «لا أعلم! أصابني الرعب عندما اقتربت مني بغتة المرأة التي يطلقون عليها الملكة إيما في الساحة التي بقاع الجبل ففقدت وعيي ثم فتحت عيني في عشة مزخرفة بشدة، ولا أعرف كم مضى من الوقت هناك إلى أن أحضروني إلى هنا».

سألتها:

- «وكيف هو الخارج؟ فأنا لم أخرج بعد؟».

فردت على سؤالي بسؤال:

- «إن كان هذا فكيف أتيت إلى هنا؟».

حكيت لها ما جرى دون ذكر القسم الأخير...

بدأ الظلام يعم العشة بينما كان الظلام يهبط بالخارج، وكان هناك صخب يصدر من بعيد، أسندت عائشة رأسها إلى ركبتي ونامت من التعب؛ أما أنا فبقيت أفكر، ما زالت شراييني تتقد نارًا وما زلت أشعر بصبابتي المخيفة الزائدة عن الحد جراء الحبة

السوداء المرة ذات الرائحة العجيبة التي أعطتها لي إيما...

فُتح باب العشة التي باتت حالكة السواد، وكان يقف أمامه البرابرة المقنعون، نكزت عائشة، فنهضت منتفضة وخرجنا معًا إلى الخارج.

كنا هنا في ساحة قرية البرابرة التي تشتعل المشاعل على أبواب عششها.

أوصلنا مرشدونا السائرون على طرفينا إلى طرف الساحة عند فوهة هوة حيث توجد شجرة جافة معلق على فروعها الجافة جماجم الموتى، ثم نزل أحدهم بمشعله في البئر وكنا سنتبع إثره مع من معنا، كانت المسألة واضحة؛ ففوهة الهوة هذه كانت موضع الهبوط من القرية إلى القبو الذي ذهبوا بنا إليه عندما أمسكوا بنا مساء البارحة، إذًا فالقرية تقع فوق الجبل.

هبطنا للأسفل على سلالم بدائية للغاية، واستمر هبوطنا طويلًا، ثم وصلنا في النهاية إلى ممر فسرنا حتى وصلنا إلى الباحة القابعة تحت الأرض، كانت مضاءة باللون الأحمر والأزرق من جديد ومزدحمة فقد كان كل سكان القبيلة هنا، كما كانت الملكة إيما كاشفة وجهها وعندما رأتنا أشارت إليهم أن يحضرونا بجوارها.

كان كل شيء مجهزًا لبدء المراسم فور حضورنا فقرعوا الصنوج ثم تقدمت إيما إلى الوسط ودعتنا إلى جوارها فتقدمنا نحن أيضًا.

قالت: اجثوا على ركبكم!

فجثونا وبدأ أهل القبيلة كلهم يلتفون حولنا بالتناسق مع إيقاع جديد للصنوج ويمسحون على رؤوسنا بأيديهم الواحد تلو الآخر، وكانوا بهذا يعلنون قبولهم لنا كأخوة في الدم.

بعد انتهاء مراسم القبول هذه تراجعنا للخلف ثانية مع الأميرة إيما، ومن ثم اندفع بربريان عاريان صارخين وصائحين إلى المكان الذي كنا نقف فيه منذ برهة، فقلت لإيما:

- «ماذا يحدث؟».

أجابت:

- «ستُقطع رؤوسكم».

سألتها عائشة برعب:

- «أستُقطع رؤوسنا؟».

فردت:

- «ستُقطع رؤوسكم؛ لكنها ليست رؤوسكم أنتم، فبعد أن صرتم إخوتنا في الدم؛ أُسر عدوان لروحيكما التي امتزجت بأرواحنا، وسيتم قطع رأسي من يحملان العداوة لروحيكما!».

لم نفهم شيئًا من هذا الشرح العجيب؛ إلا أن قطع رأسي الأسيرين اللذين جيء بهما إلى وسط الساحة مثل خروفي الأضحية كان مشهدًا رهيبًا لم تستطع معه عائشة منع نفسها من الصراخ كما لم يمكنني ألا أغلق عيني.

بيد أن الجانب المفجع لي ولعائشة في الأمر وقع عندما مدوا إلينا الرأسين المذبوحين ذوي الأعين الجاحظة من الرعب، وتتدفق الدماء من حلقيها الممزقين.

قالت إيما:

- «اقبلا الهدايا دون تردد؛ فإن لم تقبلاها لن أستطيع أنا حتى إنقاذكم».

قبلناها فأخذت أنا أحد الرأسين المذبوحين الداميين وأخذت عائشة الآخر، شحب وجه عائشة بشدة وكانت على وشك الانهيار؛ أما أنا فتماسكت بصعوبة.

بدأ الرقص على إيقاع آخر للصنوج؛ كان إيقاعًا صاخبًا جنونيًّا، ثم انتهى الرقص في النهاية وصمتت الصنوج.

جلبوا صندوقًا خشبيًّا صلبًا طويلًا محفور أعلاه بنقش تمساح إلى إيما، ففتحت غطاءه متمتمة بعدة أشياء كما لو كانت راهبة تؤدي مناسك دينية وأخرجت من داخله سيفًا؛ كان هذا واحدًا من السيوف التي كان يستخدمها الجنود في الجيوش الأوربية القديمة.

راقبتها بفضول لأرى ماذا ستفعل.

رفعت السيف وشرع البرابرة في الصراخ، فابتلعته في جوفها حتى مقبضه.

دهشت أنا وعائشة من فعلتها هذه، وانتابني الضحك حتى، فقد كان وقع تأثير هذه الخدعة التي يقوم بها أي بهلوان مبتدئ في أي دولة متمدنة؛ مدهشًا على البرابرة.

أدركت الأمر؛ فإيما وإن بدت أقل السحرة مهارة هنا إلا أنها أظهرت براعة مثلهم وصارت بهذا ذات سيطرة غير محدودة على هؤلاء، ومن المحتمل أنها تعلمت هذه المهارة من والدها الأمريكي.

اختتمت المراسم بهذه الحركة البهلوانية التي شاهدناها والرأسان في يدينا، ومن ثم تقدم بتجاهي زعماء أربع قبائل وإلى جوارهم أربع نساء؛ كن أربع مخلوقات نادرة يختلفن عن بعضهن بدرجة السمار وتناسق القوام لكن الرعب البادي على وجوههن كان واحدًا.

ضرب الزعيم الواقف أقصى اليمين كتف المرأة التي بجانبه بقبضته، فتهاوت المرأة أسفل قدمي وفعل الآخرون نفس الشيء بالنساء الواقفات بجوارهم، ثم تكلم كل منهم حديثًا مطولًا؛ ذهبوا بعده تاركينهن جاثيات على الأرض أسفل قدمي.

قالت إيما:

- «ارفع النساء من على الأرض واجعلهن خلفك!».

فرفعتهن وأمسكت بأيديهن ثم جعلتهن خلفي، فانطلقت صرخات الفرح وقالت إيما:

- «تهانيّ فقد أهداك زعماء أكبر أربع قبائل أجمل زوجاتهن، وأنت كذلك قبلتهن، فأنت الآن بزوجاتك الست صرت أغنى زعيم؛ لأن واحدة من زوجاتك -لا تنسَ- هي أنا؛ الملكة إيما كبيرة عشرات السحرة..».

سمعت عائشة كلام إيما فحدقت في وجهي بدهشة وأشرت لها إشارة أن «لا تهتمي»، وهكذا انتهت المراسم.

***

أود أن أحكي هنا باختصار عن حياة الملكة إيما أقوى زوجاتي قبل أن أكمل رواية

ذكريات الزعيم –أنا خالد جميل– ذي الزوجات الست.

الملكة إيما هي ابنة مغامر أمريكي وامرأة ميلانيزية من أهل البلد، تزوجت قبل أن تأتي إلى غينيا الجديدة وتصبح كبيرة سحرة صائدي الجماجم هنا بأوربي واستقرت في أوربا؛ غير أن هذه المرأة التي كانت تؤمن بأنها ولدت لتخوض المغامرات الخطيرة وتقود الحشود لم تستطع العيش كربة منزل بسيطة.

وهبت العاصفة الأولى التي عصفت بحياتها حين اجتمعت بضابطين أبيضين؛ وقع كلاهما في عشقها فقالت لهما ذات يوم:

- «سأصير لمن يذهب إلى غينيا الجديدة منكم و يعثر لي على منجم الذهب».

استقال كلا الضابطين من عملهما وانطلقا عبر طرق متباينة للبحث عن الذهب، ثم عاد أحدهما بعد ستة أشهر؛ لكنه كان معلولاً وجريحًا وكان يوجد بيده أحجار صغيرة ذات عروق ذهبية أتى بها من منجم الذهب الذي عثر عليه، أوفت إيما بوعدها، فانفصلت عن زوجها وأتت إلى غينيا مع الضابط السابق زوجها الجديد الجريح والمعلول؛ إلا أن زوج إيما الثاني لم يعش طويلاً وقضى نحبه بين ذراعي حبيبته.

ثم وقعت الحادثة التي أمنت لها سيطرتها وثروتها الضخمة الخيالية، حيث كانت قد تعرفت على جِجيل إيهون لڤين، وهذا الرجل الخارق للعادة هو من حول إيما لما هي عليه اليوم.

كان جِجيل إيهون لڤين يهوديًّا أستراليًّا، تطوع في السنة الثالثة للحرب العالمية ثم أتى إلى فرنسا، وأظهر تضحية وجدارة عظيمة فجرح مرتين وترقى من رتبة شاويش التي انضم بها إلى الجيش لرتبة نقيب.

عاد الشاب اليهودي ثانية إلى أستراليا بعد انتهاء الحرب، وكان يبلغ من العمر عشرين عامًا، فبدأ الدخول إلى عالم التجارة بمساعدةٍ من عائلته وأصدقائه؛ لكنه لم يحب التجارة، لأنه لم يكن رجلًا يرضى بالاستثمارات الصغيرة والصفقات الضئيلة، وعلى الرغم من أنه فعل ما بوسعه للتوافق مع المحيط الذي قضى فيه طفولته إلا أنه لم يشعر باليُمن أو السعادة، فبحث عن سبب هذا ووجده في النهاية: فالحرب صنعت منه إنسانًا مختلفًا تمامًا، فالإنسان الذي اعتاد على سماع ضجيج الطائرات وآهات

الموتى وأزيز الرصاصات وانفجار الشظايا يوميًّا لأعوام؛ لم يكن بإمكانه التأقلم مع هدوء المكتب.

أدرك أنه لن يستطيع العيش في موضع إقامته أكثر وأنه يرغب في القتال وإكمال حياته بين المخاطر ومواجهة الصعاب، وظل على الدوام في مكتبه في سيدني بأستراليا يتخيل مغامراته المرعبة الخيالية.

ونمت إلى علمه الحكايا المرعبة والأحاديث الدائرة حول آكلي لحوم البشر وصائدي الجماجم المقيمين في غينيا الجديدة وعلى الجزر المحيطة بها، كما كان رأسه ممتلئًا بحكايا من هذا القبيل، فاتخذ قراره في النهاية بأنه سيذهب إلى غينيا الجديدة ويأخذ الموافقة من الحكومة هناك للبدء في عمله الخطير.

بدأ في تنفيذ قراره هذا على الفور وقام مندوب بريطانيا على الجزيرة بتنصيبه قائدًا للكتيبة، وفور تنصيب الشاب اليهودي الشجاع والقوي بشدة الذي تملكته روح شيطانية جراء صخب الحرب العالمية الدامي؛ بدأ على الفور خوض الغابات البدائية الموحشة، كانت وظيفته تعقب آكلي لحوم البشر والتصدي لتحركات صائدي الجماجم وقتال القبائل التي تعترض على أوامر الحكومة، وقد قام بالدور المنوط به لا سيما في الحد من نفوذ السحرة وفي أعمال شق الطرق في الغابات والوديان التي لم تطأها قدم الإنسان من قبل، وشن الحرب بلا مبرر ليس على البربريين فقط بل على الحيوانات البرية كذلك.

قام بالمعجزات في كل الأنحاء وكسر مقاومة أكثر القبائل وحشية ووصل إلى ساحات لم تستطع أي فرقة استطلاع أو كتيبة ولوجها أو الاقتراب منها.

بيد أنه وقع ذات يوم بفخ في أرجاء بولولو، وهاجمت القبائل التي اتفق ضدها قبيلته، وأمطرت كتيبته بالسهام، واشتبك آكلو لحوم البشر وصائدو الجماجم مع جنود لڤين مطلقين صرخات ها-ها-ها مرعبة.

جُرح لڤين في كتفه اليسرى حيث اخترق سهم العصابة بكامله كتفه؛ إلا أنه استمر في القتال دون كلل أو ملل غير أنه انهار متهالكًا جراء الدم الذي فقده، فاقترب منه أحد صائدي الجماجم أثملته هذه الدماء كي يذبح رأسه؛ لكنه ما إن رفع ذراعه حتى أطلق أحد الجنود النار عليه وهكذا أنقذ لڤين رأسه.

طالت فترة تعافيه لأسابيع وظل طوالها ماكثًا في وادي بولولو بلا حركة؛ يفحص قطع الأحجار التي يجلبها إليه رجاله ويقلبها بيده.

وبمجرد أن استطاع الوقوف على قدميه كان أول عمل يقوم به هو الذهاب إلى النهر والعبث برماله.

ثم عاد إلى العاصمة بعد انتهاء فترة نقاهته فوجد صديقًا له بانتظاره ففتح معه الموضوع وأراه النموذج الذي بيده وكان عبارة عن حصى تخترقه عروق ذهبية وجراب رمل مختلط بتبر الذهب.

ومن ثم أسسا شركة على الفور ومضيا العقود وجلبا الخرائط وبات لڤين متحرقًا بنفاذ صبر للعودة إلى الغابة بمجرد إنهاء كل هذه الأعمال والإمضاءات؛ لكنه كان سيدع آكلي لحوم البشر وصائدي الجماجم هذه المرة في شأنهم؛ فضالته هي الذهب بعدئذٍ...

كان الذهب موجودًا في أرجاء نهر بولولو، الملايين تقبع هناك في رمال هذا النهر وصخوره؛ إلا أنه -مع الأسف- كان يستخدم المجرفة والمعول لأجل الحصول على هذه الثروة، فإن حل محلها الآلات كان المليون يصبح مليارًا لأن عروق الذهب كانت تتمركز في الصخور المرتفعة بمحاذاة النهر، لذا كان تحطيمها بالمجرفة والمعول أشبه بحفر الرمال بالإبرة؛ لكن كيف بوسعه أن يحضر إلى هنا الآلات التي تزن عشرات الأطنان؛ إذا كان إحضار أربعة أو خمسة مجارف مع سبعة أو ثمانية معاول ودستتي معلبات إلى هنا بهذه الصعوبة...

وبعد أن انقطع أمله في جلب الآلات؛ عمل بالمجرفة والمعول مثله مثل غيره؛ غير أن العمل تثاقل كما بدأ ظهور الأمراض المعدية في المعسكر وتساقط العمال وراءه كالبعوض لعدم وجود علاج، ودب الذعر في المعسكر؛ مما جعل العمال المحليين يرجحون أن يصبحوا طعامًا لآكلي لحوم البشر أو النمور في الغابة على الموت جوعًا وعطشًا في المعسكر ويفروا واحدًا تلو الآخر.

وخلال جو الموت والذعر هذا أخذ لڤين يفكر في إمكانية إحضار الآلات والمؤونة الوفيرة والعمال الماهرين إلى هنا، ثم أصدر أمره ذات صباح إلى العمال المتبقين الذين لم يموتوا ولم يفروا، انتاب العمال الذين تلقوا هذا الأمر دهشة عارمة؛ لكنهم

مع هذا بدؤوا في تنفيذه لسهولته، وبناء عليه قاموا بتمهيد ساحة على ضفة نهر بولولو بمساحة ملعب كرة القدم، وأخذوا بدلًا من استخراج الذهب بالمجرفة والمعول يقطعون الأشجار وينتزعون الأعشاب، حتى اتسعت قليلًا واستوت.

وبعد ذلك بأسبوع عاد لڤين إلى عاصمة غينيا الجديدة، وتعرف خلال عودته هذه على إيما، ومن ثم عثر على طيار كان يحارب معه لوقت، كما كان زوج إيما قد توفي، فظن لڤين أنه يمكنه الاستفادة من هذه الأرملة الجميلة الفاتنة فقال لها ذات صباح:

- «سأقوم بأخطر رحلة جوية لم يقم بها أحد حتى الآن فهل تأتين معي؟».

لم تخيب إيما أمل عاشقها الجديد، وأقلعت الطائرة بعد ثلاثة أيام من عاصمة غينيا الجديدة وعلى متنها ثلاثة أشخاص هم: لڤين وصاحبه الطيار موستار وإيما متوجهين نحو الغابات البدائية الوحشية.

وفي اليوم نفسه أصاب أهل البلد المحليين الذين يعملون في المعسكرات المجاورة لمعسكر لڤين هلع ورعب مدهش عندما رأوا طائرًا أكبر من النسر يطير فوق الغابات، وأخذ هذا الطائر المرعب يدور فوق الوادي ثم شرع في الهبوط للأسفل.

وخرج من داخله ثلاثة أشخاص بيض هم: لڤين وإيما والطيار موستار.

باتت سماء آكلي لحوم البشر بعد ذلك تحت سيطرتهم، وصار الحصول على أطنان وكتل الذهب الواقعة في حوزة صائدي الجماجم متاحًا.

نقلوا المعدات مجزّأة من على الطائرة وقاموا بتركيبها والاستعداد لنقل الذهب بالأطنان.

تزوجت إيما ولڤين؛ لكن لڤين توفي بين ذراعي زوجته جراء السهم المسموم الذي تلقاه في السابق، وقال لها حينئذٍ:

- «لقد جعلتك أغنى امرأة في العالم؛ لكن يجب عليك لئلا تفقدي هذه الثروة أن تصيري ملكة على آكلي لحوم البشر وصائدي الجماجم وتقوديهم ضد منافسيك البيض».

نفذت إيما وصية زوجها الذي قضى نحبه بين ذراعيها، فصارت ملكة الغابة ورئيسة

السحرة كي تحمي هذا الكنز وعملها في الذهب من اعتداءات البيض.

وأصبح المال والقوة الوحشية عندئذٍ تحت سيطرتها.

***

كانت عائشة تذوي بمرور الأيام؛ استسلمت للأمر الواقع؛ لكني أظن أنه أصبح لديها شك في أن جوكسل حل محلي بحيلة شيطانية بعد مجيئنا إلى غينيا الجديدة، فباتت تعاملني كجوكسل؛ لأنها كانت توقن أن خالد جميل لا يمكنه قبول أن يصبح بربريًّا متزوجًا بست زوجات، وسواء أكانت هي أو كنت أنا مخطئين بهذا؛ إلا أنني عاجلًا أو آجلًا وجدت نفسي حيوانًا يحمل في روحه جزءًا من طبيعة جوكسل.

كانت زوجاتي الزنجيات الأربع يقمن بخدمتي أنا فحسب، وكنت أحس من حين لآخر بحاجتهن واتقاد أعينهن رغبة في مجاورتي كلما مكثت في العشة بمفردي؛ غير أن وجوههن وجلودهم العارية كانت مخيفة لدرجة...

كنت أقع تحت تأثير إيما أكثر يومًا بعد يوم، حيث قالت لي ليلة البارحة:

- «دعنا نتوافق أكثر وأجعلك تترأس عملي في الذهب، فأنا اليوم أغنى امرأة بالعالم وكبيرة سحرة قبائل غينيا الجديدة، ولا يستطيع أي شخص في جزر المحيط الهادئ مجابهتي؛ لكن هذا القدر لا يكفيني فأنا أريد أن أصبح أكثر ثراء وقوة؛ فإذا اتحدنا يدًا بيد يمكننا حكم العالم كله سويًّا..».

ربما كانت إيما تلهث وراء حلم مرعب؛ لكنني كنت أستسلم له بمرور الأيام، وكانت عائشة تعيش بجواري كالشبح.

أقيمت اليوم مراسم جنازة زعيم قبيلة في قرية غزالة ودُعيت إيما وأنا وعائشة فذهبنا.

كانت جثته مربوطة فوق لوحين خشبيين ومزينة بالريش وصدف البحر، وكانت أجساد زوجات الميت عارية ملطخة بالرماد من أعلاها لأسفلها ومزينة بالريش وصدف البحر كذلك، وكن يصرخن وينتحبن أمام زوجهن الذي دهن جسده بالألوان

الزاهية.

وطوال استمرار المراسم كان هناك رجلان يجلبان المياه من النهر المجاور ويصبانها على رأس الميت، وفي حين كان الماء يراق على رأس الميت من جهة؛ كان التراب والثمار المتنوعة يوضعان فوق ساقيه الأسمرين من جهة أخرى.

ثم وزع أبناء الزعيم المتوفى المال على المشاركين في المراسم، فاختفت هذه الأموال في الوسط كأنما ابتلعتها الأرض.

بيد أن ساحر القبيلة كان أكثر من حصل على المال.

حكت لي إيما عن قدرة السحرة بينما كنا نسلك طريق العودة، وأدركت حينئذ كيف أرست أسسًا مدهشة للعمل في مناجم الذهب وحمايتها من هجوم منافسيها البيض؛ لأن البرابرة كانوا يعملون في منجم إيما الذي تبقى لها من لڤين مقابل لقمة عيشهم – إذا جاز التعبير– ويموتون بلا تردد لأجل حماية صخور الذهب هذه، ولأنها قد حازت سيطرتها هذه على آكلي لحوم البشر وصائدي الجماجم بكونها كبيرة السحرة؛ فمن المفيد لي كثيرًا بصفتي النائب المستقبلي لها؛ إدراك النفوذ غير المحدود للسحرة على هؤلاء الناس البدائيين.

وعلى حد قولها:

- «ربما يستطيع السكان المحليون النجاة من آكلي لحوم البشر وصائدي الجماجم والسل والملاريا والتيفود والمعارك والعقارب والأمراض الجلدية ومن كل زبانية المحيط الهادئ هؤلاء، وربما يستطيعون تفاديها جميعًا؛ لكن هناك نوع آخر مختلف من الموت لا يمكنهم النجاة منه وهو ما يدعونه «موت الخوف» أو «الموت من الخوف».

في الأيام الأولى لمجيء لڤين إلى هنا وقبل أن أصبح كبيرة السحرة؛ اقترب منا حمال من أهل البلد وقال للڤين حادقًا في عينيه:

- أنا على وشك الموت يا مستر، لقد أصابني البوري بوري، وسأموت.

فحص لڤين الحمال فوجده سليمًا معافى وليس به أي شيء؛ لا حرارة ولا دليل على القرحة وقلبه يدق جيدًا، فأعطيناه دواءً سائلًا وقلنا له:

- ليس بك شيء! هيا اذهب إلى عملك!

انتهى الموضوع وذهب طي النسيان؛ لكنه لم تكد تمضي ثلاثة أيام حتى أتى رئيس الحمالين وقال:

- مات خاصتكم.

فسأله لڤين مستغربًا:

- أخاصتنا؟ من هو؟

- الشاب الذي فحصته قبل ثلاثة أيام وأعطيته دواء.

- لم مات؟

- بسبب البوري بوري...

هز لڤين كتفيه فنحن لم نكن نعرف في ذلك الوقت ماذا يعني الموت من البوري بوري بعد.

لكنه قبل مضي شهر قابلنا من مات بهذا المرض في القرى المجاورة التي مررنا بها، وحينئذٍ تحرينا عن هذا الأمر وعلمنا أن المصاب بالبوري بوري يموت بالتأكيد لأنه يكون متيقنًا من موته، وليست هناك أي وسيلة لإنقاذ من يعلم أنه مصاب بالبوري بوري.

فوفقًا للسكان المحليين يستطيع أي ساحر أن يصيب الإنسان بالبوري بوري ولأجل القيام بهذا يأخذ الساحر أي شيء من الشخص الذي يريد إصابته بالبوري بوري؛ مثل: الريش الذي يضعه على رأسه أو قطعة من اللاب_لاب الذي يربطه من الأمام أو الحجر الذي مسه، ويتمم بجملتين سحريتين أو ثلاث؛ وعندئذ يصبح الرجل المصاب بالبوري بوري في عداد الموتى.

يهيم من يعلم بإصابته بالبوري بوري على وجهه في الطرقات ولا يريد الأكل ولا يستطيع النوم حتى يموت مصابًا بنوبات الجوع والعطش وبإيحائه لنفسه أنها النهاية.

وفي هذه الأنحاء عداوة إنسان تعد كافية لمنحه المال والهدايا للسحرة كي يصيبوه

بالبوري بوري، وعلاوة على هذا فتبعًا لمعتقداتهم؛ إن البوري بوري لا تُميت أحيانًا المصاب بها بل تتركه كسيحًا أو مشلولًا».

توقفت إيما عند هذه النقطة في توضيح البوري بوري، وكانت عائشة تسير بجوارنا ناكسة رأسها، غير مكترثة بالدنيا ولم تسمع شيئًا من الحديث.

استأنفت إيما الحديث من جديد:

- «وكان للاعتقاد في البوري بوري هذا دخل كبير في أن أصير فجأة ساحرة أعظم من كل السحرة الآخرين.

ذات يوم بعد نقل الآلات بالطائرات وبينما كان يعمل آلاف المحليين في مواقد الذهب وعلى رأسهم لڤين؛ أحضروا لي شابًّا من أهل البلد، كان ابن أحد زعماء قبائل صائدي الجماجم المرعبة التي تقطن هذه الأنحاء، وكان يبلغ من العمر عشرين سنة تقريبًا؛ شاب كالحديد عريض المنكبين وشعره أسود مجعد وجسده أسود عارٍ؛ لكنه لم يكن يستطيع السير فقد أصيب بالبوري بوري وفقد السيطرة على قدميه.

أدركت المسألة سريعًا فسبب عدم قدرته على السير ليس إصابته بالشلل أو الكساح؛ بل لأنه تيقن من عدم استطاعته السير بعد سماعه أنه أصيب بالبوري بوري، ومن ثم لم يستطع السير جراء تأثير هذه الفكرة الراسخة.

تحدثنا حينئذ بواسطة مترجم لأني لم أكن على دراية جيدة وقتها بلغة الأهالي، وكنت متأكدة من أني سأبقى هكذا طوال حياتي.

أرقدته أول الأمر على الأرض وقمت بتدليكه كما تعلمت في المستشفيات الأوربية، ولكن دون جدوى، لم ينفع معه أي شيء.

كان شابًّا ظريفًا وسيبقى عاجزًا طوال حياته بسبب معتقد خاطئ ليس إلا، ثم إنه ابن زعيم قبيلة؛ وإن أنا عالجته سأربح ثقة المحليين غير المحدودة على الفور.

أجلسته على صندوق خشبي وقلت للحمالين الذين أحضروه لي أن يدعونا بمفردنا فانسحب الجميع وبقيت بمفردي مع الشاب المقعد.

استدعيت على الفور أحد المهندسين الأوربيين وطلبت منه أن يحضر لي قطعة

حديدية محماة على النار.

جاءت الحديدة المحماة، وكان الشاب يجلس على الصندوق الخشبي مديرًا ظهره لي، فبدأت أغني بصوت خافت أغنية إنجليزية تعلمتها من زوجي الأول.

وكان الشاب الذي يجلس مديرًا ظهره إليَّ دون أن يرى الحديدة المحماة في يدي؛ متأكدًا من أني أتلو أدعية سحرية، وعندما وصلت إلى ختام الأغنية ألصقت الحديدة المحماة بجسد الشاب العاري، فأطلق الشاب صرخة مهولة ثم هبط من فوق الصندوق قفزًا وشرع في الركض مثل المجنون.

تعافى الإنسان الذي أصيب بالبوري بوري وكان محكومًا عليه بالبقاء قعيدًا طوال عمره، وبدأ بالركض، وأذيع أني أعالج من البوري بوري على الفور دون أن أفعل أي شيء ونقلت الصنوج شهرتي على الفور من غابة لغابة ومن عشة لعشة.

حكيت للڤين ما حدث ففرح وقال:

- لكن الآن كل السحرة سيهاجمونك، كما أنهم قد يهمون لقتلنا هنا، لذا علينا الاستعداد لمواجهة هذا الهجوم المحقق، حتى إنه يتوجب علينا الهجوم قبلهم، ولو انتصرنا فسيكون مستقبل مناجم الذهب خاصتنا في أمان.

بدأنا على الفور في الاستعدادات وفقًا لخطة ڤين، وبعثنا بالأخبار لكل القبائل المجاورة وتمت دعوة زعماء القبائل وسحرتهم وشرفائهم.

أوقفنا العمل في المواقد ذلك اليوم، وحضر المدعوون مبكرًا؛ آلاف البرابرة... والسحرة الذين يضعون الأقنعة المرعبة والزعماء المزينون بالريش الملون.

ذُبحت الخنازير وقدمت للزعماء والسحرة هدايا من قبيل التبغ والخرز الأزرق والكبريت وأقيمت الألعاب وقرعت الصنوج دون توقف أو راحة حتى حلول الليل، بعدها أضيئت المشاعل في كل الأنحاء ثم صعد ڤين فوق منصة مصنوعة من الصناديق الموضوعة فوق بعضها وشرع في الحديث:

- أيها الزعماء والسحرة والمحاربون! دعوناكم إلى هنا وذبحنا عشرات الخنازير فأكلتم وأهديناكم تبغنا فدخنتموه، كما علقتم ألماساتنا الزرقاء؛ ولكننا أفسدنا البوري بوري عليكم بإظهارنا مهارة سحرية أعظم منكم جعلت القعيد يسير

ويقفز، ويود هذا الساحر الذي تفوق على كل سحرتكم منافستهم؛ وإن استطاع أحد سحرتكم القيام بواحدة من الألعاب السحرية التي يفعلها سنمنحه عشرات الخنازير؛ ولكن إن لم يستطع ستقبلون برئاسة هذا الساحر لسحرتكم!

امتزج هذا الحديث الذي استمر طويلًا وتمت ترجمته بضجيج الموافقة، فنزل لڤين من على المنصة وصعدت أنا عليها بين قرع الصنوج.

جهزنا كل المعدات مسبقًا، فأخرجت السيف الذي شاهدته آنفًا من صندوق مده إليّ أحد الحمالين المحليين، وشطرت خنزيرًا شطرين بواسطته، ومن ثم ابتلعته وفقًا للخدعة السحرية المعروفة.

فصاح البرابرة بحيرة وبخوف بعض الشيء؛ لكني ما لبثت أن أظهرت خدعتي السحرية الثانية؛ فأحرقت خرقة بطريقة معلومة وقذفتها في فمي ثم نفثت النار.

انقلبت الأوضاع بعد خدعتي السحرية هذه، وخر البرابرة منبطحين على الأرض، فاستدعيت –بواسطة المترجم- كل السحرة للمنافسة، وطلبت منهم القيام بنفس الخدع، فخروا من بين الحشود وأتوا إلى جواري مرغمين، ففحصوا السيف والخرقة بدقة وكان السيف حادًّا وقاطعًا والخرقة ما تزال مشتعلة، فانسحبوا، ثم بعد مرور ثلاثة أيام أعلنني أهل غينيا الجديدة برمتهم كبيرة السحرة..».

تطلعت بحيرة إلى زوجتي الثانية الملكة إيما؛ هذه المرأة واسعة الحيلة، فائقة الذكاء والشجاعة التي لم تخجل من أن تروي لي الطرق التي سلكتها والخدع الساذجة التي أحكمت بها سيطرتها على أهل البلد، ويبدو أنها كانت واثقة تمامًا في تأثير سحرها عليّ –أيضًا- بجمالها البارع وثروتها الهائلة وبالحبوب المرة ذات الرائحة العجيبة وبطرق أخرى؛ مما جعلها تكشف كل أسرارها لي دون حذر...

قضيت هذه الليلة برفقة عائشة.

كان باب العشة مفتوحًا فغمرها ضوء النجوم البراقة؛ بينا ذهبت الغابة والقرية في نعاس، وبدا لي أنه لا أحد متيقظ سواي وعائشة.

عادت عائشة لحالة الوهن والضياع ثانية في تلك الأيام الأخيرة وباتت لا تتكلم؛

متعبة ومطيعة كطفلة يتيمة ليس لها أحد تشتكي له أو تتدلل عليه.

وكأنها لعبة؛ أرفع ذراعها فترتفع، وألفها حول رقبتي فتلتف، لم تعد تقوم بأي فعل من تلقاء نفسها، حتى إني كدت أجن من طريقة مقاومتها المخيفة وغير المحتملة هذه.

فأمسكت رأسها ورججته بعنف قائلًا:

- «ماذا بك يا عائشة؟ ماذا جرى لك؟ تحدثي شيئًا! بالله عليك قولي ولو كلمة واحدة! سبيني، اصفعيني، انشبي أظافرك في وجهي وعيني؛ لكن تحدثي! انطقي بكلمة واحدة..».

رفعت عينيها الزرقاوين كالبحر وتطلعت في عينيَّ ثم قالت بهمس:

- «أنت لست خالد جميل؛ بل جوكسل، قتلت خالد جميل في مكان مهجور وحللت أنت محله هذه المرة، أنت جوكسل».

لم تدهشني هذه الكلمات، فقد كنت أشك أساسًا في أنها باتت تظنني جوكسل ثانية.

تراجعت عنها ببطء وحدثتها حديثًا من لا يكترث لأي شيء غير تصديقها:

- «لا ياعائشة! أنا لست جوكسل، صدقيني! أنا خالد جميل الواقف أمامك؛ لكني خالد جميل آخر لم تعد نفسي تعرفه؛ أسوأ من جوكسل، فعلى الرغم من كوني خالد جميل؛ إلا أني خالد جميل الذي ما لبثت أن ظهرت جليًّا وحشيته وهمجيته وسوؤه المستتر في أعماق الجانب الخفي لكل رجل مثلي، فأنا مريض ومجنون يا عائشة... وكل يوم أجن وأمرض وأتغير أكثر من سابقه، لقد قضت هذه المملكة الحارة -جهنم المحيط الهادئ- عليّ بواسطة الدماء المتفجرة على الدوام من الرؤوس المذبوحة وتلك المرأة والطمع في الذهب، وأعلم أني سأقضي نحبي في القريب العاجل داخل مستنقع جهنم هذا الذي انغمست فيه حتى حلقي، فأنا رجل ميت يا عائشة..».

قمت واقفًا على قدمي ببطء، بينما ظلت هي في مكانها بلا أي حركة كأنها لم تسمع شيئًا مما قلته، فتوجهت إلى الباب وعبرته للخارج ثم سرت دون أن أتطلع ورائي على حبيبتي الوحيدة الواقفة بصمت.

فأمسكت يد بكتفي من الخلف على حين غرة فاستدرت وقلت: «عائشة!».

كانت عائشة تقف أمامي وقالت:

- «إلى أين أنت ذاهب؟ أإلى جوار هذه المرأة؟ أإلى الأذرع التي سحرتك وجعلتك في هذه الحالة وحولتك إلى جوكسل؟ هيا أخبرني؛ إلى أين ستذهب؟ إلى هناك؛ أليس كذلك؟».

نكست رأسي قائلًا:

- «نعم».

تحدثت عائشة غاضبة بصوت ينبض بالحيوية لم أسمعه منذ وقت:

- «لا تنكس رأسك، وانظر في عيني! أعلم أنك لست جوكسل؛ وأنك خالد جميل، ولا يمكنني أن أسمح بالقضاء عليك، لا تظن أني أغار! لقد اجتاحتني فجأة غيرة شديدة ومذهلة عليك لدرجة أحرقتك في أعماقي وتركتك رمادًا فلم أعد أغار عليك؛ لكنك ما دمت خالد جميل رجلي فسأنقذك، سأصارع مثل نمرة وأخلصك بشجاعة ودهاء كأي امرأة أخذ منها رجلها! ستنجو! أفهمت؟!».

كنت أفهم مشاعرها وماذا تريد أن تقول؛ لكني لم أكن آمل أبدًا أنها تستطيع إنقاذي، فقلت لها:

- «ناشدتك بالله؛ أن تسامحيني يا عائشة! لكن لا تحاولي إنقاذي عبثًا! اقطعي أملك مني، وسأقول لإيما؛ أن تدعك وطريق مناجم الذهب على بعد سير أسبوع من هنا، فاذهبي إلى هناك ولتحملك طائرة الشحن من هناك إلى أستراليا، ثم اركبي السفينة الذاهبة إلى أوربا..».

ضحكت عائشة بقهقهة ثم قطعت حديثي قائلة:

- «لن أذهب إلى أي مكان، ولو كان يجب علي الذهاب من هنا فستكون أنت وأبي معي..».

- «لكن يا عائشة والدك!».

- «أعلم أن أبي في مكان هنا، فقد علمت بأشياء أخرى لا تعلمها، أفهمت؟ أشياء

كثيرة مخفية عنك... ولو شئت؛ يمكنني ذبح رأس الملكة إيما قبل مُضي شهر وتعليقها في سقف العشة..».

كانت عينا عائشة متسعتين بشدة وكلماتها مفعمة بقوة وإصرار لدرجة أدهشتني، وفطنت إلى أن هذه المرأة التي عاشت بجواري لأشهر مثل خروف أضحية دون أن تنبس بصوت؛ أعدت عدتها وبدأت بتنفيذ خطتها المحكمة التي لا تخطر على بال، فقلت:

- «أي عائشة! تعرفين أشياء وتقومين بعدة أمور لا أعلم عنها شيئًا..».

فقاطعتني:

- «اصمت! ولا تسألني عن أي شيء، تأكد فقط من أننا سننجو!».

توقفت ثم استأنفت بصوت خافت:

- «اذهب الآن إلى إيما لو تريد! لكن لو حدثتها بشيء مما تحدثنا فيه سأوقن عندئذٍ بالفعل أنك تحولت إلى جوكسل مجددًا ثم..».

لم تكمل جملتها حيث قاطعتها محاولًا الضحك:

- «ثم ستذبحين رأسي أنا –أيضًا– وتعلقينها في عشتك؛ أليس كذلك؟».

قالت بصوت أجش صارم:

- «بالطبع..».

لم أذهب إلى إيما، شعرت بمدى ضعف إرادتي حتى إني بدأت أخاف من عائشة هذه المرة...

ومن ثم لاحظت إيما أنه طرأ بعض التغييرات علي، ففعلت كل ما بوسعها لتعزيز تأثير حبوبها وجمالها ووعودها المستقبلية بالذهب والسلطة، وعلى الرغم من أنها بدأت تشعر من تلقاء نفسها أنها تجابه عدوًّا خفيًّا؛ إلا أنه لم ينتابها شك في أن هذا العدو هو عائشة؛ لأن عائشة كانت لا تزال صامتة متهالكة شاحبة لا سيما إلى جوارها...

انتهت هنا الذكريات المأخوذة من دفتر مذكرات خالد جميل.

4

في سبيل حب الزعيم الأبيض

عائشة والملكة إيما وتولاما

ظل خالد جميل بجوار إيما تلك الليلة.

وتحدثت عائشة بلغة أهل البلد التي تعلمتها خلال الأشهر الأربعة مع إحدى زوجات زعماء القبائل اللاتي قدمن كهدايا لخالد جميل، كانت النساء الأربع الزنجيات اللاتي أهدين له يشعرن بعداوة رهيبة تجاه «الزعيم الأبيض»؛ لأنه على الرغم من قبوله لهن إلا أنه لم يقم تجاههن بوظيفة الزوج، ولا سيما أصغرهن سنًّا وأجملهن جسدًا وأجعدهن شعرًا وأقل وجوههن رعبًا تولاما؛ فقد أوشكت على التهامه نيًّا؛ من فرط رغبتها فيه وإعجابها بعينيه الزرقاوين وشعره الأشقر وبشرته البيضاء كالحليب؛ بالرغم من أن «الزعيم الأبيض» لم يلتفت إليها قط.

وكانت تولاما هذه هي المرأة التي تتحدث معها عائشة.

شعرت عائشة وفق خبرتها النسائية بألم قلب تولاما منذ شهرين، وخططت أولًا أن تأخذ ثأرها من الرجل الذي حسبته جوكسل ثم فكرت في ما بعد أن تستفيد من هذا الألم في إنقاذ خالد جميل.

ترددت تولاما أول الأمر في قبول الصداقة التي أظهرتها لها عائشة ثم قبلتها دون تفكير.

- «إيما هي من أخذت الزعيم الأبيض مني وهي من لا تسمح باقترابه منك، فلو أنّا خلصناه من بين يديها لأمكننا تشاركه معًا».

كانت تولاما تخاف مثل كل الأهالي من إيما، ولا يستوعب عقلها أنه يمكن أن تدخل

في أي صراع ضد كبيرة السحرة التي تبتلع الحديد القاطع الحاد وتنفث النار من فمها وتجعل الكسيحين المصابين بالبوري بوري يسيرون.

لكن عائشة بدأت تمحو مخاوف تولاما شيئًا فشيئًا بتأكيداتها على الدوام وبالقرائن والدلائل؛ حتى إن هذه المرأة البيضاء ذات يوم غمست في فيها هي الأخرى -سهمًا وليس سيفًا حادًّا مثل إيما- وأخرجته، ومن ثم اتفقت تولاما معها على إنقاذ زوجها الأبيض من قبضة إيما.

كان زوج تولاما الأسبق الذي أهداها إلى خالد جميل؛ هو أحد أقوى وأعنف زعماء قبائل صائدي الجماجم، وكانت دائمًا ما تُحدث عائشة عن قوته، ولم يكن هذا الزعيم على علاقة جيدة بإيما؛ لكنه كان هو الآخر مثل كل الأهالي يخاف أن تصيبه هذه المرأة الساحرة بالبوري بوري.

وبعد أن أخذت عائشة هذه المعلومات من تولاما، ضمت زوج المرأة الشابة الأسبق للحلفاء بالطبع، وبحثت عن إمكانيات التواصل مع هذا الزعيم المرعب، وتعززت هذه الرغبة خاصة عندما قالت تولاما ذات ليلة:

- «يوجد لدى زوجي الأسبق أسير أبيض ملتحٍ وهو محبوس بأمر إيما في عشة يتناوب على بابها الحراس ذوو السهام المسمومة».

اشتبهت عائشة في كون هذا الرجل الأبيض؛ والدها، وأخذت ملامح الأسير الأبيض الملتحي تتداخل مع ملامح والدها في أحلامها لليالٍ.

وذات ليلة بينما كانت المرأتان تتبادلان الحديث؛ سألت عائشة تولاما عن شيء وهو كيف يمكنها العثور على زوجها الأسبق قائلة:

- «لا تخافي! فإيما لا تستطيع فعل أي شيء لي ولا يمكنها إصابتي بالبوري بوري، فأنا -أيضًا- ساحرة قوية مثلها، وإن كنت لم أصبها حتى الآن بالبوري بوري الذي لا تستطيع علاجه فلهذا أسباب أخرى لا يستطيع عقلك استيعابها».

فكرت تولاما في الأسباب التي لا يستطيع عقلها استيعابها وتوصلت إلى أنه هناك أسباب لا يمكن لعقلها استيعابها بالفعل...

فأكملت عائشة:

- «أقول لكِ هربيني! سيري أمامي وأوصليني إلى زوجك الأسبق! قلتِ إن قريتكم قريبة من هنا، نذهب ونرجع قبل الصباح».

بيد أن تولاما كررت اعتراضاتها القديمة من جديد:

- «أنا لا يمكنني الذهاب إلى هناك، ولا يمكنني رؤية زوجي مرة أخرى فقد أهداني لرجل آخر، فلو أني لمحته الآن في طريق يجب عليّ ألا أنظر لوجهه، فإن لم أفعل هذا يقطعون رأسي فهذا أمر السحرة».

فالمرأة التي أهداها زوجها لرجل غيره لا يمكنها رؤيته مرة أخرى...

غضبت عائشة وقالت:

- «إن كان هذا فلا بأس! لكنك إن لم ترشديني إلى الطريق هذه الليلة ولم توصليني إلى هناك؛ سأصيبك بالبوري بوري وتعمين، ولا تستطيعين رؤية الزعيم الأبيض مرة أخرى، ولن تستطيع إيما مهما فعلت علاجك».

أخذت تولاما تفكر في هذا التهديد وكلما فكرت ازدادت خوفًا، فالإصابة بالبوري بوري تعني عدم القدرة على رؤية بشرة الزعيم الأبيض ناصعة البياض مثل الحليب ورؤية عينيه الزرقاوين، لو أصيبت بالعمى ستحمل وتترك تحت شجرة في الغابة وفقًا للعادة، وتموت عطشى وجوعى بعيدًا عن الزعيم الأبيض...

قالت عائشة التي لاحظت أنها بدأت تلين كي تحطم آخر مخاوفها:

- «لا تخافي! سأتحدث أنا مع زوجك السابق وأخبره أني ساحرة أقوى من إيما ولن أقطع رأسك، كما أنك قلتِ إنك لو رأيت زوجك الأسبق سيقطعون رأسك؛ أليس كذلك؟ أوصليني إلى قريتك ثم عودي وانتظريني في الغابة، لا تدخلي القرية وبذلك لن تري زوجك السابق».

نفذت مقاومة تولاما في النهاية فقالت:

- «ليكن! نذهب مساء غد».

لم تستطع عائشة أن تغمض عينيها حتى الصباح من فرط الحماس بعد تلقيها هذا الوعد من تولاما، وأدركت أنها تلقي بنفسها في مخاطرة ومغامرة يمكن أن تكلفها

حياتها؛ لكنها مستعدة أن تلقي نفسها في أحضان الموت باسمة لأجل رؤية الأسير الأبيض الملتحي والانتصار على إيما وإنقاذ خالد جميل!

أشرق الصباح وأتى خالد جميل فقابلته عائشة بوجه باسم وتأملت في وجه رجلها الحبيب بحنان.

فألقى هو فوقه فرو النمر ما إن دلف إلى العشة دون أن يلتفت حتى لعائشة وما لبث أن استغرق في نوم عميق، فبعد الآن لا تستطيع حتى حبوب إيما المخدرة منحه الشباب.

نهض من نومه قرب الظهيرة، فأكل من الطعام الذي ناولته له عائشة؛ سلق خضراوات متنوعة خمسة أمثال حجم الكراث من الخضراوات التي تنمو في غابات غينيا الجديدة.

تناول طعامه فنام بعده على الفور ثم استيقظ ما إن حلت الليلة فقال:

- «سأظل هنا الليلة يا عائشة، لا أريد الذهاب إليها، سأموت هنا، يبدو لي أني سأذوي قطرة قطرة مثل الشمعة وأنطفئ، افعلي ما شئت لكن لا ترسليني إليها هذه الليلة!.. أتوسل إليكِ!».

انتابتها الدهشة فجأة، ثم لم تلبث دهشتها أن تحولت لحزن، فلو بقي خالد جميل هنا هذه الليلة ستفسد كل خطتها، ولو تراجعت عن مشوار اليوم بعد أن اقنعت تولاما فربما يفسد كل عملها.

لا؛ يجب ألا يبقى هنا الليلة.

قالت:

- «لا يمكنك البقاء هنا هذه الليلة يا جميل».
- «أتطردينني؟ أما قلتِ إنك ستنقذينني وإنك ستساعدينني؟ أهذه مساعدتك؟ أنا أقول لك؛ إني أموت، لا تتركيني! فتدفعيني بيدك إلى نار جهنم».

لم تعرف عائشة بم ترد، فتصريحها له ليس صوابًا فهو سيود المجيء وإيما قد تبحث عنه في منتصف الليلة، ولو أنها لم تجده ستشك، فماذا عليها أن تفعل؟

لم تجد عائشة حلًّا آخر سوى الوثوق بإرادتها لأجل الخروج من المأزق الذي وقعت فيه، فقالت:

- «صدقني يا خالد جميل! اذهب إليها الليلة فقط –ومن يعلم- فربما تكون الليلة آخر ليلة..».

- «ماذا يعني ما تقولين؟».

- «لا تسألني عن شيء يا حبيبي!».

لم يسألها عن شيء وخرج من العشة مطأطئًا رأسه. نظرت من خلفه فمن يدري ربما لن تستطيع رؤية ظل حبيبها مرة أخرى...

لم يكن في القرية برمتها إلا ساعتان؛ أحدهما الساعة التي تدق في عشة إيما والأخرى الساعة الذهبية التي في معصم عائشة.

نظرت عائشة في ساعتها فوجدتها تقترب من منتصف الليل، وكانت الحركة قد هدأت في القرية.

خرجت عائشة من العشة وذهبت إلى العشة التي ترقد فيها النسوة الأربع المهديات له، كانت تولاما مستعدة وعلى أهبة الاستعداد؛ أما الأخريات فكن يغططن في نوم عميق، اختفت المرأتان في الظلام وعبرتا سياج القرية خارجتين.

كانت ليلة حارة حالكة السواد، عبرت تولاما الممشى الضيق الذي يعبر الغابة في المقدمة، وتبعتها عائشة وكانت تحمل بيدها لفة فيها بعض من التبغ الجاف والخرز الأزرق وعلب الكبريت التي أخذوها وهم خارجون من عاصمة غينيا الجديدة...

كانت الغابة مظلمة لدرجة أن عائشة مدت ذراعها وظلت تلمس ظهرها بين الفينة والأخرى كي لا تفقد أثر تولاما، وبعد أن سارتا هكذا لمدة خمس عشرة دقيقة؛ توقفت تولاما فجأة وقالت:

- «أنصتي! أتسمعين الصنوج؟».

أصاخت عائشة سمعها، كانت الصنوج تقرع حقيقة من بعيد، فقالت:

- «أسمع، ما هذه الصنوج؟».

- «هذه الدق دق!».

- «وما هذه الدق دق، ماذا تعني؟».

ردت تولاما بدلًا من أن تجيب عن هذا السؤال قائلة:

- «لنرجع!».

استدارت للخلف دون إكمال ما ستقوله وشرعت في الركض مهرولة في الظلام، ذهلت عائشة فصرخت: «توقفي يا تولاما! إلى أين تذهبين؟ قفي!».

لكن تولاما لم تعرها جوابًا، ولم يبقَ أمامها غير سبيل واحد؛ أن تغوص في الظلام في نفس الاتجاه الذي فقدت فيه تولاما، فبدأت الركض عقبها في الظلام؛ غير أنها لم تكد تخطو أربع أو خمس خطوات حتى تدحرجت على الأرض واصطدم رأسها بجذع شجرة، ظلت مدة طويلة ممدة مكانها على الأرض ومن ثم نهضت على قدميها ببطء وصرخت مرة ثانية:

- «تولاما! تولاما!».

لم يصدر أي جواب، فأصخت للظلام؛ لم تعد الصنوج تقرع.

سارت ثم ما لبثت أن توقفت؛ لأنها أضاعت وجهتها وهي تقوم من موضع سقوطها، ولم تعد تعرف إلى أين توجهت تولاما في الظلام.

احتبست أنفاسها برعب لم تشعر به طوال حياتها، فهي وحيدة تمامًا بهذه الغابة البدائية ليلًا في مواجهة البرابرة الذين سمعت صنوجهم منذ قليل.

شرعت في البكاء، وانتحبت كثيرًا مثل طفلة؛ فالدموع تفرغ الحزن، ثم لم تلبث دموعها أن نضبت فجأة. ما زال هناك حل؛ إذ ليتها تستطيع سلك اتجاه العودة إلى القرية وفق حدسها!

كانت تسير مصخية سمعها للهمسات والخشخشات والأصوات التي تأتي من ظلمة الغابة الدامسة، وهي تشعل كبريتًا تلو الآخر محاولة البحث عن اللفة التي فقدتها، وتتقدم بخوف ودقة كما لو كانت تعبر الصراط رجاء ألا تطأ ثعبانًا زاحفًا على الأرض أو تجد نفسها بغتة في مواجة نمر.

خطر على بالها فجأة أن تجمع من الأرض أشياء مثل الشجيرات والأعواد وتشعلها؛ علها تعثر على اللفة التي فقدتها، انحنت على الأرض، ولمست يداها عشبًا شائكًا، فانتزعت أعوادًا منه ونزفت أصابعها وجرحت راحتها ثم أشعلته بالكبريت...

باتت ابنة مختار خريجة المدرسة الأمريكية وساكنة الأسكودار؛ تحمل بيدها الآن مشعلًا عجيبًا، وتسير بمفردها في غابات غينيا الجديدة بوجه شديد الحمرة جراء الأعواد المشتعلة بيدها.

طرأ على بالها النظر في ساعتها؛ كانت الساعة الواحدة والنصف، ووفقًا لعدم وصولها حتى الآن إلى القرية فمن المؤكد أنها ضلت طريقها. سارت قليلًا، ثم تسمرت في مكانها، فقد بدأت الصنوج تقرع على حين غرة من جديد بالقرب منها، وهذا ما يعني أنها ليست في اتجاهها إلى القرية؛ بل هي تتقدم تجاه ما أطلقت عليه تولاما الدق دق.

ألقت المشعل الذي بيدها على الأرض فورًا، ودهست بقدمها النار لتطفئها ثم انتظرت محلها جاثية بين العشب الكثيف.

أضاءت الغابة تدريجيًّا بضوء أحمر كما أخذت الجلبة تزيد وتقترب، ثم ظهر بغتة حشد من البرابرة يمسكون بالمشاعل، كان هؤلاء أشبه بالشياطين من البشر، على رؤوسهم أقنعة بارتفاع متر أما أجسادهم فمغطاة بالريش وبأوراق الشجر، وكلهم كانوا متحلقين في دائرة؛ يقفزون مرة لليمين ومرة لليسار ثم ينحنون وبعد ذلك يعتدلون.

وبعد أن اهتزوا كثيرًا مطلقين صرخاتهم الحيوانية بين الفينة والأخرى؛ جلسوا جاثمين على الأرض، ثم أطلق أطولهم قناعًا وأكثرهم ريشًا –لا شك أنه زعيمهم- صرخة في الهواء، فظهر من طرف مظلم في الغابة ثلاثة صبية عراة في عمر 16-17 ودخلوا وسط الرجال الثمانية ذوي الأقنعة المرعبة والمشاعل، وبمجرد أن دخل الصبية وسطهم حتى نهض الجاثون على الأرض واقفين واستأنفوا رقصهم ثانية، وكان هذا المشهد يوحي في حد ذاته بالعظمة، فالأدخنة الحمراء الكثيفة المرتفعة من النار التي تتقد في المشاعل وفي الوسط ورنين الصنوج بإيقاع متناغم مع أقنعة البرابرة المخيفة وحركاتهم البطيئة المتناسقة؛ ترسم ديكورًا غامضًا وعجيبًا لكل

المراسم المقامة في الغابات الاستوائية هذه.

كان الصبية الثلاثة العراة يقفون دون حركة على رأس النار المتقدة في الوسط متلفتين حولهم برعب؛ كأنهم خراف أضحية موجهة للقبلة.

ارتفعت فجأة صرخة حادة مخترقة العتمة الحمراء فتوقف الرقص؛ لكن الصنوج طرقت بجنون، ثم نزل أحد البرابرة المقنعين على وجه أقرب الصبية إليه بقبضة مدهشة فأراد الطفل أن يرجع خطوة للوراء والدم يغطي وجهه وعينيه؛ غير أن الأسواط والعصيان واللكمات والأحجار انهالت على رؤوس وأعين الصبية الثلاثة الواقفين بجانب النيران في المنتصف، فتدحرجوا على الأرض والدماء تغطيهم من أعلاهم لأسفلهم، وانحنى البرابرة على أجساد الصبية المدماة ومن ثم...

شعرت عائشة باشمئزاز شديد من هذا المنظر المهول فقد كانوا يستلذون بطريقة عجيبة؛ مما جعلها تطلق صرخة حادة عن غير قصد ثم خرجت من بين العشب الذي كانت تختبئ داخله وبدأت في الركض.

غير أن زعيمهم ذا القناع الأطول والأكثر رعبًا المغطي كل جسده بالريش وأوراق الشجر الذي كان يراقب مشهد الهجوم على الأطفال من بعيد؛ رآها، وبينما كان رجاله منهمكين في مص الدماء الموجودة في أجساد الأطفال؛ كان هو يلحق بها.

ما إن لاحظت عائشة أنها مطاردة؛ حتى بدأت في الصراخ كالأطفال:

- «أمي! أمي!».

تسمر زعيم الدق دق للحظة في مكانه؛ كأنما اندهش من صوت المرأة الشابة التي صاحت «أمي!» بلهجة إسطنبول الخالصة في غابات غينيا الجديدة، ثم بدأ في الركض ثانية بسرعة أكبر.

كانت المسافة بينها وبين الزعيم تتناقص تدريجيًّا، كما كان هو الآخر يصيح صارخًا؛ غير أنها لم تكن تسمع صراخه الداعي لطرق الصنوج وإقامة المراسم، كأنما أصابها الصمم والعمى نتيجة الخوف، فباتت تركض كالمجنونة دون أن ترى أو تسمع أي شيء.

تناقصت المسافة بين الفريسة ومطاردها للغاية...

ثم تهاوت عائشة فسقطت على وجهها على الأرض وفقدت وعيها.

انحنى زعيم الدق دق فوق عائشة التي سقطت على الأرض مغشيًّا عليها وبدت كبقعة بيضاء داخل ظلمة الغابة، مس وجه الفتاة الشابة وتخلل شعراتها بيديه ثم فحص رأسها، كانت لفة الهدايا لا تزال في يدها ففتح هذه اللفافة وقلبها وأخذ إحدى علب الكبريت فأشعل عودًا منها وحاول إضاءة وجه عائشة.

بدا وجهها الممتقع في ظل دخان الكبريت المشتعل كأنه في حلم، فأشعل عود ثقاب آخر ثم تلاه بآخر، سرى في أوصاله ارتباك عجيب، فانتزع حزمة عشب من الأرض وعندما بان وجه عائشة بكل ملامحه في حمرة اللهب التي سطعت فجأة؛ أطلق الدق دق صرخة مخيفة ثم انكب على عائشة وأجهش في البكاء أسفل قناعه المرعب...

بدأ الرقص من جديد في محل المراسم الذي صار على بعد خمسمئة متر، فرفع البربري ذو القناع المخيف عائشة من على الأرض واحتضنها، ثم وقف؛ كان من الواضح أنه يفكر هذه المرة، فلم يعد يبكي، ومن ثم بدا أنه حل عقدة تفكيره؛ فسار متوجهًا ناحية المراسم، وكانت عائشة لا تزال في حضنه مغشيًّا عليها...

5

الجماعة السرية الأكثر رعبًا في العالم

فتحت عائشة عينيها داخل الفراغ، فاعتدلت ببطء؛ كانت داخل عشة، وقعت عيناها على السقف؛ فأرادت الصراخ بجنون والقفز من مطرحها؛ لأنه كان يتحرك هناك تمساح معلق من رأسه وذيله بالأعلى.

قلنا إنها أرادت القفز من مكانها؛ لكنها لم تستطع، ربتت يد على كتفها ونطق صوت رجل رقيق بلهجة إسطنبولية نقية:

- «لا تخافي؛ يا ابنتي!».

التفتت عائشة إلى اليمين كالمخبولة فبهتت لوهلة ثم صرخت فجأة:

- «أبي!».

ومن ثم ألقت بنفسها في حضن الرجل الأبيض الملتحي الجاثم على ركبتيه على الأرض إلى جوارها...

- «أجل؛ أنا يا ابنتي... والدك!.. عرفتِني؛ أليس كذلك؟! عرفتِني ما إن رأيتِني؛ أليس كذلك؟!».

لم تستطع عائشة الجواب وانهالت وسط نحيبها على وجه أبيها وعينيه ولحيته البيضاء الطويلة بالقبلات...

- «ابكي يا ابنتي؛ ابكي... وافضي بما لديك!».

- أبي!.. أبي!..

تحدثت مع والدها لمدة طويلة بكل ما خطر على بالها لكن بجمل قصيرة ومتقطعة

وحكت له عن كل ما مر بحياتها منذ غادرهم وحتى هذه اللحظة، ثم سألته:

- «حسنًا؛ لكن من أحضرني إلى هنا؟ وكيف لم يقتلني ذلك البربري المتوحش الذي كان يطاردني؟».

أجابها والدها:

- «وهل يمكن أن أقتلك يا ابنتي؟».
- «لا أفهم ما تقصد قوله يا أبي؟».
- «ذلك البربري المتوحش الذي طاردك هو أنا».
- «أنا لا أفهم شيئًا..».
- «سأحكي لكِ؛ لكن يجب أن أبدأ من البداية، وأنت الآن لا تزالين متعبة وأظن أنكِ لن تتحملي الاستماع».
- «لا، أنا بأحسن حال، احكِ يا حبيبي! من البداية..».

بدأ مختار يحكي:

- «تركونى مريضًا وحيدًا أمام منجم الذهب وفروا؛ تعرفين هذا، ثم شن صائدو الجماجم المخيفون هجومًا بعد ساعتين أو ثلاث تقريبًا من فرارهم، واندهشوا عندما لم يجدوا أحدًا غيري، وفحص زعيمهم رأسي، وعندما أعجبه حملوني إلى قريتهم لأجل قطعه وتعليقه في العشة حسب المراسم؛ لكننا عندما وصلنا القرية وجدنا ابن الزعيم الأقرب لقلبه مريضًا، ولم تُجدِ معه جهود السحرة لمعالجته كما في القصص القديمة بالضبط، فأخبرتهم أني استطيع علاج الشاب راويًا لهم همي وما جرى لي، وحكيت لهم كيف سرق علي حزمة الكينين خاصتي وخبأها بينما كنت في منجم الذهب، وأني وجدتها كلها بعدما ذهبوا في خيمة علي التي تركوها.

قمت بتقمص دور الحكيم لقمان وخمنت أن ابن الزعيم الذي علق عينيه على رأسي مصاب بالحمى، وبعد علاجه بالكينين لمدة أسبوع، صار كالفجل واستطاع النهوض على قدميه، وتزايد احترامي على الفور ما إن نهض المريض الذي لم يستطع أيٌّ من

السحرة علاجه على قدميه وأنقذت رأسي؛ لكني بت أسيرًا له مقابل حياتي؛ وبالرغم من تصديقه لي؛ إلا أنه عين عليّ ثلاثة حراس ضخام الجثة كي لا أهرب ذات يوم ويفقدني، وثلاثتهم يعقبونني أينما ذهبت ولا يسمحون لي بخطو خطوة خارج القرية...

مضى أربع أو خمس سنين تقريبًا على هذه الحال؛ لأني ما عدت أحسب الأيام ولا حتى الشهور.

وذات يوم هجمت قبيلة أخرى على قبيلتنا، فهزمونا، وطلب المنتصرون منا ثلاثين امرأة وثلاثين خنزيرًا بالإضافة إليَّ مقابل الصلح، طلبوني أنا؛ الساحر الأبيض الذي يعالج الأمراض.

تم نقلي مع الثلاثين امرأة والثلاثين خنزيرًا، وخدمت سادتي الجدد -أيضًا- لمدة طويلة، واكتشفت أدوية جديدة بنفسي؛ لأني كنت على علم بأني إذا لم أنجح في عملي وعلاج الأمراض سيقطع رأسي على الفور وتُزين به العشة فكنت أقوم بالتجربة غاليًا بعض الأعشاب، أو خالطها بعضها ببعض مما منحني صيدلية مكتملة.

وفي هذه الآونة وصلت شهرة الملكة إيما إلى قبيلتنا، وسمعنا بمنافستها للسحرة، وأردت أنا -أيضًا- الانضمام لهذه المنافسة؛ لكن الزعيم لم يدُعني؛ كي يمنع أي تواصل لي مع البيض، وحتى عندما جاء المبشرون الإنجليز إلى القرية، أرسلوني إلى الغابة على الفور وخبؤوني هناك.

ثم أصبحت الملكة إيما كبيرة السحرة وسمعت بي وطلبت رؤيتي؛ لكن الزعيم لم يُرني أنا -أعظم كنز يمتلكه- لها مخافة إصابتها لي بالبوري بوري، ولم تصر إيما كذلك.

ثم مضى وقت طويل وسمعت بوقوع اثنين أبيضين في الأسر؛ غير أني كنت قد اعتدت الأسر وأيقنت استحالة نجاتي من هنا ولم أعد أهتم نهائيًّا بالبيض، بالإضافة إلى أنه لم يكن مسموحًا لي بأي تواصل مع أي أحد غير أهل القبيلة كما ذكرت آنفًا.

وقد توفي زعيم قبيلتنا قبل خمسة أيام؛ ليس بسبب قلة خبرتي ولكن بابتلاع التمساح الذي رأيتِه له.

واعتقادًا بأن الحيوان الذي ابتلع زعيمنا –الزوج الأول لتولاما- يُوحى إليه بوحي مقدس لأنه يحمل في بطنه هذا الشرف، قبضوا عليه ونقلوه إلى وسط القرية ثم تركوه.

فمن سيدخل التمساح إلى عشته يكون هو الزعيم الجديد، وهذا ما حدث؛ فقد توجه التمساح المقدس مباشرة لعشتي، ويبدو أنه وجد في عشتي ضالته لدرجة أنه ولجها من بابها المفتوح.

وبناءً على هذا انقضى الأمر وتم إعلاني زعيم القرية.

بيد أن زعيمنا كان في الوقت نفسه يعد زعيمًا للدق دق؛ ولهذا صرت –أيضًا- زعيمًا لهم».

سألته عائشة:

- «ومن هم الدق دق هؤلاء يا أبي؟».

تخلل مختار بأصابعه لحيته البيضاء ثم أجابها:

- «لا أعلم كيف أشرح لكِ يا ابنتي؛ الدق دق هو اسم أشرس وأكثر جماعة سرية مرعبة من برابرة غينيا الجديدة ويطلق عليهم على سبيل الاختصار الدق دق، وسر هذه الجماعات السرية الغامضة هو أحد أكوام الأسرار التي تكتنف حياة الناس هنا.

فهذه الجماعات لا توجد هنا فحسب؛ أي أنها لا تختص بغينيا وحدها، بل إن وجودها يصادفك كثيرًا في بلاد الشرق الأقصى وخاصة بالصين، وعلى ما يبدو أنها رحلت من الشرق إلى جزر غينيا الجديدة، وهذه الجماعات تتمتع منذ القدم بنفوذ مدهش في غينيا الجديدة؛ لكنها تفقد قوتها يومًا بعد يوم جراء محاربتها من قبل الإنجليز في الآونة الأخيرة.

فالدق دق هذه تعد أضخم جماعة سرية في غينيا الجديدة كما ذكرت من قبل، والغاية التي تلهث خلفها وتريد تحققها هي: التمتع بالسعادة والثراء والحب.

ستقولين؛ ولم تكون جماعة تسعى وراء غاية بسيطة ونافعة بهذا القدر؛ سرية؟!

وأين هذا خاصةً مع بشاعتهم هذه؟

لكنكِ إن علمت الوسائل التي يستعين بها ويستخدمها القرويون لأجل التمتع بالسعادة والثراء والحب سيتغير الأمر عندئذٍ.

إذ يجب أولًا للحصول على السعادة قطع رؤوس أكبر عدد من الناس وتعليقها في سقف العشة؛ وهذا يأتي في المرتبة الأولى لمباعث السعادة لديهم؛ لكن لو استنكر عقلك ما يفعله هؤلاء؛ ففكري كيف يبتهج الأناس البيض بالحروب، وستعرفين أن مباعث السعادة لديهم ليست مرعبة بهذا القدر.

ثم يسلكون طريق الاستيلاء على خنازير الآخرين بالإجبار والعنف؛ كي يحوزوا الثراء، وبهذه الطريقة تثري جماعة الدق دق أعضاءها دون تكبد أي عناء، وكي لا تستغربي هذا؛ انظري ماذا فعل جوكسل كي يصبح غنيًّا.

أما الغاية الثالثة والأسلوب الذي ينتهجونه لأجل تنفيذ شعار الاستفادة القصوى من الحب فيبدو أكثر عملية؛ إذ إن الدق دق لا يتزوجون، فكل فتيات القبائل المجاورة وأراملها تحت إمرتهم.

يجتمعون كل أسبوع مرة في الغابة ويبعثون خبرًا إلى أقرب قبيلة لهم، وعلى الفور تجبر كل الفتيات الشابة والنساء المحافظات على نضارتهن اللاتي لم يقتلن إلى الآن على الذهاب إلى الغابة؛ وإن لم يذهبن؛ يحرقون القرية على الفور وينهبونها.

وعلى هذا المنوال يحوز أعضاء جماعة الدق دق على الاستفادة العظمى من حب نساء وفتيات أخرى من غابة مختلفة كل أسبوع.

لا يدهشك هذا؛ ألم يكن بيت المدموزيل روز الذي ألقاك به جوكسل؛ شيئًا من قبيل هذا؟

وهكذا يا ابنتي صرت زعيم الجماعة التي تقطع وتعلق ما إن لم تنفذ أوامرها في التو، وأقاموا لي في هذه الليلة مراسم تولي الزعامة، وكان شرط هذه المراسم تقديم ثلاثة صبية قربانًا، ولئلا يدهشك هذا أيضًا؛ فلتتذكري المراسم التي يقيمها البيض لتأبين مئات آلاف الضحايا.

بدأت عائشة ووالدها التفكير معًا وإعداد خطة، ثم عادت هي إلى قريتها مع اثنين

أمنوها ليلًا حتى الصباح.

تعجبت تولاما عند رؤيتها عائشة؛ لكن عائشة لم تقل لها أي شيء وكذلك هي لم تقل لعائشة أي شيء.

ثم أتى خالد جميل فنام فوق الفرو منهكًا ومتعبًا، ثم استيقظ ظهرًا وطلب مياهًا، فقدمتها له عائشة؛ غير أنها وضعت فيها عُشبة صغيرة دون أن يلاحظ، وذابت العشبة على الفور في المياه فشرب المياه ثم غطّ في نومه مجددًا.

حل المساء ولم يفق من نومه، وبدأ ظهور آثار المنوم الذي أعطاه لها مختار؛ وهو أن ينام ثلاثة أيام متتالية.

أتت إيما بوقت متأخر في الليل لأنها قلقت عليه واستغربت عدم ذهابه إليها حتى ذلك الوقت لوجود عمل هام للغاية يجب البت في أمره.

أشارت عائشة لإيما عليه راقدًا ممددًا على ظهره وقالت:

- «إنه نائم».

- «لنوقظه إذًا».

فعلت إيما كل ما بوسعها لتوقظه دون فائدة؛ مع أنه كان حيًّا ويتنفس، فأصابتها الحيرة وتراجعت للوراء.

وفي اليوم التالي جاءت ثانية وعندما وجدته ما زال نائمًا أمرت بنقله إلى عشتها، ولم تكن عائشة قد حسبت حساب هذا؛ إذ كانت ستقوم خلال تنويمه لثلاثة أيام بتغذيته ثم ستنومه ثانية فور استيقاظه، وهكذا يبقى بعيدًا عن سيطرة إيما حتى تنجح الخطة التي أعدتها مع والدها.

لكن الآن الوضع تغير فيجب التحرك بسرعة أكبر؛ لأنه لن يستيقظ في الغد وإنما صباح اليوم الذي يليه وربما هذه المرة لا ترسله إيما لمكان آخر؛ بل تأمر بنقله إلى أحد ملاجئ الغابة المجهولة.

ليس هناك إلا حل واحد؛ أن تذهب وتحكي لوالدها الوضع، فانتظرت حلول الظلام ثم سلكت الممر الذي صارت تعرف طريقه واستطاعت الوصول لقرية والدها في أربع

ساعات، وعندما فهم أبوها الأمر فكر لوهلة ثم اتخذ قراره.

توجه إلى الطبلة المعلقة في شجرة بوسط القرية وبدأ الطرق عليها بكل ما أوتي من قوة، فاستيقظت القرية على الفور وهرول البرابرة بسهامهم ورماحهم وبلطاتهم إلى الساحة؛ لأن الصنوج قد قرعت إشارة الاستعداد للحرب، وأضاءت الساحة بضوء أحمر جراء المشاعل القادمة من كل صوب، فبدأ مختار خطابه باللهجة المحلية:

- «سأقوم أنا –زعيمكم زعيم كل الدق دق؛ أكثر الزعماء شجاعة وامتلاكًا للخنازير والنساء– بتقديم ساحرة جديدة لكم تفوق قوتها قوة إيما بمئات المرات حتى إنها تستطيع إفساد سحر البوري بوري الذي تقوم به إيما كما أنها ستخلصكم من العمل في مناجم الذهب دون مقابل؛ لكن هذه الساحرة تريد أن يأتمر كل السحرة الآخرين بأمرها، وستخلصكم وكل السحرة الآخرين من بوري بوري إيما، فهذه الساحرة قد أرسلتها السماء لي بينما كنت أؤدي مراسم الدق دق ليلة البارحة، وأنا أخافها كثيرًا، أخافها أكثر مما أخاف إيما، وأنتم –أيضًا– خافوها، وافعلوا ما تطلبه منكم أيًّا كان؛ وإلا ستحترق بيوتكم وتموت خنازيركم ولا تستطيعون الاقتراب من نسائكم».

ما لبث تأثير خطابه الطويل هذا أن ظهر على الفور؛ ولا سيما على سحرة القبيلة الحاقدين على إيما الذين أسعدهم كثيرًا هذا الخبر.

أجابه عجوز من أشرافهم:

- «لتظهر لنا الساحرة التي تقول إنها أفضل من إيما تلك، ونحن سنصبح طوع أمرها».

فاستدار مختار لعائشة التي لم تفهم أيًّا مما جرى وقال بالتركية:

- «قدمتك لهؤلاء يا ابنتي على أنك ساحرة أعظم قدرة من إيما، أي أنه لا بدَّ أن تقومي بحيلة تبدو أعظم مما تقوم به إيما لإقناع هؤلاء، فاذهبي على التو إلى عشتي، توجد في الطرف الأيسر منها قصعة ترابية، صبي الماء الموجود فيها على رأسك كأنك تغتسلين، وإن انبعثت منها رائحة حادة نفاذة؛ فلا تكترثي وائتي إلى هنا على الفور».

بعد أن دخلت عائشة العشة لتنفيذ ما قاله، استأنف مختار خطابه ثانية:

- «هذه الساحرة هي المرأة البيضاء التي كنت أتحدث معها وقد ذهبت للابتهال كي تظهر لكم معجزة لم تروا مثلها من قبل، وستأتي الآن..».

أتت عائشة قبل نفاذ صبرهم، وكانت تنبعث منها رائحة حادة عندما تلف رأسها، فأصدر مختار أمره:

- «اذهبوا الآن إلى عشتي واحضروا التمساح المعلق على السقف إلى هنا... هيا!».

أحضر زنجيان التمساح المربوط من رأسه وذيله بعصا طويلة وغليظة فوق أكتافهم، فصاح مختار:

- «دعا التمساح على الأرض وتراجعا!». فتركا التمساح على الأرض وتراجعا ومن ثم وجه مختار سؤاله للجمع:

- «هل يوجد بينكم من يستطيع إدخال رأسه داخل فم هذا التمساح المقدس بعد تحريره وفك يديه وقدميه».

لم يعره أحد جوابًا.

- «لا يوجد أحد! وليس أنتم فحسب؛ بل لا يستطيع كائن من كان فعل هذا! سوى المرأة التي أرسلتها لنا السماء هي فقط من يمكنها القيام بهذا؛ كما سترون..».
ثم التفت إلى عائشة قائلًا:

- «إياك أن تخافي يا ابنتي! اقتربي من هذا التمساح ودوري حوله متمتمة بأصوات كأنما تبتهلين، سبب رائحة هذه المياه التي أرقتيها على نفسك هو أنها تشتمل على نوع من عشب وجدته في غابة غينيا الجديدة وسحقته وأنا متأكد من أن هذه الرائحة ستثمل التمساح، بل إنها ربما تفقده وعيه، وقد أعطت تجربته على ثعبان ضخم نتيجة مبهرة، ولا شك أننا سنحصل على نفس النتيجة من التمساح، وعندما يثمل التمساح ويكاد أن يغشى عليه؛ فكي حباله وافتحي فمه ثم أدخلي رأسك فيها... لا تخافي! هيا يا ابنتي!».

اقتربت عائشة من التمساح ففكوا سلاسله وترقبوا بفضول ورعب وسحبوا سهامهم

وجعلوها على أهبة الاستعداد، فإن لم تستطع الساحرة السيطرة على التمساح بعد فك وثاقه سيقتلونه؛ لكن مختار كان يعلم أنه إذا لم تنجح عائشة سيقطعون رأسيهما؛ لأن الشيء الوحيد الذي لا يسامح فيه البرابرة هو الخداع.

دارت عائشة حول التمساح ثم توقفت، فبدأ الحيوان يتمرغ على الأرض...

ملأ الحماس مختار، ودنت عائشة أكثر من التمساح فهجم مباشرة على ساقها فقفزت عائشة وتراجعت للوراء.

ظل التمساح يتحرك على الرغم من أنه ما زال مقيدًا وكاد أن يتخلص من قيوده، فأدركت عائشة أنها يجب أن تلف أكثر حول رأسه ومن ثم دنت منه قدر المستطاع؛ لأنه يمكن عبر هذه الطريقة فقط أن يتأثر بالرائحة ويدوخ، ثم اقتربت منه بأقصى شجاعتها وجثت على الأرض أمام رأسه بالضبط.

أخذ الحيوان يتلوى ويتخبط كالمجنون، وأراد أن يحرك ذيله؛ لكن حركته بدأت تتثاقل شيئًا فشيئًا وبدأ يترنح، فجثم البرابرة واحدًا تلو الآخر وتكاثرت المشاعل.

دنت عائشة أكثر من التمساح، فقام بحركة أخيرة ثم جمد بلا حركة كأنه جثة فتطلعت عائشة لوالدها فأومأ لها برأسه.

اندهش البرابرة كثيرًا من سكون التمساح فجأة هكذا وخاصة بعد أن بدأت المرأة الشابة في حل حباله وسقط أكثرهم على ظهورهم متراجعين من الخوف في مكان جثوهم.

حلت عائشة وثاق التمساح، فتمرغ الحيوان مرة أخيرة وشحب وجه مختار بشدة ولم تتحرك عائشة.

ثم عاد التمساح كالجثة ثانية ففتحت عائشة بصعوبة كبيرة فكيه الثقيلين، وأغمض مختار عينيه وهب البرابرة على أقدامهم، ثم رفعت عائشة بيدها فك التمساح العلوي وأدخلت رأسها الجميل في هذه الظلمة الحمراء المخيفة ثم أخرجتها.

بدأ البرابرة في الصياح بهمجية، وربطت عائشة الحيوان ثانية ثم ابتعدت عنه بسرعة. أراد مختار أن يحتضن ابنته ويعانقها بفرح إلا أنه أمسك نفسه.

وتقدم ذلك العجوز من مختار وقال:

- «آمنا بقدرة المرأة التي قلت إنها أتت من السماء؛ لكن يلزمنا لكي نفعل ما تطلبه أن نوقن أنها أقوى من إيما حقًّا ولهذا لا بدَّ أن نرى إن كانت إيما تستطيع إدخال رأسها في فم التمساح أم لا!».

قبل مختار هذا الشرط بكل سعادة وقال:

- «حسنًا إذًا! لو استطاعت إيما هي الأخرى سحر التمساح المقدس وإدخال رأسها في فيه؛ سنصبح أنا والمرأة القادمة من السماء أسرى لها؛ أما إن لم تستطع القيام بهذا ستصير هي أسيرتنا».

لم تنم إيما حتى الصباح، وظلت تتطلع إلى خالد جميل النائم بجوارها كالميت وفطنت إلى أن من أرقد هذا الرجل الشاب هكذا هو بلا شك ذلك العدو المجهول الذي تشعر بوجوده منذ مدة.

أشرق الصباح وخالد جميل لا يزال نائمًا. خطر على بال إيما إذ فجأة أن تجر عائشة وتستجوبها، فطرقت بعصا غليظة القبة المصنوعة من ذهب أمام باب عشتها، وجاء الحارس، فأمرته:

- «أحضر لي المرأة البيضاء!».

ذهب الحارس وأبلغها عند عودته أنه لم يجد المرأة البيضاء في عشتها.

- «فتشوا عنها في القرية برمتها وفي كل أطراف الغابة!».

فتشوا عنها في القرية والغابة؛ لكن دون أثر.

ملأ الشك أعماقها حينئذ، فاستجوبت الأربع نساء اللاتي أهدين إلى خالد جميل، ولم تقل تولاما أي شيء؛ كانت خائفة؛ وبالرغم من ضربهن جميعًا بالسوط؛ لم تظهر أي نتيجة.

كادت إيما أن تجن...

بينما كان خالد جميل لا يزال نائمًا، كان أول عمل تقوم به إيما على سبيل الاحتياط في مواجهة عدوتها المجهولة هو أن تأمر بنقله إلى ملجأ سري في الغابة، ولم يكن

يعرف مكان هذا الملجأ سواها غير اثنين ضخام الجثة ذوي شجاعة وقوة وبأس، وكانا يؤمنان إيمانًا مطلقًا بإيما وتربطهما بها صلة راسخة، كما كانا على علاقة بها في وقت من الأوقات.

جمعت إيما كل أهل القرية بعد نقل خالد جميل على حمالة بواسطة هذين العبدين المخلصين إلى الملجأ السري، وأخبرتهم أن عليهم الاستعداد لحرب قاصمة قادمة، وقبل أن يتفرق الجمع تناهى إليهم طرق صنوج قادم من الغابة.

أرسلت إيما فرقة الاستقبال على الفور إلى الغابة؛ لأن طرق الصنوج إشارة لاقتراب جماعة من قبيلة صديقة ومهادنة.

أتت فرقة الاستقبال في المقدمة يتبعها الضيوف، كانت رؤوسهم مغطاة بأقنعة الدق دق، وكانوا قرابة العشرين شخصًا.

ألقي خطاب الاستقبال الطويل بالتبادل بينهما وتمنى كل منهما للآخر السلامة للخنازير وكثرة إنجاب الرجال.

وبعد تمام جميع المراسم تقدم رئيس القادمين إلى إيما وقال:

- «أنا زعيم صائدي الجماجم الأشد قوة والدق دق يا كبيرة السحرة! وقد أتيت لمنافستك بامرأة أرسلت لي من السماء مساء البارحة، نحن نعلم أنك تستطيعين إفساد البوري بوري وتبتلعين الحديد الحاد القاطع وتخرجين النار من فمك؛ لكن هذه الساحرة القادمة من السماء تدعي أنها أقوى منك؛ فإما أنها كاذبة وفي هذه الحالة سنقطع رأسها أو أنها أقوى منك حقًّا وفي هذه الحالة ستصبحين أسيرتها».

شحب وجه إيما وأدركت أنها في مواجهة عدو مجهول، وأنه لا مجال أمامها للتراجع؛ لأنها إن لم تقبل المنافسة ستخسر كل نفوذها وسيطرتها على البرابرة، فقالت:

- «ليكن! سأثبت لكم كذب هذه الساحرة القادمة من السماء وأظهر لكم أني أقوى ساحرة، مع قبولي بكل شروطكم».

بعث رئيس الدق دق –أي مختار- برجل إلى الغابة فذهب ثم ظهرت بعد قليل عائشة في المقدمة وورائها رجلان يحملان التمساح المربوط في العصا.

وبمجرد أن رأت إيما عائشة صرخت: «وضيعة!». ثم همت بالقفز عليها إلا أن من حولها منعوها، كما قال مختار:

- «لا تغضبي يا إيما! هذه هي المرأة التي قالت إنها ستنتصر عليك وأنت قبلت بشروطها، ستفعلين مثلما ستفعل وحينئذ سنقطع نحن رأس هذه المحتالة».

ردت إيما:

- «حسنًا! لتظهر مهارتها وترينا ماذا سيحدث في هذا التمساح؟».

- «سترين الآن!».

اقتربت عائشة من التمساح المقدس وفتحت فمه بعد أن خدرته ثم أدخلت رأسها بداخله وبعدها أعادت ربطه، فتعالت صرخات التقدير والخوف من حولها؛ أما إيما فخافت وامتقع وجهها وصارت أشبه بجثة، الاقتراب من التمساح وحل وثاقه ثم فتح فمه وإدخال رأسها في هذا التجويف المظلم؛ لن تستطيع فعل أي من هذه الأشياء.

وفي الحال سطعت في ذهنها فكرة كالبرق فألمحت بعينيها لعبديها المخلصين كما أنهما كانا في وضع الاستعداد، ثم اقتربت من التمساح الذي كان يتحرك متمرمغًا على الأرض وقد أفاق من ثمالته، وكان بيدها السيف القاطع الذي تبتلعه في لعبتها السحرية، فأنزلته بضربتين محنكتين على الحبال التي تربط التمساح بالعصا، فقطعت، وتوجه التمساح إثر ذلك إلى الجمع ببطء فهاج الجمع وماج إذ فجأة.

وبدأت إيما في الهروب إلى الغابة تحت حماية عبديها المخلصين مستفيدة من هذا الوضع، واجتاحت الدهشة من حولها وحتى عائشة ومختار اللذان لم يتوقعا حدوث هذا؛ لكن دهشتهما هذه لم تستمر طويلًا، فتعقبا أثر الهاربة؛ لكن أثرها ما لبث أن اختفى ما إن وصلت إلى الغابة.

لم تنضم عائشة للتعقب فقد ذهبت إلى عشة إيما راكضة كالمجنونة وعندما لم تجد خالد جميل هناك عادت كالمجنونة، كما عاد المتعقبون منهكين.

قال مختار:

- «لا بدَّ أنها ذهبت لملجأها السري!».

صرخت عائشة:

- «وخالد جميل كذلك ليس موجودًا يا أبي!».

- «كان من الواضح من البداية أنها سترسله يا ابنتي، فلا تبكي وتمالكي نفسك! لا يجب أن يروكي قلقة هكذا، وسنجده على أي حال، لكن الهدف الأساسي لهذا كان هزيمة إيما وقد انهزمت هزيمة منكرة لا يمكنها تجاوزها فهي لم تعد تستطيع السيطرة حتى على أعمال مناجم الذهب بعدئذ».

التف البرابرة حول الأب والبنت بينما كانا يتبادلان الحديث وبدؤوا في الرقص على شرف الملكة الجديدة كبيرة السحرة، استمرت المراسم حتى حلول الظلام وأعطيت لعائشة عشة إيما وذبحت قرابين الخنازير والأرامل العجائز.

بيد أن عائشة كانت تترقب عودة الدق دق الذين ما زالوا يقومون بالبحث في الغابة دون أدنى اكتراث بأيٍّ مما يدور حولها، ثم جاء هؤلاء -أيضًا- وقالوا أنهم لم يستطيعوا العثور على إيما.

بكت عائشة جاثية عند ركبتي أبيها حتى الصباح، وفي اليوم التالي اجتمع المجلس الكبير وقرر أنه يجب القبض على الهاربة الرذيلة وقطع رأسها مهما كان مبررها، وفي هذه الأثناء التفتت بغتة رؤوس هيئة الشورى المجتمعة في ساحة القرية إلى السماء فقد ظهر فيها طائر ضخم يصدر ضجيجًا مرعبًا.

صرخ البرابرة:

- «طائر إيما!».

فعقبت عائشة:

- «ها قد هربت إيما بإحدى الطائرات الموجودة في منجم الذهب! وأخذت معها خالد جميل!». ثم تهاوت أرضًا.

6

العودة إلى إسطنبول

رحل مختار مع عائشة إلى عاصمة غينيا الجديدة؛ لكن رحيلهم لم يكن سهلًا أبدًا؛ حيث لم تكن القبائل لتدع الزعيم وكبيرة السحرة بيسر؛ لأنهما أبيضان ويمكن إن خرجا من بينهم ألا يعودا ثانية؛ ولذا كان على مختار أن يبذل كل ما بوسعه لإقناع أشراف القبيلة، وفي النهاية قال لهم ذات ليلة:

- «تقول المرأة القادمة من السماء إنه إذا لم تساعدوها وتتركوني في عونها لإيجاد الرجل الأبيض الذي هربته إيما؛ فستهجم كل التماسيح القابعة في النهر والبحيرات على خنازيركم ونسائكم».

آتى هذا التهديد أكله، فقبلوا برحيل زعيم الدق دق مع كبيرة السحرة مخافة أن تمزق التماسيح خنازيرهم ونساءهم، ولم تجد عائشة ولا مختار مانعًا في أن يقسما لهم بعظمة وقدرة التمساح المقدس.

ظلت عائشة ومختار شاردين في التفكير، ومن ثم خرجا في الصباح الباكر برفقة مرشدين ومعهما مؤونة الطريق، وبعد أربع أو خمس ساعات من السير في الغابة التفت مختار لعائشة فجأة وقال لها:

- «سأخبرك بشيء غريب يا ابنتي؛ يجتاح أعماقي حزن غريب كلما ابتعدت خطوة عن هذه الأراضي؛ حزن مبتذل، أنا هنا منذ أعوام على أي حال، ألا يعتاد الإنسان حتى على السجن. إنك أول إنسانة مدنية أراها منذ أعوام. نسيت ضوضاء المدن وصخبها؛ وحتى إسطنبول لا أتذكرها بوضوح، فقدت الكثير من عاداتي وتقاليدي القديمة واكتسبت عادات أخرى جديدة لا تتوافق أبدًا مع الناس في الحياة المدنية.

والآن ماذا أفعل وسطهم؟ حتى تناول الطعام بالشوكة والسكين نسيته وأعتقد أن الجميع سيسخر مني، ثم ومن يدري إلى أي حد تغير البلد؟ فالآن النساء لا يرتدين الشرشف أليس كذلك؟ وتقولين إنهن يخرجن من البيوت كذلك، كما حلت القبعة محل الطربوش. لا أقول إني لست شغوفًا حيال هذا؛ لكني لسبب ما تحزنني مغادرتي هذا المكان».

لم تكن عائشة تصغي لكلام أبيها، فقد كانت لا تزال مستغرقة في التفكير؛ فقدت خالد جميل حبيبها في سبيل والدها لأجل إيجاده، وسيطرت على عقلها فكرة أنها لن تستطيع الحصول على السعادة أبدًا، خطر جوكسل على بالها فجأة؛ يا تُرى ماذا جرى له؟ انتابها شعور بأنها صارت مع أبيها عُزلاء في مواجهته بعد فقدان خالد جميل.

كيف وأين ستجده وهل يمكن أن تجده؟ لم تكن تعرف الجواب على شيء من هذا!

قضوا ليلتهم في الغابة ولم يقع شيء؛ سوى هجوم نمر على معسكرهم قبيل الصباح ودحرهم له.

قال مختار لابنته بينما كانا يخرجان:

- «أتبدو لك هيئتي وقيافتي مستهجنة يا عائشة؟ نحن ندنو في كل لحظة من العاصمة وأنا إلى الآن ما زلت عاريًا في زي زعيم الدق دق ولا يمكن أن أظهر هكذا بين الناس المدنيين».

نظرت عائشة إلى والدها ووجدته بالفعل أشبه ببربري متوحش لكنه بربري أبيض أحرقت الشمس جلده!.. ثم ألقت نظرة على نفسها، فانتابها الخجل حينئذ فقد كانت هي الأخرى تقف عارية مقابل أبيها.

فانطلقت الضحكات منهما ثم قالت عائشة:

- «ربما نقابل كتيبة إنجليزية بعد قليل، فيعطون لك معطفًا وبنطالًا ويعطونني أنا -أيضًا- شيئًا يشبه التنورة».

تصادفوا ظهرًا مع كتيبة تتكون من عساكر محليين ويقودها جنديان إنجليزيان، قابل الجنديان هذه القافلة التي تتضمن اثنين أبيضين بربريين بمزيج من التعجب

والحيرة؛ وأدهشهم بشكل خاص هذه المرأة البيضاء البربرية شبه العارية التي تتحدث الإنجليزية بطلاقة.

شرحت الموضوع بأكمله لهم وسألتهم إن كانوا سمعوا شيئًا يتعلق بالملكة إيما. لم يكن لديهم أي معلومات عنها إلا أنهم أعطوا لعائشة قطعة قماش كبيرة خفيفة؛ كانوا يتغطون بها مثل الملاءة ليلًا.

خاطت عائشة لنفسها تنورة من قطعة القماش هذه فتحسر الإنجليزيان لأنهما سترا هذا الجسد الجميل، وقدما لمختار بنطالًا ومعطفًا ثم ودعاهما وتفرقت الجماعتان.

وبعد انتهاء رحلتهم التي استمرت خمسة عشر يومًا، وما إن وطأت قدما عائشة ومختار أرض العاصمة؛ أمرا مرشديهما بالرجوع ثانية، وتذكرا أنه ليس معهما أي نقود.

كان كل شيء في عاصمة غينيا الجديدة بالأجر؛ لكن الأب وابنته لم يكونا يمتلكان أي نقود، فقد كان أحدهما قد نسي مفهوم المال تمامًا أما الآخر فقد نسي التعامل به تقريبًا.

قالت عائشة:

- «لنذهب لمعارفي هنا! فقد ذهبت إليهم عندما أتيت مع خالد جميل إلى هنا، وحتى إنني سمعت اسم الملكة إيما لأول مرة منهم».

استقبل أصحاب البيت مختار وابنته بسرور وفضول، وكان أول سؤال طرحته عائشة يتعلق بإيما إلا أن الجواب الذي تلقته أحزنها لدرجة جعلتها تبكي منتحبة.

فقد أتت إيما بإحدى طيارات مناجم الذهب إلى هنا قبل عشرين يومًا، وكان برفقتها بربريان ضخما الجثة وشخص أبيض مريض، فمكثوا في فندق هنا ثم استأجرت يختًا وتحركوا قبل يوم إلى مدينة مجهولة.

سألتهم عائشة:

- «وهل أخذت هذا الرجل المريض معها؟».

- «أجل؛ أخذت هذين الزنجيين وهذا الرجل الأبيض المريض أيضًا».

انطلقت عائشة ووالدها إلى الشارع قبل أن تسمع المزيد ما إن علمت بهذا وهرولا ركضًا إلى مركز العاصمة.

كان الحاكم شخصًا إنجليزيًّا بارد الأعصاب فارع الطول نحيلًا للغاية؛ يدخن الغليون دون توقف، استمع لعائشة وأبيها بخمول ثم سألهما مع نفس الخمول بصوت خافت:

- «ماذا تريدانني أن أفعل؟».

- «أن تضبط يخت إيما وتسلمنا الرجل الأبيض المريض الذي هربته..».

- «ليكن؛ لكن ماذا يقرب لكما هذا الرجل الأبيض؟».

أدرك مختار أن ما حكاه منذ قليل لم يجدِ نفعًا، فقال بصوت أجش ومن ثم ترجمت عائشة كلامه:

- «الرجل الذي هربته يكون زوج ابنتي وصهري».

- «حسنًا؛ لكن ومن أدراك أنها هربته قسرًا؛ ولم يهرب هو معها برضاه؟».

حدقت عائشة في وجه أبيها فاجتاحه الغضب بشدة، وخافت عائشة من أن يقوم بفعل من أفعال زعيم الدق دق البربرية فقالت له:

- «توقف يا أبي، لنشرح له الوضع مرة أخرى!».

وشرحت له مرة أخرى، فرفت عينا الإنجليزي الزرقاء الذابلة وقال:

- «لو فرضنا أني قبلت بروايتكما؛ فلا أملك المال ولا الوسيلة التي يمكنني بها تعقب اليخت؛ لأن..».

برقت فكرة في ذهن مختار فدنا من الإنجليزي وهمس له:

- «انتبه لي يا مستر؛ لو أنك ساعدتنا في ضبط يخت إيما وأنقذت الرجل الأبيض سأدلكم على مكان منجم ذهب في حوزتي لم يعمل به أحد من زمن ولا يعلم أي أحد اليوم بوجوده».

لمعت حدقتا الرجل الطويل عندما ترجمت له عائشة هذا الكلام إلى الإنجليزية فنزع غليونه مستغرقًا في التفكير ثم التفت إلى عائشة وقال لها:

- «أبلغي والدك أنه إن كان حقًّا سيدلني على مكان منجم الذهب؛ فالوضع يختلف؛ لأنه يمكنني الآن أن أحصل منه على أجرة ما سأفعله لكم، كما أن خزينة الدولة لن تضار..».

ضحك مختار عندما ترجمت له ابنته هذه الكلمات وقال:

- «لا تقلق! لن تضار خزينة الدولة بل إنها ستزيد جراء الثروة التي ستستخرجونها من هناك، ولتأخذ أنت الفائض أيضًا... إياك أن تترجمي له جملتي الأخيرة هذه!».

بعد خمس ساعات من تقديم مختار للمعلومات المتعلقة بالمنجم ورسمه لخرائطه؛ تحرك زورق مسلح تابع لخفر السواحل، وكان يقودها جندي شاب متحمس لخوض المغامرة التي كلفوا بها منذ قليل، كما أنه كان خطيب فتاة من صديقات عائشة الإنجليزيات القدامى؛ ولهذا كان يريد مساعدة عائشة ووالدها وضبط يخت إيما كي ينال إعجاب خطيبته.

قاد المركب بأقصى سرعة في اتجاه أستراليا؛ لأن إيما ذاهبة إليها على الأغلب، وبعد ساعة من تحركهم من المرفأ هاجمتهم عاصفة من عواصف البحار الجنوبية المخيفة الشهيرة التي تهب على حين غفلة.

أخذت الأمواج تعلو تدريجيًّا ثم بدأت تتسارع وتتقلب فوق بعضها ويكأنها جبال ذات قمم جليدية تنهار إثر زلزال، فاضطر الجندي الشاب لتحويل مساره، ومن ثم سار هذه المرة في اتجاه جزر بريطانيا الجديدة.

لم تهدأ العاصفة ليلًا، فمكثت عائشة في القمرة الصغيرة بينما كان مختار بجانب الجندي الشاب في كابينة القبطان بالأعلى.

سكنت العاصفة صباحًا، واستوى البحر وأصبح كالملاءة المفرودة إذ فجأة كما اهتاج مساءً فجأة، فصعدت عائشة إلى ظهر المركب أسفل أبيها وأخذت تلف يمينًا ويسارًا متهالكة بعد الليلة التي قضتها بلا نوم من التعب.

صاح الجندي الثاني من كابينة القبطان فجأة:

- «ثمة مركبة على بعد خمسة أميال تظهر بوضوح ناحية العلم!».

صعدت عائشة إلى كابينة القيادة يملأها الحماس، فأخذت منظار الجندي الثاني، وكانت هناك بالفعل مركب أبيض ذو مدخنة صفراء يقف دون حركة فوق البحر الساكن وقد كُسرت ساريته الخلفية من المنتصف.

ثم جاء مختار والجندي إلى كابينة القيادة ودور الجندي دفة المركب ووجهه بأقصى سرعة تجاه المركب ذي المدخنة الصفراء، وبدؤوا يقتربون شيئًا فشيئًا منه وكلما اقتربوا اتضح لهم أنه يخت وليست مركبًا.

صاح الجندي:

- «إنه يخت إيما!».

كانت ثمة أشباح تتحرك على سطح اليخت وقد بدا ارتباكها جليًّا، فلم يلبث الجندي أن جذب الصارية باعثًا لهم بإشارة «أن استسلموا!»؛ لكن إيما لم تجب.

أصبحت المسافة في ما بينهما نصف ميل، ميزت عائشة شيئًا فشيئًا بمنظارها إيما على سطح اليخت مستندة إلى جانبه تراقب المركب المتقدمة نحوهم ووراءها البربريان ضخما الجثة، ثم ملاحان، وقبطان في كابينة القيادة.

نزلت عائشة ووالدها إلى الأسفل وبدآ في المراقبة من النوافذ المستديرة في القمرة التي تقع تحت كابينة الجندي الآخر.

التحمت المركبتان ببعضهما فصرخت إيما:

- «لسنا سفينة قراصنة؛ فلم تشيرون إلينا بإشارة «التسليم»؟ أوراقنا على وشك الوصول، أحرقت عاصفة البارحة القائم وتعطلت المحركات..».

زعق القبطان:

- «تلقيت أمرًا بتفتيش يختكم، وسأطلق النار فورًا في حال أبديتم أدنى مقاومة».

عبر الجندي الشاب وستة بحارة إلى يخت إيما، فألقى عليها التحية، وكانت ترتدي مايوه أسود لامعًا رقيقًا ومكشوف وقصيرًا للغاية؛ يلتصق ببدنها كجلدها.

اتسعت عيناه بانبهار حين وقوعها على إيما للمرة الأولى ثم تجمد مكانه كالمسحور، فقالت إيما بلهجة ناعمة لكنها في الوقت نفسه آمرة:

- «لا أدري علام تبحث وماذا تريد العثور عليه هنا؟ لكن ألا تقبل أن تحتسي مشروبًا باردًا في قُمرتي حتى يفتش رجالك ويعثروا على ما يريدون؟».

قبل الجندي الشاب هذا العرض بعد تردده قليلًا؛ لكنه أصدر الأوامر لرجاله أولًا بالانتشار في يخت إيما، وكانوا يعلمون أن ما يبحثون عنه هو رجل أبيض يدعى خالد جميل.

دلف الشاب مع إيما إلى القمرة الواقعة بجانب راية اليخت؛ وكانت حجرة كبيرة إلى حد ما مزدانة بجلود نمور ومقاعدها وآرائكها مصنوعة من جلود تماسيح فتية، كما أنها كانت تفوح بداخلها رائحة مخدرة.

قالت إيما:

- «تفضل!».

فجلس الشاب على أحد المقاعد، وسألته إيما:

- «بم تأمر؟».

فرد:

- «لا أعلم؛ لكن لو يوجد ويسكي مثلج..».

ظل الجندي الشاب يتعقبها بعينيه كالمخبول وهي تسير إلى خزانة المشروبات منحنية بجسدها الرائع انحناءات لطيفة.

وكما تردد الألسنة؛ فوجود شاب بمفرده مع سيدة البحار الجنوبية الأجمل على الإطلاق كافٍ لفقدانه صوابه، جز الشاب على أسنانه وفكر في خطيبته، ثم حدثته نفسه «أنت شاب! وكل شاب بإمكانه القيام بهذا حتى الزواج، وإن الفرصة واتتك فلم لا تنتهزها؟ لا ضير في قليل من السفاهة».

ألقت إيما بشيء أسود صغير ومستدير في كأس الويسكي خاصته وذاب هذا الشيء في الكأس على الفور، وبينما كان الشاب يجترعه بشهية كبيرة ميز رائحته العجيبة وطعمه الغريب؛ إلا أنه لم يعلق بشيء.

كانت إيما لا تزال تقف أمامه، فسألها:

- «ألا تجلسين؟».

فأجابته إيما ضاحكة:

- «وهل يتسع المقعد لكلينا؟».

تم تفتيش السفينة من أعلاها لأسفلها وعُثر على خالد جميل في قعرها فقد كانت إيما قد خبأته هناك عندما رأت اقتراب المركب منهم.

كان خالد جميل فاقدًا لوعيه وعندما سأله البحارة عن اسمه لم يرد فصعدوا به إلى سطح اليخت وطرق أحدهم باب القمرة المجاورة للراية التي دخلا إليها.

فأتى صوت غريب للجندي الشاب من داخلها:

- «ماذا هناك؟».

- «عثرنا على الرجل الأبيض!».

ويبدو أن هذا الخبر أثار الاضطراب بالداخل؛ حيث تردد صوت إيما وهي تتحدث بأمور على عجلة، ثم سكتت الأصوات، فطرق البحار الباب ثانية وألقى الخبر مجددًا:

- «وجدنا الرجل الأبيض..».

وكان الجواب الذي تلقاه:

- «رائع! خذوه إلى مركبنا وسلموه لهذين المسافرين!».

نفذ البحارة الأمر فأخذوا خالد جميل وذهبوا به إلى مركبهم. جلبت عائشة حبيبها الراقد مغشيًّا عليه فوق أريكة في الصالون وأخذت تبكي بنشيج كالأطفال وتصرخ قائلة:

- «أسيمكننا إنقاذه يا أبي؟ أنقذه أرجوك!».

فأجابها مختار:

- «لا تخافي يا ابنتي! لقد فهمت الوضع مسبقًا عندما حكيتِه لي، لقد لقمته إيما «حبوب العشق» على الدوام، وربما يبدو التعبير بتلقيمه الحب مضحكًا؛ لكن

نتيجته ليست مضحكة بالتأكيد، فهذا الحب هو أقوى اختراع لسحرة غينيا الجديدة؛ لكنه في الوقت نفسه الأكثر خطورة... فالبرابرة المتزوج أغلبهم بثمان وتسع وعشر وحتى عشرين امرأة يموتون بعد سنتين بداء السل جراء تعودهم على هذه الحبوب المصنعة بمزج دماء نوع من التماسيح بعشب ينمو في غابات غينيا الجديدة؛ لكننا أدركناه في الوقت المناسب ويمكننا إنقاذه.

هبت عائشة على قدميها توًّا بعد أن أنصتت لوالدها بنفاذ صبر وصرخت في البحارة الذين ما زالوا في قمرتهم ولم يخرجوا إلى الآن:

- «لم لا تتحركون؟ وماذا تنتظرون؟ هيا بنا لنذهب من هنا!».

- «ننتظر الجندي..».

- «وأين هو؟».

- «على المركب الآخر؛ في قمرة الملكة إيما..».

حدقت عائشة في وجه أبيها فقال:

- «شيء عجيب! وليس عجيبًا فحسب؛ بل يحمل بين طياته خطرًا محدقًا، قولي لهم أن يذهبوا على الفور ويخرجوا القبطان من قمرة إيما».

ترجمت عائشة كلمات والدها ولم يفهم البحارة أي شيء؛ لكنه بعد مضي مدة دون عودة الجندي الشاب، عبر القبطان الثاني إلى يخت إيما فطرق باب القمرة قائلًا:

- «هيا يا جون لنقلع؛ وإلا سنعلق بعاصفة أخرى..».

أتاه صوت جون من الداخل:

- «أهذا أنت يا توماس؟».

- «إنه أنا».

- «انتبه لي! تحركوا أنتم على الفور فأنا لا أود تركهم بمفردهم، وتوقفوا على بعد ستين ميلًا في اتجاه شمال شرق وانتظروا... سأقوم بفحص اليخت هنا وأشرف على إصلاح المحركات».

نفذ القبطان الثاني توماس الأمر الذي تلقاه وحول الدفة إلى الاتجاه الشمالي الشرقي دون أن يلتفت لاعتراض عائشة ومختار، وساروا بسرعة عشرين ميلًا في الساعة تاركين يخت إيما وراءهم بالخلف.

ثم توقفوا بعد ذلك في الميل الستين وانتظروا؛ لكن يخت إيما لم يظهر في الأفق على الرغم من انتصاف الليل ومن بعده حلول الصباح التالي، فقال القبطان الثاني:

- «لا يمكننا الانتظار أكثر». وحول الدفة في اتجاه غينيا الجديدة.

ثار حنق الحاكم عندما سمع أن جون بقي مع إيما، لا سيما أن خطيبته التي كانت تعرف عائلة عائشة كادت أن تجن وحملت عائشة كل الذنب.

فلو أن عائشة لم تأتِ ولم تبحث عن هذا الرجل الأبيض؛ لم يكن جون ليقع في فخ هذه المرأة اللعينة.

أصدر الحاكم أمره، وتوجهت جميع مراكب خفر السواحل هذه المرة لتعقب أثر الجندي الشاب الذي تم تهريبه؛ لكن إشارات الرادار كانت تتردد كل ساعة مخطرة بعدم استطاعتهم العثور على يخت إيما.

وبعد أسبوع من البحث والتفتيش عاد الباحثون أدراجهم واحدًا تلو الآخر، وتم إعلان ضياع جون مع إيما وسط البحار الجنوبية.

كان خالد جميل يتماثل للشفاء يومًا بعد الآخر، وكانت حاله أشبه بمن يستيقظ من كابوس مرعب فلمدة ثلاثة ليالٍ متتالية ظل يهذي باسم «إيما» دون توقف أو سكون.

حتى إنه مر وقت على عائشة أرادت فيه ترك هذا الرجل الذي ما زال يهلوس باسم «إيما» والهروب؛ لكن والدها كان يواسيها في كل مرة بقوله:

- «لا تغضبي يا ابنتي؛ لا تغضبي! فهو لا يهذي باسمها بحب بل بخوف واضطراب، انظري إليه كيف ينعقد حاجباه ويمتقع وجهه عندما ينطق «إيما»..».

كانوا يمكثون في فندق، فقد خرج مع خالد جميل سبائك وتبر ذهب تعادل ستة أو سبعة آلاف ليرة، فكما ذكر البحارة الذين فتشوا يخت إيما أن قعره ممتلئ بالسبائك الذهبية.

تعافى خالد جميل تمامًا وقت شروق الشمس ذات صباح؛ وكأن هذه الشمس

البازغة قد أنقذته من الظلمة المخيفة المنصرمة.

رأى عائشة عند رأسه فعرفها:

- «عائشة!».

- «حبيبي..».

- «أين أنا؟».

- «بجانبي».

- «لن نفترق ثانية، ولن تتركيني أبدًا؛ أليس كذلك؟».

أرادت عائشة أن تجيبه: «ومتى تركتك أنا؟! بل أنت من تركني!..»؛ لكنها تذكرت كلام والدها ولم تفعل؛ بل ردت فقط:

- «لن نفترق ثانية أبدًا!».

توطدت العلاقة بين مختار وخالد جميل بسرعة، ولم يبق أمامهم إلا فعل شيء واحد؛ وهو العودة إلى إسطنبول، ومحاسبة جوكسل، وطلاق عائشة منه رسميًّا وعقد قرانها على خالد جميل.

عادوا إلى إسطنبول.

وفي طريقهم لم يدر كلام عن جوكسل؛ غير أنه يوم عبورهم من مضيق الدردنيل ودخولهم بحر مرمرة؛ سألت عائشة خالد جميل قائلة:

- «كيف سنحل مسألة جوكسل؟».

لم يجبها فلم يكن هناك إلا سبيل وحيد قاطع لحلها، وهو الذهاب له والحديث معه ومقايضته على الذهاب للمحكمة لأجل طلاق عائشة في مقابل نسيان الماضي.

بيد أنه لم يفاتح عائشة ولا مختار في هذا لأنه شعر جراء وضعه هذا الحل بأنانيته ووضاعته؛ لأن مختار بالطبع يرغب في محاسبة جوكسل بل وحتى الانتقام منه.

ذهب في اليوم الأول لوصولهم إسطنبول إلى مختار في الأسكودار، ثم عاد إلى الفندق في وقت متأخر من الليل تحت وطأة الذكريات القديمة التي اجتاحت أعماقه.

ثم توجه في اليوم التالي وفق قرار مشترك بينهم إلى بيت أياس باشا كي يتحقق من الوضع الأخير لجوكسل، كانت ستائر النوافذ منسدلة، وكان البيت يبدو عليه أن لا أحد قطنه منذ مدة وأن بابه موصد ولم يُفتح منذ وقت طويل.

استنتج خالد جميل هذا من خلال وقوفه ومعاينته للبيت، ومن ثم ذهب للحصول على معلومات من صديق قديم له يعمل في إحدى الصحف.

وكانت المعلومات التي حصل عليها كالآتي:

- «إن المليونير جوكسل ليس موجودًا منذ ثلاثة أشهر، فقبل ثلاثة أشهر تهاتف أحد مع الجريدة بصفته خادمه علي وأبلغهم أن المليونير سيذهب إلى أوربا».

بيد أن خالد جميل ارتاب في هذا الاتصال لسبب ما، وقرر أن يزور البيت القابع في أياس باشا تلك الليلة دون أن يخبر عائشة ولا مختار.

دخل إلى البيت من رقعة الأرض الخلفية، كان قد نزل في وقت من الأوقات ذات ليلة من نافذة حجرة النوم التي تطل على هذه الأرض تحت إصرار نوري أخ عائشة؛ أما الآن فلا أحد يجبره على دخول نفس الحجرة من النافذة ذاتها.

كانت الحجرة معتمة، فحسس بيده متلمسًا زر المصباح الكهربائي، ثم وجده فأداره؛ إلا أن المصباح لم يُضئ، لا بدَّ أن الشركة قطعت الكهرباء عنه. أشعل عود كبريت ثم اقترب من الباب المفتوح على حجرة المكتب لكن أنفه اشتم رائحة كريهة فجأة؛ رائحة عفنة نتنة، فتجمد مكانه وأشعل عود كبريت ثانٍ وألقى الآخر على الأرض ثم أزاح باب الحجرة سادًّا أنفه بيده، فانبعثت في العتمة من الباب المفتوح رائحة كريهة لا تطاق كاد على إثرها أن يسقط مغشيًّا عليه. أشعل عود كبريت آخر وغطى بيده اليسرى أنفه وفمه بإحكام فولج الحجرة وتسمر مكانه.

كان يرقد على الأرض ثلاث جثث يفصل بين كل منهم خطوة، وكان ثلاثتهم على وشك التفسخ والتحلل بعد أن تعفنوا بالكامل... كانت إحداهم لجوكسل والأخرى لعلي؛ أما ثالثتهم الأقرب للهاتف فكانت لنوري أخ عائشة...

لم يستطع التحمل أكثر من هذا فقفز من نافذة غرفة النوم ثانية وانطلق إلى الهواء الطلق في الشارع بقلب مقبوض.

ثم توقف وفكر وحاول تخيل ما جرى:

اعتقد نوري جراء اختفاء خالد جميل وعائشة من الوسط أنهما قُتلا من قبل جوكسل وعلي، فهجم عليهم فجأة وقتلهم ثم تحدث في الهاتف؛ لكن أحدهما لم يمت على الفور إثر إصابته فأطلق النار بآخر نفس فيه على نوري وسقط الشاب طريحًا على الأرض.

***

كانت عائشة وخالد جميل متكئين أسفل شجرة تفاح في مزرعة في إزميت، ومختار متمددًا على الشيزلونج بجوارهم يحاول نسيان ألم ابنه الذي لن يستطيع رؤية وجهه مرة ثانية.

التفاح الأخضر الذي لم يحمر بعد يهتز في فروع الشجرة كأنه لآلئ زمردية ضخمة، والشمس تلقي بأشعتها على خصلات شعر عائشة الحمراء منشدة أغنية الضي البديعة التي لم تسمعها أذن إنسان قبل الآن.

قطف خالد جميل تفاحة خضراء ومدها لعائشة قائلًا:

- «انظري يا حبيبتي؛ انظري إلى هذه التفاحة الخضراء! كنتِ مثلها في أول ليلة قابلتك فيها، لكن لهيب المغامرة المهولة ونار الحب المشتعلة؛ أنضجتك».

أخذت عائشة التفاحة الخضراء بين شفتيها الحمراوين وشطرتها بأسنانها اللامعة كضي القمر إلى شطرين، فأعطت شطرًا إلى خالد جميل وقالت:

- «لو كانت لدينا فرسة يا زوجي العزيز؛ كما في القصص القديمة، كنا سنطعمها قشر هذه التفاحة ونحضر مهرة لنوري الصغير الذي على وشك القدوم للدنيا..».

حق الحياة

تم نشر «حق الحياة» متفرقة في جريدة بريد الأخبار المسائي في ما بين الأول من شهر يناير عام 1938 إلى 22 من شهر يناير عام 1938، ولم تكتمل بسبب اعتقال ناظم حكمت.

الفصل الأول

1

جلس دون باولو ألڤاريس فوق أحجار رصيف الميناء البيضاء يتطلع إلى البحر هازًّا ساقيه الطويلتين النحيلتين داخل بنطاله الأزرق المنفوش المجعد، بينما أنارت شمس الصباح الدافئة التي بزغت للتو من المياه أعماق البحر أدنى الرصيف فبدت كأنها من وراء زجاج، وبدت أسراب الأسماك الصغيرة وهي تمر متتابعة من بين أشعتها المضيئة والمذهلة.

تمنى لو يحل محل هذه الأسماك ويتحرك مع شعره وشاربيه الطويلين الأبيضين المتطايرين خلال هذه الأثناء في هذا العالم الذي تجتمع فيه المياه بالضوء؛ كما يتحرك السمك دون تعب أو سأم، فقد كان يغبط عالم السمك على حركته الفريدة الدائمة الشغوفة فقط؛ وإلا فإنه لا يستاء فقط من مذاق الأسماك اللاذع أو من رائحة الطحالب المملحة؛ بل وحتى من عدم إحساسها برائحة قشورها ويعد هذا عيبًا كبيرًا فيها، بالإضافة إلى طريقة تزاوج أغلب الكائنات البحرية الصغيرة هذه -التي لا تمتلك إناثها ثديًا- تزاوجًا خضريًّا، وهو يبغض تزاوج السمك الخضري هذا أيما بغض لأنه حين كان يداعب دونا مارية الأرملة التي تبيع أجمل أزهار الماغنوليا في باريس؛ كانت ترى فيه زوجها المتوفى.

فالحياة بالنسبة لدون باولو ألڤاريس لم تكن تعني الرؤية فقط دون تمييز بين جميل وقبيح وطيب وكريه؛ بل إنها تعني كذلك كل الأفعال الأخرى من شم وشعور وسمع وتذوق وتزاوج.

يعود دون ألڤاريس إلى بيته بعد مشاهدته للأسماك من على الرصيف صباح كل أحد مشمس؛ فيناقش ابنته كونشيتا وزوجها بدرو صارخًا بأعلى صوته ومرددًا نفس أفكاره بالجمل ذاتها:

- «ليس لنا إلا حق واحد، لا يمتلك بنو البشر إلا حقًّا وحيدًا؛ وهو –كما أفهم أنا– الحق في الحياة... الحق في التنفس والإحساس بالدفء والبرودة والتكاثر والأكل حتى الشبع ورؤية النور والظلام والتمييز بين الأخضر والأحمر والأزرق..».

فترد ابنته دونا كونشيتا على أبيها كل صباح أحد مشمس بنفس الاعتراضات محملقة بحدقتيها الأشبه بحبتي زيتون كبيرتين:

- «نعم؛ لكن ألا يوجد حق آخر في الحياة غير ما أحصيته، على سبيل المثال أن تحوز المرأة رجلًا يحبها من صميم قلبه وأن يصبح لديها عش وبيت وأطفال أذكياء معافون؟ أليس هذا من ضمن الحقوق الحياتية للبشر؟».

بيد أنه لم يجب في أي مرة على اعتراضاتها هذه مباشرة؛ بل كان يجول بعينيه الصغيرتين الماكرتين في الزهور الحمراء والخضراء التي تزين شالها الحريري الأسود الذي ترتديه أيام الآحاد ومن ثم يوجه سؤاله لصهره:

- «قل لنرى يا بدرو؛ هل بهذا فقط يكتمل حقك في الحياة؟ أهو الحب من صميم القلب والمرأة أو الرجل الذي تحبه وامتلاك عش وبيت وأطفال أذكياء معافين؛ أهو كافٍ برأيك؟ أم ليس كافيًا؟ ألا تريد حقوقًا أخرى –على حد تعبيرها– تكفل لك عيش الحياة على أكمل وجه مثل حق الكلام وحق التجمع وحرية الأفكار والعمل الحر وعدم الاستغلال من قبل أحد؟».

فيجيب بدرو عن هذا السؤال الطويل المتكرر كل صبيحة أحد مشمس بقوله:

- «نعم؛ إلى حد ما..». غير أنه لا يستطيع إتمام كلامه كل مرة؛ لأن دون باولو بمجرد تلقيه هذا الجواب؛ يطلق قهقاته المعتادة الأشبه بضحكات المِعاز، ثم يلتفت لابنته:

- «أرأيتِ يا ابنتي الأزمة، أنت أكثر طمعًا مني، وزوجك أكثر منك طمعًا... فعلى الرغم من أن ثلاثتنا متوافقون في حق الحياة على حد فهمي، إلا أن ثمة اختلافًا

بيننا يكمن في الأحلام التي ننسجها فوق هذا الأساس، فالحب من صميم القلب والبيت والحرية السياسية والمساواة الاجتماعية؛ دعك من هذا كله... وافهم أن العيش والحركة وسماع الأصوات مهما كنت في البيت أو على الرصيف حرًّا أم أسيرًا هي سعادة كافية بحد ذاتها وبمفردها... كانت إسبانيا على سبيل المثال ملكية وصارت الآن جمهورية... يطن صوت بأذني... لا أريد إلا شيئًا واحدًا؛ شيئًا واحدًا على الأقل: ألا يقتلوني، ألا يتعدوا على حقي في الحياة، لقد رأيت جدران السجن على مرمى البصر ورأيت البحر حتى الشمس البازغة... الكل واحد في رأيي... يكفي أنني استطعت الرؤية..».

ودائمًا ما كانت تختتم هذه الكلمات، الجدال الطويل لدون باولو العائد إلى بيته بعد مشاهدته الأسماك من فوق الرصيف صبيحة كل أحد.

كان ذلك صباحًا آخر مشمسًا؛ لكنه لم يكن صباح الأحد بل صباح السبت، حيث سمع دون باولو صافرة سفينة بضائع هولندية ذات مدخنة حمراء ضخمة تدخل إلى الميناء؛ بينما كان يراقب أسراب السمك جالسًا على الأحجار البيضاء في صباح يوم السبت الثامن عشر من يوليو عام 1936*، فسار متجهًا إلى الرمال التي في نهاية الرصيف.

كان البحر يتضاحل ماؤه هنا والأمواج الممتدة الضيقة يزيد زبدها كلما اقتربت من الشاطئ، والرجال والأطفال العراة في البحر يملؤون الفراغ بين المياه والشمس بصرخاتهم الحادة وبلمعان جلودهم السمراء القاتمة.

تابع دون باولو الرجال الكبار والصغار العراة المتوجسين من مس المياه الدافئة المالحة مترنمًا بأغنية أندلسية قديمة، ثم لمحت عيناه فجأة دون مانويل على الجانب الأيسر، كان ثمة ثوران ضخمان أحدبان قرناهما منحنيان أمامهما للأسفل يجران قارب صيد من البحر إلى البر؛ كأنهما يحرثان الأرض، ولون الجزء الذي تحجبه المياه في القارب أخضر داكن أما لون جسمه فكان أبيض كما كان يلف ساريته الوحيدة شراع منطوٍ.

تقدم الثوران اللذان دخلا المياه حتى ركباتهما ببطء مبللين ضرعيهما المتهدلين من بين ساقيهما، في حين كان دون مانويل يتوسطهما.

انتابت دون باولو ألڤاريس الحيرة لوهلة؛ أأخطئ في رؤيته يا تُرى؟! لكن لا فالرجل الذي بلا قميص فيما بين الصغيرين المتوحشين الأسودين المتقدمين بين زبد المياه جارين القارب الفارغ هو دون مانويل ولا شك.

يعمل دون مانويل ويكد في عمله؛ دون مانويل السكير، دون مانويل الكسول، دون مانويل الذي لا يتسول في شوارع الأثرياء ولا عند أبواب الكنيسة وإنما في أفقر أحياء المدينة! دون مانويل الذي لا يعمل مهما كان المقابل على الرغم من سلامة يديه ورجليه وعينيه وأذنيه ويردد على الدوام: «أنا أكثر حيوان كسول في المدينة بعد رئيس قساوسة الكاتدرائية!»؛ يسير الآن بين ثورين ضخمين ويقترب من دون باولو بجدية قبطان إنجليزي يدخل سفينته المحملة بحمل ثقيل إلى الميناء.

استقر القارب على البر ساحقًا الرمال أسفل منه، فحل دون مانويل وثاق الثورين ثم دنا من دون باولو وحدثه كأنما يخبره بسر خطير:

- «أرأيت أيها السينيور المحترم؛ إني أعمل يومين وأكسب في اليوم رغيفًا».

شعر دون باولو بضرورة طمأنة دون مانويل بقوله: «لا تقلق! لن أخبر أحدًا على الإطلاق بهذا السر المدهش». إلا أنه لم يكد يفتح فمه حتى استطرد دون مانويل:

- «ربما لا يعتبر العمل عيبًا بالنسبة لنا؛ لكن الحليب غالٍ للغاية... نعم؛ ربما لم يكن العمل عيبًا في أي زمن؛ لولا أن الحليب في بلدنا الحبيب إسبانيا غالٍ بهذا القدر... ففي حين أني أشتري لتر أجود شراب بابونج بــ35 سنتًا؛ أشتري لتر أخف حليب البقرة بــ25 سنتًا؛ لكني أحتاج الآن في اليوم للتر حليب، أقول الآن لأن الله وحده من يعلم كم لتر حليب سأحتاج في المستقبل...

كان دون مانويل مفتول العضلات ذو القامة القصيرة غارقًا في عرقه يلمع كما تلمع الأواني النحاسية الحمراء الموضوعة حديثًا على المنضدة، فسأله دون باولو ألڤاريس بفضول دون أدنى سخرية:

- «أصرت تشرب الحليب أيها المانوليتو((11))؟».

11- تصغير رجل بالإسبانية.

استنشق دون مانويل الهواء الصاعد فبصق ثم قال بصوت رخيم:

- «أيها السينيور المحترم! نحن نحافظ على شرفنا –والشكر لله– حتى لو تنازلنا حد أن نعمل، وحتى لو بقينا عطشى ولم نشرب أي شراب، الحليب ليس لي بل هو للرضيع».

سأله دون باولو عن ماهية هذا الرضيع الشره الذي يشرب لتر حليب الآن في اليوم والذي يضطره للتنازل وأن يعمل، فتنهد دون مانويل ثم بصق ثانية وأجابه مستغربًا بعض الشيء عدم معرفته به:

- «هي طفلة ذات شهرين لم تُعمَّد بعد وآمل ألا يتم تعميدها؛ أيها السينيور المحترم، وفقًا لما يروونه فإن أباها الصياد كارليتو؛ لكن جدتها هي دونا روزيتا غاسلة الثياب العجوز ووالدتها هي دونا إليزابيث ولا شك؛ حيث أخرجوا جثة والدتها الطائشة المذنبة هذه قبل ثلاثة أيام من البئر المطلية بالأبيض الموجودة في الفناء.

كانت الغاسلة دونا روزيتا العجوز إحدى أقدم زبائني، وكنت لسنوات مضت آخذ منها كل مساء حفنة زيتون وأبيعها مقابل الثواب والمغفرة؛ أما دونا إليزابيث فكانت تظن ما بيدي سحرًا، وكنا بينما هي لا تزال فتاة صغيرة حافية القدمين نجلس في الليالي بجوار بعضنا على حافة البئر فأنشد لها أغاني الجبل، وهذه الأغاني كنت قد تعلمتها من قس شاب فر من دير الصوامع في سانتو دومينغو في بورغوس وعملنا معًا في الشحاذة لعامين. وهكذا بينما كنت أقوم بجولتي في الحي قبل ثلاثة أيام وولجت فناء دونا روزيتا كي آخذ حفنة الزيتون الأخضر؛ وجدتهم يخرجون إليزابيث من البئر الأبيض ويرقدونها مسجاة فوق الحصى، دققت النظر فبدا لي أيها السينيور المحترم أن شعر المتوفاة الأسود فقط هو المبتل، كان الفناء مزدحمًا، وبدا وجه دونا روزيتا المنحنية على الجثة أشبه بوجه القرد من شدة دهشتها، فالشيخوخة تجعل نساءنا الإسبانيات قبيحات للغاية؛ أيها السينيور المحترم.

كنت قد ذكرت أن الفناء كان مزدحمًا... أجل فقد حضر كل الجيران، وكلنا كنا على علم منذ شهرين بأن الطفل الذي ولدته ربما لن يتم تعميده أبدًا، وبعد مضي شهرين من الاستهزاء بهذا العمل واستنكاره ذهب طي النسيان، وبناءً على هذا لم يخطر

على بال أحد أن إليزابيث وقعت في الكفر إلى الحد الذي لا يتجرأ معه أحد على تلاوة الأدعية عند جثتها.

حملوا المرأة المتوفاة إلى حجرة بالداخل، ودخلت أنا أيضًا؛ كان بوسط الحجرة رضيع يبكي ويداه ظاهرتان من القماط الملفوف به..».

صمت دون مانويل ثم غمغم ناكسًا رأسه كطفل يطلب العفو عن ذنبه:

- «أنا الآن إنسان تنازل واضطر إلى العمل... ولن أستطيع بعد الآن الافتخار بترديد «أنا أكثر حيوان كسول في المدينة بعد رئيس قساوسة الكاتدرائية!»؛ إلا إنني يجب أن أعثر على الحليب من أجل الرضيعة والحليب في عزيزتنا إسبانيا غالٍ للغاية؛ أيها السينيور المحترم..».

غادر دون باولو ألڤاريس؛ دون مانويل بحزن عجيب، وبات وهو يتجه نحو مركز المدينة تاركًا الشاطئ وسائرًا في الشوارع الضيقة المتدرجة المغطاة أحجارها بنفايات قشور الجمبري والتي تفوح منها رائحة السمك البائت؛ كما لو كان يواتيه بين الفينة والأخرى صوت بكاء الرضيعة، إلا أنه كان يعيب على نفسه سماعها لصوت بكاء الرضيعة ويحدثها قائلًا: «لا تنس يا دون باولو ألڤاريس أن الحقيقة الوحيدة هي أن الحياة تعني التنفس والاستماع والشعور والتكاثر والحركة؛ ولا حظ في هذه الحقيقة لشعور رجل سكير متشرد طائش تجاه مسؤوليته في العثور على حليب لرضيعة باكية».

.2

كان محل الأرملة دونا مارية بائعة الزهور الصغير يقع أمام الكاتدرائية مباشرة، تقضي نهارها في بيع الزهور في دكانها ولياليها في الاجتماع بأحد عشاقها الذين لا يقل عددهم عن ثلاثة والذين تختلف أعمارهم بين العشرين والخمسين؛ أما صباحاتها فكانت تقضيها بإشعال الشموع في الكاتدرائية.

كانت تبلغ من العمر أربعين سنة، سمينة، كحيلة العينين، ذات يدين وقدمين صغيرين للغاية ونهدين أسمرين يبدوان من فتحة بلوزتها الصفراء أسفل شالها الأسود المغزول الذي ترتديه صيفًا وشتاءً وفخذين كبيرين لا تسعهما تنورتها الحمراء، وخط شارب رفيع فوق شفتيها الغليظتين.

كانت كاثوليكية تمامًا، وكان أول عمل تقوم به كل صباح عندما تلج الكاتدرائية هو ترديد الابتهالات أمام رسمة سانتا مارغاريتا، فالأضواء العجيبة التي تسقط من زجاج الكاتدرائية الضخم متعدد الألوان فوق رسمة القديسة ذات الوجه خالص البياض والعينين السوداوين والشفتين الحمراوين؛ كانت تجعلها تبدو كما لو أنها لا تزال حية تهمس بأسرار إلى الفضاء.

لم تكن دونا مارية تبجل سانتا ماغاريتا لأنها قديسة فقط؛ بل إنها كانت تحب هذه المرأة العبرانية الحمساء التي خرت تحت قدمي عيسى الحافيتين المغبرتين ووجدت العشق الأبدي بعد أن انغمست في الذنوب حتى خصلات شعرها الأسود الطويل هذا؛ كأختها.

غرست الشموع في صينية الرمال أسفل قدميها ثم أوقدتها؛ كانت هذه الشموع متباينة الشكل والطول، وكل الشموع بتباين أنواعها وأطوالها تسطع بضوء مختلف عند دونا مارية، وكانت دونا مارية المتدينة تلتزم إن أذنبت مع عاشق ما ذات ليلة أن تختار الشمعة المختصة به وتشعلها.

فكان يمكن أن تشعل في بعض الصباحات شمعتين وحتى أربع شمعات؛ لكنها لم تشعل في أي وقت شموعًا متباينة الأطوال.

وفي صباح يوم السبت الثامن عشر من يوليو عام 1936 عادت دونا مارية إلى دكانها بعد أن أضاءت أذيال دونا مارغاريتا البيضاء بشمعتين اختصت بهما دون باولو، وبينما هي ترتب أزهار العنبر الصفراء وأزهار الياسمين والمشمش والخوج والعنبر والورد الجوري وزهور القرنفل التي يشبه بها الشاعر التركي لهيب الدموع وتصف أصُص عشبة إبرة الراعي والجلبان العطرية متفرقة؛ اصطدمت بوجه دون باولو ألقاريس مقطب الجبين داخل محيطها الملون والعطري هذا.

لم تكن من عادته المجيء لزيارتها في اليوم التالي لليلة قضياها معًا؛ ولهذا اندهشت دون مارية ولا سيما مع وجهه العبوس هذا فسألته:

- «ماذا حدث؟».

أجاب دون باولو وهو يتنسم عبير زهرة القرنفل التي أخذها من السلة:

- «لا شيء! أردت أن أمر عليك في طريقي للبيت يا عزيزتي».

ثم أردف بصوت حانق:

- «انتابتني رغبة برؤيتك ورؤية أزهارك وتنسم عطركما».

تنسم عطر القرنفل الذي بيده مرة أخرى فألقاه في السلة واقترب منها:

- «لقد عرقت وأنا على يقين أن رائحتك هذه أكثر أهمية من بكاء رضيعة».

ومع أنها كانت معتادة على قوله أشياء غريبة من حين لآخر؛ إلا أنها استنكرت حديثه عن رائحة عرقها نهارًا وقت العمل بعد أن أشعلت شموع الذنب الذي اقترفاه، فابتعدت عنه وقالت بينما تغير محل أصيص عطري:

- «ستتزوج غدًا ابنة الجزار دون رافايلتو، وقد كلفوني بتجهيز الزهور، الفتاة جميلة؛ لكن العريس رجل مريض... كان شاويشًا في السابق وأصيب في المغرب، كما أنهم يقولون إن جرحه لم يلتئم بعد، بالإضافة إلى أنه جمهوري؛ بغض النظر عن كونه شاويشًا سابقًا، وقد منح صوته للجبهة الشعبية؛ على

الرغم من أن الجزار رافايلتو –كما تعلم– هو أحد تابعي ملكنا المسكين –الذي يعانى الكثير الآن مثل سان سيباستيان((12)) بين غير المؤمنين في الأنحاء القاصية– ولم يرد تزويج ابنته للشاويش؛ لكن الفتاة تحبه... وماذا يقال في هذا؟ أو يطلب الزواج من رجل لم يتوقف النزيف من جرحه المفتوح؟ كما أنه علاوة على هذا لم يخطُ خطوة للكنيسة.

سكتت دون مارية فجأة، فصهر دون باولو –دون بدرو– لم يذهب قط إلى الكنيسة...

قال دون باولو:

- «أنا أيضًا لا أذهب للكنيسة..».

- «لكنك لم تعط صوتك للجبهة الشعبية..».

- «أنا لم أعط صوتي لأي أحد، فقد منحت صوتي الوحيد للحياة ولحق الحياة كما أفهمه أنا... أنت أعطيتِه لملك الأرعن ولكنيستك، وهم للجبهة الشعبية... أما أنا فلحقي في الحياة... أنا لا أريد شيئًا من دون رافيليتو ولا بدرو ولا أي من الجبهة ولا من أيٍّ كان، كما أنهم لا يريدون مني أي شيء».

قطع دون باولو خطابه الذي بدأ صوته به يرتفع تدريجيًّا؛ لأن دون كارلوس ظهر فجأة على باب دكان الزهور كأنما نبت من الأرض وقال له:

- «بحثت عنك كثيرًا يا باولو... ذهبت لبيتك... فأخبروني أنك قضيت الليلة بالخارج... ذهبت لرصيف الميناء فلم تكن هناك، قلت لا بدَّ أن أجدك هنا فأتيت، وإذ بك هنا».

كان دون كارلوس يتحدث مغمغمًا كأنما يتلو تراتيل جنائزية، فليس بهذا العجوز النحيل الضعيف حال للتحدث بغير هذا ولا شك.

تخرج دون كارلوس مع دون باولو من جامعة مدريد وبالرغم من أن كلاهما حاصلان على ليسانس الحقوق إلا أنهما أتيا إلى هذا الميناء المطل على البحر الأبيض المتوسط وعملا مدرسين في مدرسة.

12- هو قديس روماني صلب بواسطة الإمبراطور ديوكلتيانوس لاعتناقه المسيحية.

تزوج الاثنان كذلك في الوقت نفسه... ماتت زوجة دون باولو منذ خمس سنوات؛ أما زوجة دون كارلوس فأغرمت بمصارع ثيران وهربت معه، ولم تكن هذه إلا واحدة من المصائب التي اعتادها دون كارلوس، فقد كان سيئ الحظ، فبالرغم من ازدياد أرباح أصدقائه وترقيهم إلى مدراء مكاتب وأساتذة ومحامين كبار وتجار؛ ظل هو ودون باولو –أيضًا– محلهما.

وكان لبقائه حيث يوجد دون باولو وخروجه عن المألوف هكذا؛ علاقة ولا شك بانتسابه لمذهب الفوضوية مع مرور الوقت؛ على الرغم من أنه لم يكترث في أي وقت بمجرى الأحداث السياسية، بالإضافة إلى أنه لم يكن يمتلك وقتًا لهذا؛ لأن كل من عرفهم عدا باولو سواء من البقالين أو الجزارين أو مديري المدارس أو المحاسبين أو حتى الذين يلعبون الورق في المقهى كانوا يتحينون الفرصة لخداعه وبالكاد كان يمكنه إيجاد وقت لإثبات خدعهم هذه.

وقد اعتل جراء من عاش معها من النساء قبل أو بعد زوجته بأمراض خفيفة أو ثقيلة، كما لم يعد أي من طلبته الذين درس لهم يمر من المدينة.

ظن دون باولو أن هذا العجوز سيئ الحظ سيلقي عليه خبرًا أسود جديد نظرًا لبحثه عنه من قبل شروق الشمس فسأله:

- «من قام بخداعك مرة أخرى؟».

فأجاب بنفس صوته الهامس:

- «لم يؤذِني أحد منذ المساء، إنما جئت لتوديعك يا باولو... ألم تكن في الصباح الباكر على الميناء وشاهدت رسو سفينة البضائع الهولندية ذات المدخنة الحمراء على مياهنا، سأذهب معها..».

ضحك دون باولو فقد كان يعلم بادخار صديقه المال منذ ستة أعوام ورغبته في لف العالم بواسطة هذا المال قبل أن يموت. كم تجولا معًا يدًا بيد في ليالي السنوات الفائتة على ميناء إسبانيا المطل على البحر المتوسط بعد خلوه من الناس!

كان هو يحب سماءه بكل أحوالها؛ مضيئة بالنجوم أو خالية منها، مضيئة بالقمر أو معتمة؛ أما دون كارلوس فكان يرجح التجول في شوارع المدينة العتيقة ذات

الدرجات والأقبية في الليالي المضيئة؛ حيث كان أديم السماء يبدو من بين القناطر في الشوارع ممزقًا أحيانًا كأنه قماشة زرقاء مرقعة بالنجوم اللامعة؛ ورغم تردد صرخات النساء اللاتي يأكلن ضربًا أو اللاتي ينجبن وتكديرهن بديع انتصاف الليل بأصواتهن المفاجئة؛ إلا أن أصوات الغناء الرخيم على أنغام القيثارة كانت ما تلبث أن تعيده إلى جماله السابق.

كان دون كارلوس يتأمل النجوم من بين القناطر ويصغي للأصوات ثم يهبط إلى حافة البحر مع دون باولو، حيث كانت هناك أشجار النخيل تختلط برمال الشاطئ وتصطف بحذاء البحر هناك فيقف عندما يصل تحتها ويتحدث بينما يملأ صدره بنسيم البحر الأبيض قائلًا:

- «انظر إلى الدنيا كيف هي جميلة يا باولو... كيف يمكن للبشر أن يكونوا بهذا السوء في دنيا بهذا الجمال؛ كيف يمكنهم أن يكونوا كذابين ومخادعين وغيورين ومغرورين إلى هذا الحد؟».

أراد دون باولو أن يشرح له نظريته الشهيرة عن الحياة؛ لكنه أردف:

- «إنك يا دون باولو ألڤاريس صديقي العزيز الوحيد الذي لم يحتَل عليّ حتى الآن، أنا سيئ الحظ؛ لكن أنت متشائم... أنت قطعت أملك في كل بني البشر؛ لكن أنا ما زال يحدوني الأمل... أظن أن من نعرفهم فقط هم السيئون بهذا القدر؛ لذا أريد أن ألف العالم وأرى أناسًا آخرين يعيشون في أماكن أخرى، أتُرى أنهم –أيضًا- البشر الآخرون الذين يطالعون غيومًا أخرى بالسماء في أماكن مختلفة بالعالم ويستريحون أسفل أشجار أخرى ويتطلعون إلى بحار أخرى؛ سيئون مثل من نقابلهم؟ سيقض مضجعي هذا إن مت قبل أن أفهمه... لا بدَّ أن أجمع المال كي أطوف العالم».

ويبدو أن دون كارلوس قد جمع المال... تفرس دون باولو في عيني صديقه ثم سأله:

- «يعني هذا أنك قد جمعت النقود؟».

- «أجل..».

- «ولم تخبرني من قبل أنك جمعت المال اللازم؛ لأنك خفت أن أجد وسيلة لأخذ المال منك..».

- «نعم..».

- «أي أنك ستذهب اليوم؟».

- «نعم؛ ستقلع السفينة مساء اليوم وسأذهب، وما من قوة يمكنها منعي... سأرى أناسًا آخرين في ممالك أخرى قاصية وربما يكونون أناسًا طيبين... وبعد هذا يمكنني الموت في سلام..».

قال دون باولو:

- «ما زال هناك وقت للمساء... تعال إلينا وتناول معنا غداءك..».

لم يقبل دون كارلوس عرضه هذا في البداية ورد عليه:

- «دعني أذهب وأدخل السفينة... فقد يقع أمر ما ويضطر القبطان للإقلاع بالسفينة على الفور..».

تهكم دون باولو عليه:

- «لا تقلع السفن إلا في مواعيدها... أم أن تخاف من أن يحتال عليك القبطان أيضًا؟».

أحنى دون كارلوس رقبته الهزيلة المتجعدة ناكسًا رأسه بحزن واضطر لقبول دعوته ثم خرج الاثنان من دكان دونا مارية وسلكا طريق البيت.

.3

لم يذهب دون بدرو صهر دون باولو والعامل في خراطة السفن إلى عمله يوم السبت الثامن عشر من يوليو عام 1936، فقد ألم بزوجته دونا كونشيتا مغص حتى الصباح؛ وبسبب أن دون باولو لم يقضِ هذه الليلة في البيت اضطر هو إلى استدعاء الطبيب والمكوث بجوار زوجته، رقدت كونشيتا ممدة فوق البطانية على السرير القابع أسفل النافذة، وكانت هناك ستائر برتقالية اللون تغطي النافذة، حيث تخللت أشعة ضوء عذبة كالعسل لونها يشبه عصير البرتقال؛ الستائر المنسدلة فوق يديها السمراء ذات الأصابع الطويلة وفوق البطانية الرصاصية؛ بينما بقي رأسها المستند إلى الجدار في الفراغ.

كانت تقبع منضدة خشبية سميكة الأرجل في وسط الغرفة عليها قصعة فخارية زرقاء تحوي عناقيد عنب بحبات كبيرة وموزتين صفراوين، وبجانبها كتب كبيرة وصغيرة وجرائد مبعثرة، كانت الفاكهة لكونشيتا؛ أما الكتب فلبدرو، أما عن أثاث الحجرة الآخر فكان عبارة عن أربعة كراسٍ خشبية وأريكة خضراء فرشها مرقع وعكاز غليظ ذي طرف حديدي يستند إلى الجدار المطلي بالأبيض، كان هذا العكاز لدون باولو وكان يستعين به عند خروجه للشارع في الليالي الممطرة والمظلمة.

سأل بدرو بصوت خافت الطبيب السمين ذا السوالف الطويلة الذي عاين زوجته بينما كان يجفف يديه بالمنشفة التي مدها له:

- «لن تحتاج إلى سحب الجنين بملقط أو ماشابه يا دكتور؛ أليس كذلك؟».

فرد عليه الطبيب وهو يضع في يده الكبيرة المنشفة كما يمد إلى النادل في المطعم قبعته بعد خلعها من رأسه:

- «لا أعتقد هذا أبدًا», ثم أصدر صوتًا عجيبًا من بين فلجة سنتيه الأماميتين.

تحطمت شجاعة بدرو في مواجهة الطبيب المحترم الذي أصدر صوتًا كأنه ينظف

ما بين سنتيه الأماميتين بعد إدلائه بنصائحه وملاحظاته فبذل جهدًا مضاعفًا لأجل أن يقول له نفس الكلام الذي يقوله له كل مرة «انتبه يا دكتور! أحيانًا يتوجب الاختيار فيما بين الأم أو الطفل؛ فإن بدا لك ذلك فأنقذ الأم دون تردد!»؛ غير أن الطبيب لم يعره جوابًا؛ ربما لأنه لم يتح للطبيب سماع رجائه هذا بسبب إلقائه بخفوت شديد وعلى عجلة لحد كبير، ولم تكن هناك غرابة في ما فهمه الطبيب من حديث بدرو بهمس وبسرعة هكذا. كانت كونشيتا تتابعهم منذ قليل قابعة أسفلهم كالوسخ بعينيها الطفوليتين للغاية وأعماقها تحمل فضولًا وحيرة أكثر النساء، ولو كلف بدرو نفسه الالتفات لزوجته مرة لشعر بحيرتها خلال دفء التقاء عينيهما.

اقترب الطبيب من كونشيتا ببطء وقال:

- «أستودعتك الله يا ابنتي! ربما يحين بعد يوم أو اثنين لقاؤنا الأخير والحاسم، لا تريدين الذهاب إلى المشفى؛ أليس كذلك؟».

- «بلى؛ لا أريد الذهاب إلى المشفى يا دكتور! فأنا لم أذهب إلى أي مشفى طوال عمري، وأخاف من الذهاب إليه».

كانت المخاوف الكبيرة تتفاقم داخلها منذ ثلاثة أشهر.

شيع بدرو الطبيب حتى الباب، وهناك دس بيده أجرة الكشف محاولًا إخفاءها خجلًا كأنه يقوم بفعل خاطئ، ومن ثم عاد إلى جوار زوجته، فجلس على الأريكة الخضراء وتطلع إلى كونشيتا، كان كبر بطنها واضحًا أسفل ردائها الفضفاض، كانت المرة الأولى التي يرى فيها بدرو بطن زوجته عاريًا منذ ثلاثة أشهر عندما بدأ الدكتور في معاينتها فرفع عن خصرها رداءها الكحلي هذا، كان جلدها الأسمر مشدودًا وممتلئًا بالتشققات اللامعة الغريبة في كل موضع منه، رنا بدرو بطرف عينه إلى بطن زوجته الحامل التي تشبه ثمرة ضخمة ناضجة والتي تتحرك بأحشائها حياة جديدة وقلبه يخفق بسرعة، فقد كانت هذه المرة الأولى التي يرى بها بطن امرأة حامل في حياته.

كان بدرو يضمر احترامًا عظيمًا منذ صغره للمرأة الحامل، فكلما كان يصادف امرأة حاملًا كان وجهه يحمر خجلًا حتى أذنيه ويتأملها بفضول وحيرة محاولًا ألا يلاحظ أحد هذا، كما أن أشد ذكريات أيام طفولته التي ذهبت طي النسيان بهجة كانت تتعلق بهذا الاحترام الملتبس بالخجل، فقد كان الطفل الأول لوالدته وكانت والدته تنجب

طفلًا كل سنتين أو ثلاث بانتظام فكان غالبًا ما يراها حاملًا، ومع أن البيت كان يضيق أكثر مع كل طفل جديد؛ إلا أن الطفل الجديد كان يجلب لبدرو مزيدًا من السعادة، كان والده بعدما أدمن الشراب في سنواته الأخيرة يقول لوالدته في الشجارات التي تنشب بينهما: «بطنك ذو العيار التالف هذا هي من جعل من عامل ماهر مثلي سكيرًا، فلو أنك لم تنجبي بهذا القدر، لما أصابني الغم بتفكيري كيف سأطعم كل هؤلاء الصغار ولما ثملت»؛ لكن بدرو سامح العجوز الذي مات ذات يوم إثر وقوع ذراعه تحت المخرطة كما سامحته المرأة التي منحته ثمانية أبناء، والآن عندما ينظر في وجه زوجته -الحامل منذ عدة أشهر- الذي يتغير يومًا بعد يوم وتخشن ملامحه وتزداد حدتها بالتدريج؛ يرى فيها ملامح والدته، فيضحك أحيانًا بينه وبين نفسه قائلًا: «لو أنجبت هي الأخرى ثمانية أطفال سيضيق حالنا كثيرًا لكني لن أغتم بهذا على أي حال ولن أدمن الشراب».

تحركت كونشيتا، فصففت خصلات شعرها السوداء التي تلمع تعرجاتها بضي أحمر وسألت زوجها:

- «صرت شديدة القبح؛ أليس كذلك يا بدرو؟».

- «لا يا كونشيتا أنت لست قبيحة أبدًا».

- «أستظل تحبني بعد الولادة يا بدرو؟ فبعد ولادة الجارة التي أسفلنا نفر منها زوجها ولم يقربها لأربعة أو خمسة أشهر».

نهض بدرو من مكانه وجلس عند طرف قدميها مزيحًا المفرش عن السرير ببنيته الضخمة ثم وضع يده على بطن زوجته وقال:

- «ولدنا يتحرك، أشعر بدقات قلبه تحت يدي كدقات الساعة الصغيرة، وبعد يوم أو اثنين سنسمع صوته أيضًا... وبعد أن يولد ولدنا..».

- «أنت على يقين بأنه ولد... أي أنها إن كانت بنتًا لن تحبها؟».

لم يجرؤ بدرو على الاعتراض على كلامها بقول: «لو كانت بنتًا -أيضًا- سأحبها بالتأكيد؛ ولكن من يدريني...»، أو ما شابه، فامتلأت عيناها بالدموع فجأة.

- «ماذا حدث يا كونشيتا؟ أهو المغص من جديد؟».

- «لا يا بدرو ليس المغص؛ لكن..».

- «لكن؟».

- «أخاف ألا أستطيع الولادة وأن أموت، وهل النساء اللاتي يمتن خلال إنجابهن قليلات؟ فكر يا بدرو لو أني مت خلال ولادتي... لا سيما وأنا في أشد رغبتي للحياة... لا تقل شيئًا يا بدرو... اسمعني فقط لو سمحت! ودون أن تحدق فيّ بعينين مشدوهتين، فليس الموت فقط ما يُهيَّأ لي بل الموت بينما أنجب، أرغب في الحياة طويلًا بلا موت، لكن أظن أن الموت مختبئ هناك أسفل تلك الطاولة يراقبني مادًّا يده من تحتها ومتناولًا واحدة فواحدة من الثمرات التي بداخل القصعة الفخارية الزرقاء وينتظر ولادتي، وعلى العكس من هذا تجتاح أعماقي كل ذكريات أيامي الجميلة، فيخطر بذاكرتي مع تطلعي من وراء النافذة إلى السماء التي تنهمر على الأرض بأمطارها ومع حاجة عيني لإفراغ الدموع المتراكمة والبكاء بلا أي سبب؛ ليس أيامي بينما كنت لا أزال فتاة شابة، أو الأيام السيئة التي أرهقتني بهذا القدر، أو يوم وفاة والدتي، أو الأيام التي كنت أراك فيها من بين قضبان السجن، وحتى الأيام التي أردت فيها الموت واعترتني فكرة «وماذا سيحدث إن عشت؟»؛ وإنما الأيام التي تلتها مثلًا كأول يوم قبلتني فيه بالوقت والمكان..».

بينما كانت دونا كونشيتا تتذكر فقط ذكريات أيامها الجميلة على عكس خوفها من أنها ستموت بالبيت خلال إنجابها لفتاة؛ صادف دون باولو وصديقه دون كارلوس الذي دعاه للطعام في الطريق دون ألفونسو أستاذ الفلسفة المتقاعد من جامعة مدريد، كان دون ألفونسو يتشح بردائه الطويل صيفًا وشتاءً، وبعد تقاعده كان يمكث شتاءً في حي جامعة مدريد ويهبط صيفًا إلى ساحل البحر الأبيض، كان معتدًّا باسمه ألفونسو كونه اسم الملك السابق فكان يلفظه عندما يقدم نفسه حرفًا حرفًا وباحترام عميق.

تحدث دون باولو ألڤاريس عن رحلة دون كارلوس فقال دون ألفونسو:

- «أقدر روح الباحث بداخلك يا كارلوس، نعم؛ لم يبق أناس عظماء في إسبانيا المقدسة، لو حالفك الحظ وسافرت إلى القصر البريطاني أو إلى الدالاي

لاما((13)) في التبت فربما تستطيع أن تجد من تبحث عنه في تلك الأنحاء..».

قال دون باولو ضاحكًا:

- «سيرحل الشاب خاصتنا في سفينة حاويات، وبروتوكول الاستقبال في القصر البريطاني يمنع استقبال المسافرين على سفن حاويات؛ أما إذا أتينا للدلاي لاما..».

قطع دون ألفونسو كلام دون باولو معترضًا بجدية كبيرة:

- «لا أحد يعلم... لا أحد... ومن يدري؟ لكن لِم سأخفي عنكم؛ فأنا أتمنى أن تعني روح مثل روح دون كارلوس أكثر بالمسائل الفلسفية وتحاول على سبيل المثال حل اللغز الأعظم في تاريخ البشرية، ثم تحط على الأرض قبل أن تحله بهزيمة؛ لكن مع غرور مثل نسر تحطمت أجنحته».

سأله دون باولو ألڤاريس:

- «عن أي لغز تتحدث؟».

- «عن الموت... خلق البشر لأجل حل هذا اللغز فقط؛ لكنهم سيفنون دون حله، فكل..».

انتفخت أوداج دون باولو فقطع حديثه هذه المرة أيضًا صارخًا:

- «إنما اختلق ذلك اللغز أشباهك من الحمقى ذوي الزي الأكاديمي، فأنتم عميان بقدر ألا تروا أن جريان الحياة هو الأصل عند كل الكائنات، وتختلقون لنا بلاءً تسمونه «فكر الموت»، أخرج رأسك من هذا الزي وانظر حولك! هل هناك أثر للغزك هذا في شجرة الكرز أو في وكر قطة أو عند بدائيي إفريقيا المحظوظين الذين لم يعرفوا الفلسفة بعد وليس عندهم فلاسفة؟! ليس لأن أولئك لا يريدون الموت؛ فربما هم كذلك يهابونه؛ لكن ليس لديهم فكر مراجعة يتعلق بالموت أو مسرحية أوبرالية تدعى الموت؛ أتفهم؟ ليس على البشر الانشغال بحل لغز الموت بل إيجاد حدود حقهم في الحياة، وهذا ما وجدته أنا..».

13- هو القائد الديني الأعلى للبوذيين في إقليم التبت.

فتح دون باولو ذراعيه ثم أغلقهما نافضًا زيه وهم بمجابهة انفعال دون باولو المباغت هذا؛ إلا أن دون باولو تركه فوق الرصيف وجر من خلفه دون كارلوس ثم ذهبا، ووصلا إلى البيت على إثر هذه المناقشة التي قطعت في منتصفها وحين وجد عيني ابنته مغرورقتين بالدموع وعلم سبب هذا؛ لم يجد في وسعه ما يفعله غير إطلاق نظرياته المتمردة وقهقهاته، وأخذ بتلابيب ضيفه محدثه:

- «كانت عينا والدة هذه الفتاة دامعتين –أيضًا- هكذا يا كارلوس! كما أنها –أيضًا- أصرت على تكرار قول إنها ستموت بينما تلد، أتتذكر ياه! كنت وقتها أرتدي زيًّا كألفونسو وأختلق الهراءات الفلسفية وأقول لك «إن مفهومي الحياة والموت متوازان؛ فالخوف من الموت يشب في نفس المرأة كل ليلة تقريبًا ما إن تنشب بأعماقها فرحة إنجاب حياة جديدة». تذكر؛ أليس كذلك يا كارلوس؟ تذكر كلامي المهم هذا؛ أليس كذلك؟».

خلص دون كارلوس نفسه من حديث دون باولو بقوله إنه يذكر هذا الكلام المهم ثم قال بينما يدخن السيجارة التي قدمها له بدرو:

- «دعنا لا نزعج ابنتنا!».

فردت دون كونشيتا التي استغربت قدوم والدها المفاجئ:

- «لست منزعجة بل على العكس أنا أحب رائحة التبغ».

وبناءً على هذا تحدث دون كارلوس مع بدرو حول السياسة على الرغم من عدم اكتراث دون باولو بها، فقد كان دون كارلوس يريد معرفة كل الأحداث الواقعة في البلد قبل مغادرته فربما لن يعود مرة أخرى على الأغلب، وكان بدرو أحد المنتسبين إلى الجبهة الشعبية التي ربحت الانتخابات الأخيرة وعضوًا في الاتحاد المحلي لخراطين السفن؛ ولهذا يستطيع دون كارلوس معرفة كثير من الأمور منه ويحمل معه في السفينة ذكريات الأحداث السياسية في بلده التي لم يكترث لها طوال عمره كأنما يحمل معه شيئًا منها؛ لأنه –دون كارلوس- كان يدرك في هذه السويعات الأخيرة؛ رغم مغادرته من أجل الاستراحة تحت أشجار أخرى والبحث عن أناس آخرين طيبين ورغم سوء البقالين والمحاسبين على اختلافهم وسوء النساء الغادرات اللاتي أمرضنه؛ إنه يحب إسبانيا.

وبعد أن أنهى بدرو شرحه لبرنامج «الجبهة الشعبية» تحدث دون كارلوس:

- «أي أنه ما زال هناك أمل يا بدرو، أي أنه سيحل اليوم الذي لا يغش فيه الإسبانيون ولا يخدعون ولا يقتلون بعضهم بعضًا ولا يكذبون ولا يتفاخرون بعضهم على بعض ويشدون على أيدي بعضهم دون خوف؟».

ابتسم بدرو، فعلق دون باولو:

- «أعلم لِم تضحك يا بدرو؛ أجل أعلم. أنت تقول إنه ليس علي أن أحكم بسوء على كل الإسبان بسبب سوء أغلب من حولي، قد أكون لا أعلم كل الإسبان؛ لكن الوطن تبعًا لكل إنسان هو محيطه؛ يا بدرو... وأغلب الذين أعرفهم داخل محيطي سيئون».

كان صوت دون كارلوس يزداد انخفاضًا كلما تحدث مع بدرو، هل بدرو إنسان سيئ أم جيد؟ لم يستطع معرفة هذا أو تخمينه، فبالنسبة له كان بدرو شخصًا يأتي من عالم أشد غرابة وأكثر بعدًا من الدول التي سيمر على موانئها مع السفينة الهولندية ذات المدخنة الحمراء الضخمة، ففي ظل بحثه عن أناس آخرين طيبين يتطلعون إلى غيوم أخرى وسماء أخرى؛ دار بباله أن يكونوا بقالين أو مديري مدارس أو محاسبين أو حتى أساتذة جامعة أو غيره لكن خراطًا مثل صهر دون باولو فلم يخطر على باله أصلًا، فقد كان يتجنبه قليلًا ويجده مخيفًا بعض الشيء، فقد استمع لحكايات كثيرة عنه أحيانًا بلهجة ساخرة من دون باولو وأحيانًا بإعجاب من دونا كونشيتا وأحيانًا أخرى ممن يلعبون الورق في المقهى، وكان يعلم عن حبسه عامين في عهد بريمو دي ريڤيرا؛ حتى إنه رافق دون كونشيتا ذات يوم خلال ذهابها لزيارته في السجن، كان هذا يوم أحد وكانت السحب المحملة القادمة من البحر الأبيض منخفضة للغاية فوق المدينة وتبعث في الناس الرغبة على الهروب بعيدًا، ولجت دون كونشيتا من بوابة السجن وجلس دون كارلوس على المقهى المجاور ينتظرها، وكان أغلب المارين من أمام المقهى من النساء الذاهبات لرؤية أزواجهن والأطفال والرجال الذاهبين لرؤية أبنائهم وإخوتهم وسجنائهم، كانت تنبعث من وجوههم جميعًا بهجة غريبة وعجيبة تقتل الإنسان كمدًا، كان دون كارلوس ينظر إليهم ويجتاحه شعور بالشوق لا يعلم لم ولمن وإلى أين، وإنما هو حنين متقلب مجهول يجرفه إلى الوطن، وفي ذلك اليوم

خيل له أن امرأة ما ستمر من أمام الزجاج الذي يجلس مقابله وأنه سيقع في حب هذه المرأة لدرجة مذهلة، أو أن أملًا كبيرًا لا يعرف كُنهه على وشك التحقق بشكل لم يتوقعه.

لكن، لا تلك المرأة عبرت ولا ذلك الأمل تحقق، وبدا محلهما أمام الزجاج وجه دون كونشيتا الممتقع وعيناها المغرورقتان دمعًا، وعلم منها أن بدرو دخل في إضراب عن الطعام والكلام منذ أربعة أيام، ورغم أنه سمع بعد هذا أنه استمر في إضرابه هذا اثنين وعشرين يومًا؛ إلا أنه ما زال حتى الآن لا يعلم لِم تحمل بدرو هذا العذاب، لكن الإنسان الذي يبقى في غرفة حجرية دون طعام ولا كلام لمدة 22 يومًا بإرادته لأي سبب وكيفما كان هو في رأيه إنسان يشبه المظلومين والمعذبين في الأساطير الكاثوليكية المرعبة، كما أنه شاهد بدرو عندما أصيبت دونا كونشيتا بحمى التيفوئيد وانقطعت كل الآمال في شفائها يبكي واقفًا عند رأسها.

أكان بدرو إنسانًا جيدًا أم سيئًا؟ ضعيفًا أم قويًّا؟ شعر دون كارلوس مع استعداده للذهاب باحتياجه المفاجئ لمعرفة هذا ما دامت الفرصة سانحة قبل رحيله سعيًا وراء بحثه الكبير، فتحدث مع بدرو حول هاتين الخاطرتين فقال بدرو:

- «لا علاقة لي بالمعذبين يا دون كارلوس؛ وإن أتينا إلى بكائي فإن كان هذا ضعفًا فكما كتب أستاذي العظيم لسنا مستثنين من الضعف البشري».

وجد دون كارلوس جوابه هذا الذي استشهد عليه بكتابة لأستاذه العظيم المجهول عامًّا للغاية فسأله:

- «مثلًا؛ هل كذبت أبدًا يا بدرو؟».

- «نعم، أحيانًا..».

- «هل خدعت أحدًا قط؟».

لم يتمكن بدرو من إجابته؛ حيث رن جرس الباب في هذه اللحظة بالضبط.

.4

في نحو الساعة الحادية عشرة قبل ظهيرة يوم السبت الثامن عشر من يوليو عام 1936؛ كانت الحياة عند ميناء إسبانيا على شاطئ البحر الأبيض تسير كالمعتاد، فكانت ربات البيوت اللاتي لا يعرفن بعضهن بعضًا ودون اتفاق مسبق بينهن يبتعن الفاصوليا الخضراء والكوسة والطماطم من نفس بائع الخضراوات في ذات السوق، ومن ثم ذهب بعض منهن إلى الجزار رافايلتو الذي سيزوج ابنته في اليوم التالي وأخذن في تقطيع لحم العجل نفسه لسلقه في عدة قدور، ومدراء المكاتب الذين لا يعرفون بعضهم بعضًا يترقبون قبل قيامهم بالمعاملات نفسها في شركات استيراد البيض وتصدير زيت الزيتون؛ استراحة الظهيرة بنفاذ صبر في الخمارات لتجرع الشراب المخلوط حتى نصفه بالمياه من نفس البراميل، في حين كان دون فرناندو قد قرر أن يضرب زوجته لشكه في إخلاصها، واتخذ نفس القرار دون جوزيف الذي لم يسمع حتى باسم دون فرناندو، وكان الكونت دي كاسوس السلمانكي والدوق دي سوكر المدريدي قد اشترى كل منهما تذكرة لعبور المحيط الأطلنطي من أجل الذهاب إلى أمريكا، والآن يرقد كل منهما على ظهريهما في غرفتيهما في نفس الفندق ويفكران دون أن يعلم أي منهما شيئًا عن الآخر في نفس الأمور؛ وفي ارتفاع الدولار وفي كسب العيش وفي فتيات برودواي[14] النحيلات طويلات القامة؛ أما دون مانويل فكان سائرًا من جديد بين ثَوريه كأنه يرى وحده جثة دونا إليزابيث بشعرها الأسود المبلول ويتذكر قول القس الشاب الفار من دير بورغوس: «هربت يا مانويليتو لأن دير الصوامع في سانتو دومينغو كان محاطًا بالجدران وكان بوسطه فناء به حوض على حافته تقبع شجرة سرو وحيدة، شعرت فجأة بأني وحيد كشجرة السرو هذه»، وبحّارة سفينة الحاويات الهولندية التي ولجت الميناء ذلك الصباح والتي ستأخذ دون

14-) شارع في مدينة نيويورك يعد أحد أشهر مناطق الثقافة والترفيه في العالم ويشتهر بالعروض المسرحية والنشاطات الثقافية.

كارلوس وتذهب مساءً؛ كانوا مع بحّارة السفن الشراعية ذات الرايات البريطانية التي رست بعدهم بساعة ينتظرون دورهم في الشوارع الضيقة الصاخبة ذاتها للرقاد مع النساء نفسهن.

والناس الذين لم يلتقوا ببعض طوال عمرهم يطلقون نفس السباب في مواجهة نفس النوائب، والفتيات في بيوت متفرقة يغسلن الثياب منشدين نفس الأغنية.

من النظرة الأولى للوجوه في ترسانة وحوض وميناء السفن تجد العمال المتشابهين ذوي نفس البدل الزرقاء التي تغطيهم من الأعلى للأسفل يقومون بنفس أعمالهم اليومية المعتادة، وخلاصة القول إنه بالرغم من اختلاف الألوان والأجواء والأصوات والأفعال والشوارع والميادين؛ فإن الحياة اليومية للناس في المرفأ الإسباني المطل على ساحل البحر الأبيض المتوسط تشبه حياة الناس الذين لم يعرفوهم أبدًا ولم يروهم قط في كل موانئ البحر المتوسط الأخرى، وليت دون باولو استطاع أن يقول «ها قد مضى يوم آخر في هدوء!» بغض النظر عن جداله مع ألفونسو صاحب الزي الأكاديمي ومواساته لابنته قبل قليل... لكنه عندما فتح باب البيت الذي قرع في نحو الساعة الحادية عشرة قبل ظهيرة يوم السبت الثامن عشر من يوليو عام 1936 ووجد ابنه دون أنطونيو في مواجهته؛ لم يستطع القول.

لم يقرع دون أنطونيو ابن دون باولو ألڤاريس هذا الباب منذ ستة أشهر، واندهش دون باولو عندما رآه أمام الباب، لأنه فقد احتمال عودته إلى البيت واعتاد على مصادفته بين الفينة والأخرى بمفرده في الشارع...

دفع أنطونيو والده بلطف ودلف إلى الداخل قائلًا:

- «أتيت لزيارتكم يا أبي! كيف حال كونشيتا؟ أبدرو ليس في البيت؟».

- «ستلد كونشيتا خلال يوم أو اثنين، وبدرو على الرغم من كوننا يوم السبت لكنه البيت... ماذا هناك؟».

لم يجب أنطونيو وتوجه مباشرة إلى حجرة كونشيتا ففتح بابها وبمجرد ولوجه للداخل تأثر بدرو وارتفع حاجبه الأيمن الأسود السميك هذا للأعلى إذ فجأة، كما صاحت كونشيتا بفرح:

- «أنطونيو!».

وتحدث دون باولو ألڤاريس من الحجرة الخلفية التي عبرها أنطونيو بينما يدخل:

- «وها أنتم ترون... ابننا المحترم دون أنطونيو ألڤاريس... فلتتأملوه حتى الشبع..».

كان دون أنطونيو ألڤاريس المعروف باسم «أنطونيو الفاتن» منذ أن كان في الرابعة عشرة؛ طويلًا ممشوق القوام، له شاربان مفتولان أسودان وعينان ساحرتان ورث جمالهما عن والدته حيث كان يتطلع إلى كل شيء وكل شخص من بين جفنيه الناعسين ورموشه الطويلة؛ كأنما يخاف أن يظهر ما وراءهما، كما أنه عازف عود مثالي ومغنٍّ محترف لأغاني الحب.

وفي حين كانت دونا كونشيستا تبتهل ليهبط حاجب زوجها الأسود السميك الذي ما زال مرتفعًا حتى الآن؛ قال دون كارلوس:

- «أهلًا بك يا أنطونيو، هيا اجلس ولا تبق واقفًا!».

جلس أنطونيو وهمس وهو يعبث بزرار معطفه:

- «المعذرة يا بدرو؛ لم أكن أعرف بوجودك في البيت... ولو كنت أعرف..».

هرب أنطونيو من المدرسة ومن منزل أبيه عندما كان في الثامنة عشرة، وعندما عاد إلى بيت أبيه مجددًا في عمر العشرين كان يحمل في وجنته أثر جرح بالسكين وبرفقته حكايات من موانئ جنوب إفريقيا، ومع أنه تم توقيفه في عمر الثانية والعشرين بتهمة تهريب الكوكايين إلا أنهم أطلقوا سراحه بعدها لعدم كفاية الأدلة، ثم ذهب بعد هذه الواقعة بعامين إلى هامبورغ وبدأ من هناك ظهور شغفه الكبير باللغة الألمانية، وبحسب ادعائه نفسه بأنه كان يقرع بيت القنصلية الألمانية في المدينة مرارًا ولا سيما في أوقات متأخرة ليلًا أو قبيل طلوع الفجر لأجل تعليم هذا الرجل لكنتنا الأصلية.

وفي عام 1936 التحق رسميًا بالكتائب الإسبانية[15] وأصبح خلال شهرين من فتوات المدينة، ثم لم يعد يمر على بيت والده على إثر المشاجرة التي نشبت بينه وبين صهره بدرو.

أخذت دونا كونشيتا تتمعن في أخيها العائد الآن إلى بيته فجأة، فوجدته قد ازداد نحافة كما بدا أثر الجرح في وجنته غائرًا أكثر.

أدمع مجيء أنطونيو إلى البيت وقرعه لبابه جراء عدم قدرته على تحمل رغبته في رؤية أخته مهما يكن ورغم شجاره مع بدرو؛ عيني دون كارلوس، وحز في نفسه قوله «لو كنت أعلم أنك في البيت لما أزعجتك يا بدرو» بينما يعبث بزر معطفه كأنما لا يجرؤ على التطلع في عين أحد؛ فقال:

- «ولم ستزعج بدرو يا بني؟! فكونكما منتميين لتيارين سياسيين مختلفين بل وحتى متعاديين لا يمنع كون كل منكما إنسانًا بالنهاية».

رفع أنطونيو رأسه ونظر إلى دون كارلوس من بين جفنيه الناعسين ورموشه الطويلة، فجال بذهن دون كارلوس الذي كان على يقين بأن هاتين العينين اللتين لم يرَ بريقهما تشكرانه: «إن أشقى صبية بلدي التي سأتركها خلفي بينما أذهب في جولة حول العالم للبحث عن أناس جيدين؛ على وشك أن يصبحوا أناسًا جيدين».

كان حاجب بدرو السميك ما زال مرتفعًا، فهو يكره أنطونيو، وهذا الكره ليس بسبب السياسة ولا الطبقة فحسب؛ بل إن طبيعة بدرو لا يمكنها تحمل أنطونيو، فأنطونيو بالنسبة له شيء كالرائحة الكريهة، وقد كان بدرو يقول عندما يتحدث عن هذا الكره الذي يخالجه تجاه صهره:

- «لم أشعر بنفسي وحيدًا في أي وقت مضى، فقد ولدت في بيت مزدحم، ورغم كون الشارع الذي يطل عليه بيتنا مظلمًا ووسخًا؛ إلا أنه كان مليئًا بأطفال أشقياء حفاة الأقدام يصيحون ويصرخون ويطلقون شتائم لا تخطر على البال مثلي تمامًا، ثم صرت شابًا، وفي أول خمارة دخلتها كان من بها شباب يشبهني، وكان الحشد

15- الكتائب الإسبانية: هو حزب سياسي قانوني تم إنشاؤه عام 1933م في إسبانيا لجماعة فاشية حاولت قلب النظام الجمهوري باستخدام العنف.

المتحرك داخلها من وراء دخان السجائر ورائحة الشراب يغني أغنية أعرفها، أدخل كل صباح مع جمع إلى المصنع وأعمل هناك بين جمع ثم أمتزج بالجمع وأنا خارج أيضًا، تعاركت فردًا لفرد في طفولتي بالنعل مع صديقي الذي انسحب من اللعبة عندما تبدت هزيمته، وفي شبابي مع البقال الأشقر الذي أخذ مني الفتاة التي أحبها؛ لكني لم أكن بمفردي أبدًا في شجاراتي الكبيرة وكفاحي في سبيل الطعام والأيام الجميلة، ولهذا فكرهي للإنسان الوحيد لا يرجع للسياسة أو الطبقية؛ وإنما يرجع لطفولتي التي قضيتها في الزحام بين الحشد، أعلم أن الزحام والحشد يحفز في النفس كراهية الحركة والنشاط؛ لكن لا دخل لهذه الكراهية الواعية والثابتة في تعرفي وقت إضرابي على وجوه الناس الذين أمامنا ولا في معرفتي إن كان لديهم أطفال أم لا، فهم لا يهمونني أبدًا باعتبارهم أفرادًا، فموت فرد أو حياته لا يعنيني؛ أما عن كراهيتي هذه لأنطونيو، فنصف هذه الكراهية على الأقل سببها كوننا فردًا ضد فرد، فأنا أدرك أنها المرة الأولى في حياتي التي أبقى فيها بمفردي في كراهية أحد، كما أنه –أيضًا– ينفر مني جراء نفس الشعور المخيف وببغض يقضم أعماق الإنسان وكراهية تجعله يعاني من اضطراب مادي مثل تعكر في المعدة أو صداع بالرأس حتى، فأنا وأنطونيو من عالمين متباعدين ومختلفين حتى من قبل العمل بالسياسة والانضمام للكتائب، واجتماعنا معًا تحت سقف واحد كان كارثة، فكنا ننتصب متحفيزين ضد بعضنا داخل نفس الحجرة، وباتت يدا كل منا المتأهبة لخنق حلق الآخر مجبرة على اقتسام رغيف الخبز معه فوق نفس المائدة، كنت أرى في وجهه ملامح زوجتي وكان يراني خارجًا من فراش أخته، ولم يمكنني طمس ملامح كونشيتا في وجهه ولا هو استطاع خنقي في سرير أخته... حتى وصل حالنا حد أن أجمل البُشريات التي سيتلقاها أحدنا في حياته هو خبر وفاة الآخر، أعلم أن هذا ربما يكون نقطة ضعف هائلة عندي؛ حتى إنني –ولم أكذب– قد فرحت يوم سمعت عن انضمامه للكتائب؛ لأن الرجل الذي أضمر له كرهًا رهيبًا صار عدوًّا سياسيًّا وطبقيًّا لي بالفعل، ربما كان فرحي هذا دنيئًا بعض الشيء؛ لكني لست وضيعًا حد كتم حقيقة ما يجول بأعماقي...».

هذا هو ما ذكره بدرو لرفاقه بينما كان يحدثهم عن كرهه لأنطونيو؛ وبناء عليه فقد أزعجه قدوم أنطونيو اليوم إلى البيت بغتة واجتاحته رغبة في الخروج من الحجرة على التو فهب على قدميه وقال:

- «حان وقت الطعام، سأذهب إلى المطبخ لأعده..».

قالت كونشيتا:

- «أعد المائدة هنا يا بدرو!». ثم التفتت إلى أنطونيو:
- «وأنت أيضًا لم تتناول طعامك؛ أليس كذلك؟».
- «يعني... لم آكل لكن... لا أعرف إن كان..».

تطلع أنطونيو لبدرو فحول بدرو رأسه عنه وتوجه للمطبخ، حدث دون كارلوس نفسه: «ياللخسارة! من المؤسف أن يكون بدرو أعمى لدرجة ألا يستطيع رؤية أكبر أعداء روح الإنسان الحقيقيين، فهذا العمى مخيف كظلمة جهنم، ومن المؤسف كذلك ألا يفرق بين كرهه اليومي العارض وعلاقاته الإنسانية الأبدية؛ مؤسف للغاية!».

سأل دون باولو ألڤاريس ابنه بينما كان دون كارلوس يفكر في هذا:

- «هيبه لتحكِ لي يا أنطونيو كيف تسير أعمالك؟».
- «أي أعمال يا أبي؟».
- «هيا! لا تتصنع عدم الفهم، وانتبه فسيولد لك عدو جديد هنا خلال يوم أو اثنين... وبدرو يترقب بنفاذ صبر مجيء معاونه الصغير هذا إلى الدنيا كي يقطع جذورك من أواصرها؛ لكن إن كنت ستقول..».

قطعت كونشيتا حديث والدها:

- «لن يتدخل حفيدك في السياسة».

ضحك دون باولو:

- «اصمتي لئلا يسمع والده؛ وليس والده فقط؛ كنت على وشك قول ولئلا يسمع خاله أيضًا؛ لكن سياسة خاله..».

قال أنطونيو:

- «تخلى خاله عن السياسة من الآن فصاعدًا..».

- «أحقًّا يا أنطونيو؟! هل تخليت عن السياسة؟».

- «نعم يا كونشيتا؛ تخليت..».

اندهش دون كارلوس، أتخلي إنسان عن السياسة بعد عمله بها؛ أمر حسن أم سيئ؟ لربما كان مجيء أنطونيو من أجل إعلان هذا الخبر؛ لكن هل مجيء إنسان لبيت عدوه السياسي القديم لأجل إعلامه بخبر كهذا يوصف بالعظم أم الضآلة؟ وماذا قد يعنيه فعل أنطونيو هذا في معيار الأخلاق الإنسانية الأبدية المجردة؟

تحدث دون باولو هذه المرة –أيضًا– بينما كان دون كارلوس لا يزال هذا يجول في رأسه:

- «لا يعد هذا خيانة كبيرة أو غدرًا يا أنطونيو، بل لو بقي الأمر لي لقلت يجب على الكتائب أن يفرحوا بفقدانهم مناضلًا مثلك، فأنا أعرفك حق المعرفة؛ سفيه وتميل إلى الحياة المنحلة إن لم يكن هذا التعبير مضحكًا... فأنا لا أفكر أن أمنع غيري من التنفس كي أحمي حقي فيه، وعلى سبيل المثال أنا أدري أنه بعد أن نلت حصتي من دونا مارية بائعة الزهور سينال آخرون حصة أكبر أو أقل مني... فأنا لا أمنع الناس من العيش كي أعيش، ولهذا لا يمكن لأي أحد مس ولو الحد الأدنى من حقي في الحياة الذي توصلت لحقيقته المطلقة... والحال أنك لست هكذا، فأنت لا تحب مذاق طعامك؛ بل مذاق طعام الآخر، وأنا على يقين من أنه لو حانت لك الفرصة في اليوم الثاني من انضمامك لحزب الكتائب لسرقت خزينته وذهبت تبعثرها في أوربا وآسيا وإفريقيا، ولا أعيب عليك... فأنت الآخر تريد عيش حياتك حسب قناعاتك وبما يتوافق مع هواك، أنت –أيضًا– تريد أن تحصل على حقك في الحياة كما تعرفه... خلال حديثي سابقًا عنك وعن الكتائب مع بدرو قال لي: «أعضاء تشكيلات الكتائب كلهم مثل أنطونيو تقريبًا، فستجد هناك المثقفين الصغار الذين لم يحققوا طموحاتهم الكبيرة، ومتسكعي الشوارع الخلفية الذين يريدون اجتياز الطرق الكبيرة، والذين فقدوا رتبهم وانقطعت صلاتهم بالطبقات والأوساط الاجتماعية»، وبالنهاية أحصى بدرو عددًا من الناس الذين يشبهونك أو لا يشبهونك، ولا أعلم أكان التصنيف الذي قام به بدرو صحيحًا أم خاطئًا؛ لأني أصنف الناس حسب معايير وأنماط

مختلفة... لكن وفقًا لتصنيفي هذا؛ لو أن مفهوم الحياة عند المنتمين لحزب الكتائب كمفهوم الذئب الذي يهبط إلى القرية في الشتاء مثلك؛ لوجب عليهم أن يفرحوا للتخلص من فم دامٍ ولنقصان مخلب من بين مخالبهم».

ود دون كارلوس لو احتج أنطونيو وقال: «لست بمخلب ولا بفم دام»؛ لكن أنطونيو لم يحقق له أمنيته هذه؛ بل اكتفى بابتسامة فحسب، وراقت ابتسامته التي اعتراها الحزن الشديد هذه أكثر لدون كارلوس.

سألته كونشيتا:

- «وماذا ستفعل الآن يا أنطونيو؟».

- «سأعمل في..».

قاطعه دون باولو:

- «انبعث هوس العمل في كل كسالى المدينة المشهورين هذه الأيام، مانويليتو سيعمل وأنت كذلك ستعمل... وستكسب رزقك بشرفك ومن عرق جبينك وفق الأصول، وربما –أيضًا- تتزوج وترزق بأطفال أصحاء وأذكياء».

صاحت كونشيتا ببهجة:

- «ما أجمل هذا! ما أجمله!».

هم دون كارلوس للقيام من مكانه والشد على يد أنطونيو؛ لكنه لم يتحرك؛ لأن دون باولو قال بعد قهقهته الشبيهه بضحك العنزات:

- «أصدَّقت يا كونشيتا؟».

انتابتها الحيرة:

- «ماذا صدَّقت؟».

- «أن أنطونيو سيعمل..».

قاطعه أنطونيو بالاحتجاج الذي انتظره دون كارلوس من قبل:

- «ولم لا تصدق أني سأعمل يا أبي؟».

- «دعك من هذا يا أنطونيو! صدقنا أنك تخليت عن السياسة؛ لكننا نثق أنك ستحكي بشأن خططك المستقبلية قائلًا: «سأنضم للشبكة التي تصدر المرأة البيضاء إلى بوينس آيرس((16)) سأسلك طرقًا مختصرة أكثر من أجل ضمان العيش»».

- «لو قلت إن الابن الذي اشتاق لبيت والده..».

جمجم دون باولو قائلًا:

- «عذرًا بني؛ لست على وعي بعد بأنك أدمنت في شهورك الأخيرة مخدرات من قبيل حب الاشتياق أو ما شابه».

حزن دون كارلوس واجتاحه ألم شديد وخاف أن يثير استقبال بدرو وفظاظة باولو غير المبررة؛ ثائرة أنطونيو الذي يخط خطوته الأولى في طريق أن يصبح إنسانًا صالحًا.

بيد أن أنطونيو لم يخرج عن طوره –أيضًا- في هذه المرة وقال:

- «تغيرتُ كثيرًا يا أبي..».

نادت كونشيتا أخيها إلى جوار فراشها وقالت وهي تحاول رؤية عينيه من بين رموشه شبه المغلقة:

- «أكثر من سيفرحه تغيرك هذا هو صهرك يا أنطونيو، فحتى لو لن تصبحوا أصدقاء على الفور لن تظلوا أعداء على الأقل».

قال دون باولو ألڤاريس:

- «سأذهب للمطبخ لأعاون بدرو».

فقال أنطونيو: «لأذهب أنا وأساعده إن شئت يا أبي!» فور أن ألقى عرضه هذا رده والده قائلًا: «مستحيل! لا يمكنني أن أترككما أنتما الاثنين في المطبخ بمفردكما بين

16- عاصمة الأرجنتين.

الشوك والسكاكين... تخليت أنت عن السياسة أما هو فما زال يعمل بها».

بعد أن خرج دون باولو ألڤاريس من الحجرة، بدأت كونشيتا الحديث مع أخيها بهمس في أمور خاصة كأخوين محاولة عدم إفساد صمت دون كارلوس:

- «يعني أن هذا ما سيحدث يا أنطونيو..».

- «نعم؛ هو هكذا يا كونشيتا..».

- «أنا سعيدة إلى درجة أني سأسمي ابني باسمك يا أنطونيو».

- «ومن أين تعلمين أنه ولد؟».

- «أود هذا حيث..».

- «أيمكن أن يجد لي بدرو عملًا في مصنع أو غيره..».

- «ولم لا يجد؟! يجد بالتأكيد؛ كما أن..».

أطبق عليها الصمت فجأة:

- «ماذا بك يا كونشيتا؟».

- «لا شيء... إنه المغص... يأتي ويذهب من حينٍ لآخر..».

أصاب القلق دون كارلوس وهب أنطونيو واقفًا:

- «أتريدين شيئًا يا كونشيتا؛ ماءً أو غيره؟».

- «لا... لقد مر؛ لو فقط تعدل الوسادة قليلًا..».

وبينما كان أنطونيو يعدل الوسادة وجد مسدسًا مخبأً بها.

- «ما هذا يا كونشيتا؟».

- «إنه لبدرو... يضعه تحت الوسادة ليلًا، ولأنه لم يذهب اليوم للعمل..».

سأل دون كارلوس بحيرة:

- «وهل يذهب بدرو إلى العمل بالمسدس؟».

- «يحمله معه فحسب... إنه ذكرى من صديقه المتوفى في إضراب أستوريا... لم يستخدمه بدرو أبدًا بعد..».

كان أنطونيو يعاين المسدس؛ بينا كان دون كارلوس يتأكد من أن بدرو لا يستخدمه:

- «ياله من مسدس جميل! مثل فتاة..».

- «أي أنه نال إعجابك... ماذا تفعل يا أنطونيو؟».

- «لا شيء، أنزع خزانته لأتفحصه».

دلف دون باولو مع بدرو للداخل وكانت يداهما ممتلئة فقام دون كارلوس للمساعدة وما لبث بدرو أن وضع أطباق الطعام التي في يديه على المائدة ووجه كلامه لأنطونيو:

- «أعطني المسدس يا أنطونيو!».

فمد أنطونيو المسدس له وهو يسأله مبتسمًا:

- «أله خزانة عادية؟».

- «لا أعرف..».

عد بدرو الرصاصات التي في الخزانة، ثم أدخل المسدس في جيبه واستأنف معاونتهم في تجهيز المائدة، بينما جلس أنطونيو على الكرسي الذي وقعت عيناه عليه حين دخل الحجرة وجمجم وهو يلعب في أزرار معطفه من جديد:

- «أشرح أبي لك الوضع يا بدرو؟ أأخبرك أني قطعت علاقتي بالسياسة؟».

رد بدرو وظهره مدار لأنطونيو دون أن يدير له رأسه:

- «أخبرني».

أخذ دون كارلوس يفكر وهو يقطع الخبز وأزعجته مسألة المسدس هذا، وتصور حوادث مخيفة قد تقع جراء اهتمام أنطونيو بمسدس بدرو، واعتياد بدرو على خطفه من يده وانتابه السرور لأنه سيغادر في حدود ساعتين أو ثلاث -مع السفينة الهولندية- هذا البلد الذي لا يأمن فيها أحد سلاح الآخر.

على الرغم من أن بدرو كان مديرًا ظهره لأنطونيو؛ إلا أنه كان يستطيع ملاحظة أدنى عمل قد يقوم به خلفه؛ ولهذا فعندما تحرك أنطونيو حركة خفيفة لينظر في ساعة يده وأصدر كرسيه صريرًا؛ التفت إليه بدرو على الفور واستفسر منه:

- «لم تنظر في الساعة؟».

- «لا شيء... هكذا... انتابني الفضول فقط... إنها تقترب من الثانية عشرة».

انتهى إعداد المائدة وحمل بدرو حساء زوجته إلى سريرها ثم عاد للمائدة وبدؤوا الأكل.

أنطونيو:

- «لا تزال مستاء مني يا بدرو، ربما لن نستطيع التصالح بهذه السرعة؛ لكن..».

سكت إذ فجأة ليتناول الخبز الذي مده إليه بدرو، فتحول الخوف الذي اجتاح أعماق دون كارلوس منذ هنيهة المتعلق بالمسدس إلى غبطة إثر مد بدرو الخبز لأنطونيو من تلقاء نفسه وقال:

- «سيتصالحان بلا شك! ألم يأكل أحدهما من الخبز الذي مده له الآخر».

صب بدرو الشراب في كوب أنطونيو ثم سأله:

- «لم تعلن بعد مغادرتك للكتائب؛ أليس كذلك؟».

- «نعم؛ سأعلنه غدًا يا بدرو، فقد اتخذت القرار فجأة؛ مساء البارحة..».

- «حسنًا! وما سبب هذا القرار المفاجئ؟».

لم يجبه أنطونيو وبدأ يحتسي ببطء الشراب الذي صبه له بدرو، لم يكن بدرو يصدقه؛ لكنه شعر فجأة أن عليه محاربة عدوه فاتن المحيّا الذي ينظر من بين رموشه الطويلة ويتحدث ملتهيًا بأزراره بنفس أسلحته؛ وعلى هذا مد له الخبز وصب له الشراب في كوبه.

- «أتريد المزيد من الحساء يا أنطونيو؟».

- «لا؛ شكرًا يا بدرو».

- «أي أنك ابتعدت عن حزب الكتائب يا أنطونيو؟».
- «أجل يا بدرو، وعن كل أنواع السياسة..».
- «والسبب؟».
- «إنه..».
- «ماذا؟».
- «هلا صببت لي المزيد من الشراب يا بدرو من فضلك!».
- «العفو؛ تفضل!».

تحدث أنطونيو بينما كان يحتسي كوب الشراب الثاني جرعة جرعة:

- «لن أستطيع أن أخبركم الآن بالسبب الأصلي يا بدرو... لو قلت إنكم خطرتم على بالي بغتة؛ هل تصدق؟!».
- «ولم لا أصدق يا أنطونيو؟».
- «وما يدريني؟! فما زلت بعد إنسانًا مشاركًا في العديد من الأمور السيئة..».
- «قد يتغير الإنسان يا أنطونيو».
- «نعم؛ لكن حتى لو افترضنا صحة هذا فيجب أن تكون هناك أسباب مهمة كثيرًا لاتخاذ أناس مثلي ومثلك قرارًا كهذا؛ أليس كذلك؟ أنا أتحدث بصدق».

لم يكن بدرو يصدقه، ولم يصدق أنه غادر الكتائب؛ لكنه لم يستطع تخمين سبب مجيئه للبيت؛ فهو ليس بالتأكيد كي يراه أو يتحدث بهذا الهراء... لأن اليوم كان السبت وأنطونيو لم يكن ليعلم بعدم ذهابه إلى المصنع، ثم إنه ما زال يتحدث بدهاء شديد، مما يعني أنه يريد طعن ظهره في الظلام بشيء ما.

- «فيمَ شردت يا بدرو؟».
- «لا؛ لم أشرد، أفكر فقط أنك محق يا أنطونيو، أجل؛ لنعلم السبب الأصلي بعد ذلك... ألن تقضي هذه الليلة هنا؟».

- «لا أعلم يا بدرو، ألن أزعجكم؟».

لم يستطع أحد الرد على سؤاله هذا؛ لأن صراخ نينا أتى من الخارج:

- «افتحوا الباب، أنا أتيت يا أولاد..».

ذهب دون باولو ألڤاريس لفتح الباب، بينما استفسر أنطونيو:

- «من هذه القادمة؟».

فأجابته كونشيتا:

- «صديقة جديدة لأبي، لا نعرف اسمها، الجميع يناديها «نينا»، وهي امرأة عجوز غريبة».

فعقب بدرو:

- «ليست غريبة، هي فقط مجنونة غير مؤذية، من أستوريا... قُتل ولداها الاثنان عام 1934، كان أحد ولديها صديقي؛ حتى إن المسدس الذي أعجبك منذ قليل يا أنطونيو هو ذكرى منه».

ولجت نينا مع دون باولو الحجرة، كانت نينا قصيرة بعض الشيء وتتطلع حائرة إلى العالم حولها من بين غطاء رأسها الأحمر المحيط بوجهها المتغضن والمربوط من أسفل ذقنها.

جذب المقعد الأخضر إلى أسفل المائدة كي تجلس عليه نينا، وبينما كانت تتناول نينا حساءها؛ التفتت إلى كونشيتا وسألتها كأنما تذكرت شيئًا مخيفًا فجأة:

- «ألم تنجبي بعد؟».

أجابتها كونشيتا بالنفي فقالت لها:

- «لا تنجبي يا ابنتي! إياك أن تنجبي... لا تنجبي... أسمعتِ؟!... لا تنجبي... تمام؟».

- «حسنًا لن أنجب يا نينا..».

منذ أن سمعت نينا بحمل كونشيتا وهي توصيها بهذا كل مرة، حتى إنها قالت لها ذات يوم:

- «أنت لن تصغي لكلامي وستنجبين، ثم سأحزن أنا؛ لكنه سيكون حزنًا شديدًا للغاية... فإن أردت ألا تحزنيني فكوني مثل إناث القطط الأذكياء... كلي طفلك قبل أن يأكله ذكور القطط، فذكور القطط تأكل أبناء إناثها، أتعرفين؟ ينبغي على إناث القطط ما دامت ذكورها تأكل أبناءها ألا تلدهم أو أن تأكلهم هي».

سأل أنطونيو بدرو بهمس:

- «أأصاب نينا الصرع جراء الزهري أو شيء من هذا القبيل؟».

- «لا؛ بل جراء السل... يعني كان السل هو البداية ثم وقوع الحادثة التي أخبرتك بها منذ قليل ووفاة ابنيها الاثنين في إضراب أستوريا..».

قالت كونشيتا لأخيها الذي أتى إلى جوارها بعد جمع مائدة الطعام:

- «سترى الآن يا أنطونيو؛ فستحكي نينا حلمها..».

وفي الواقع بدأت نينا التي غاصت في المقعد الأخضر ذي الرقع الحكي فاغرة عينيها المشدوهتين في وجهها اللطيف المتغضن:

- «رأيت الأطفال في الحلم، وياله من حلم عجيب! أنا لا أحكي إلا لك يا دون باولو، ولا أريد أن يسمع أحد سواك لو سمحت؟ لا يستمع أحد آخر..».

قال بدرو:

- «لن نسمع يا نينا، انظري أنا أتحدث مع دون كارلوس، وأنطونيو مشغول بأخته... احكي أنتِ!».

- «سأحكي إذًا... كانت هناك حديقة فسيحة للغاية يا دون باولو... وفيها زهور حمراء قانية؛ كم كانت حمراء بشدة وكبيرة للغاية... كما كان في الحديقة أشجار سوداء؛ حالكة السواد، عالية شاهقة... ثم هبت الرياح يا دون باولو... ويالها من رياح كأنها عواء كلاب ومواء قطط سوداء ذات أعين نارية وتراتيل كهنة... أتفهم يا دون باولو؟».

- «أفهم يا نينا... ثم بعد ذلك؟».

- «ثم ترققت إحدى هذه الزهور الكبيرة الحمراء وتضاءلت وانفصلت عن ساقها ثم تدحرجت وتدحرجت... وكنت أنا بقدمي حافيتين... وفوقي رداء أبيض تمس أذياله قدمي الحافيتين... وشعري طويل طويل ينسدل على كتفي، أتفهم يا دون باولو؟ شعري في الأصل ليس أصفر كالذهب كذلك؛ أتفهم؟».

- «أفهم يا نينا».

- «أتت هذه الزهرة التي انفصلت عن ساقها؛ إحدى الزهور الحمراء، تدحرجت وتدحرجت ثم أتت ووقعت في حضني... نظرت فإذ لها سبع وريقات... والدم ينساب من السبع؛ لكن ياله من دم حار، حار وله رائحة لاذعة وغريبة، سال على يدي ووجهي وردائي الأبيضً وقدمي الحافيتين ولطخهم حتى نهاية شعري الذهبي الطويل، ثم..».

لم يحتمل أنطونيو وسألها:

- «ثم ماذا؟».

حدقت نينا في أنطونيو كأنها استيقظت للتو ثم قالت منكمشة تمامًا داخل مقعدها الأخضر:

- «ثم لا شيء... هذا كل ما حدث... أغمضت عيني بشدة عندما أفقت من نومي... أغلقتها بشدة كي لا يضيع حلمي... وركضت فأتيت إلى هنا... كي أحكيه... أتيت مهرولة لئلا تلد هذه الفتاة... لم تنجبي حتى الآن؛ أليس كذلك؟».

أجابتها كونشيتا بحزن كالعادة:

- «لم ألد بعد يا نينا..».

- «لا تلدي! إياكِ أن تلدي... إن ولدتِ..».

تحدث بدرو:

- «انظر في ساعتك يا أنطونيو؟».

اندهش أنطونيو:

- «أأنظر في ساعتي؟».

- «أجل؛ انظر في ساعتك! كم الساعة؟».

- «تخطت الثانية عشرة..».

نهض بدرو على قدميه وقال:

- «إن كان هذا فاسمحوا لي..».

هب أنطونيو قائمًا وسأله بصوت غير مبالٍ كأنما يحاول التغطية على تصرفه المفاجئ هذا:

- «إلى أين أنت ذاهب يا بدرو؟».

لم يجب بدرو على الفور بل قال محاولًا التمعن في عينيه من وراء رموشه الطويلة:

- «أواتاك الفضول حيال أين سأذهب يا أنطونيو؟».

راود القلق مجددًا دون كارلوس الذي كاد أن يطمئن بعد الاهتمام اللطيف الذي أظهره بدرو تجاه أنطونيو عندما مد له الخبز وصب له الشراب، فقد كان بدرو ينطق سؤاله بطريقة عجيبة، ثم ما لبث أن كرر فاغرًا ثغره عن ابتسامه:

- «لِمَ تتساءل حقًّا إلى أين سأذهب يا أنطونيو؟».

رد أنطونيو مبتسمًا هو الآخر:

- «لا شيء مطلقًا يا بدرو، أتت في سياق الحديث... فما زال بعض الكلام معك..».

جلس بدرو:

- «يمكنني الذهاب بعد قليل... كما أني كنت سأمر على مقر الاتحاد ليس إلا... إني أسمعك يا أنطونيو... هيا احكِ..».

كان أنطونيو لا يزال واقفًا، فمرر دون كارلوس الكرسي إلى ورائه فتحدث متكئًا إليه:

- «نعم إنها مسألة تتعلق بك كثيرًا، يُخيل إليّ يا بدرو..».

وبينما كان يتحدث كذلك كانت الاحتمالات تلمع ببريق في ذهن بدرو: «ماذا يمكن أن يكون الشيء الذي يريد أنطونيو حكايته؟ أكان أنطونيو سيحكي هذا لوالده لو لم يجده في البيت؟ ربما سيخبره أمرًا عن الكتائب وسيطلب منه المال مقابله».

- «أنا مصغٍ يا أنطونيو..».

- «سأتكلم يا بدرو؛ لكن كيف يمكنني أن أحكي... كنت أريد أخذ رأي أبي في هذه المسألة أيضًا».

قال دون باولو ألفريس الذي كان مشغولًا منذ برهة مع نينا:

- «أستأخذ رأيي أنا الآخر؟ ينتابني الفضول حول ما هي المسألة التي سينفعك فيها رأيي؟».

- «المسألة يا أبي أنه..».

قطع أنطونيو حديثه وأشار بيده إلى دون كارلوس وحرك حاجبيه بطريقة يقصد بها «لا أريد الحديث بجوار هذا، ليذهب أولًا ومن ثم سأحكي».

فقال بدرو:

- «حسنًا يا أنطونيو! يبدو أن ما ستقوله يتعلق بي؛ لكن ما دمت تريد أخذ رأي والدك فيه ووالدك قد استقبل الأمر الآن بسخرية... فسأذهب الآن... وأنت ستبقى هنا الليلة على أي حال، ونتحدث..».

ترك أنطونيو الكرسي ودون كارلوس وراءه واقترب من بدرو:

- «لا أظن أني أستطيع الانتظار لليل..». ثم أضاف بهمس محاولًا ألا يسمعه دون كارلوس:

- «ليذهب هذا المعتوه وسأدلي بدلوي على الفور..».

كان دون كارلوس يجول عينيه في الحجرة من مكانه ويتمعن فيمن بداخلها؛ المرأة التي ستلد خلال يوم أو اثنين، ودون باولو الفوضوي السابق الذي يردد أنه وجد

السعادة في الاكتفاء بالحد الأدنى للمتطلبات الدنيا للحياة، والمرأة العجوز المخبولة اللطيفة، بالإضافة إلى العدوين القديمين اللذين يهمسان في أذني بعضهما بأشياء ما؛ بدرو وأنطونيو...

كان سيخرج من هذه الحجرة بعد نصف ساعة وربما لن تتسنى له رؤيتهم مرة أخرى، انتابه فضول شديد تجاه هؤلاء الناس بغتة وفطن إلى أنه كي يتفهم هؤلاء الناس ولو قليلًا؛ ليس عليه أن يتحدث معهم؛ بل أن يشاهد تحركاتهم وهم يقتربون ويتباعدون بعضهم عن بعض.

وبعد أن توصل إلى قراره هذا اعتدل مستقرًّا على كرسييه الخشبي في الحجرة بِنيَّة الاستفادة من نصف الساعة الأخيرة، وبدأ مراقبة من في الحجرة بحيرة وفضول دون التدخل في ما يجري بحركة أو كلمة كما لو كان يشاهد مسرحية بالضبط.

ذهب أنطونيو بعد أن همس في أذن بدرو بشيء إلى جوار نينا، ولم تلاحظ نينا فقد كانت تجمجم بينها وبين نفسها:

- «رأيت رؤيا يا أطفال، رؤيا عجيبة للغاية..».

سأل أنطونيو والده:

- «من أي جهة ارتبطت نينا بك يا أبي؟ وهل هي سعيدة أم تعيسة الحظ؟».

أجاب دون باولو عن هذه السؤال بجدية كبيرة سعيدًا بأن الفرصة واتته للحديث مطولًا:

- «ولِم تكون نينا تعيسة! تعيش نينا داخل عالمها ذي اللون والرائحة والشعور الواحد القاطع، وفي عالمها هذا الأحمر أحمر قانٍ والأسود أسود قاتم والطويل طويل بشدة والقصير قصير للغاية، خوف نينا لا حد له، وسعادتها بلا نهاية، وتكفي أقل صدمة لها لتشعر بخوف أو سعادة من هذا القبيل».

كان أنطونيو يستمع لحديث والده مبتهجًا؛ حتى إنه كان مبتهجًا أكثر مما ينبغي؛ أما بدرو فبدا عليه السأم واقترب منه متحدثًا وقد بدا أنه اتخذ قرارًا مفاجئًا:

- «اعذرني في فضولي يا أنطونيو فقد شغلني ما تحدثت به منذ قليل؛ فإن شئت

فلنذهب إلى المطبخ أو إلى حجرة والدك ونتحدث، وليستأذن والدك من دون كارلوس ويأتي هو الآخر لتأخذ رأيه..».

حملق أنطونيو في وجه بدرو كأنما لم يفهم ما يريد قوله، فكرر بدرو اقتراحه مرة أخرى، فرد عيله أنطونيو:

- «أجل فما سأقوله مهم يسترعي إثارة فضولك؛ لكنه سيكون طويلًا بعض الشيء ولا أود أن أقطع مسامرة أبي في ليلة رحيل دون كارلوس».

لم يفهم دون كارلوس أنهما يتحدثان عنه؛ لأنه تقمص دور المشاهد بشكل بدا معه كل من في الحجرة ممثلًا، وبدأ كل هؤلاء الممثلين يلعبون أدوارهم المدهشة حيث حكى بدرو أحد الممثلين أصحاب الأدوار الرئيسة في هذه المسرحية:

«أشك كثيرًا في أنطونيو؛ إلا أنه لا يوجد سبب وحيد لشكي هذا، وشكي هذا مريع ما دام دون سبب مادي واحد، كما أنه يريد إخباري بشيء؛ لكن رغبته في تأخير حديثه لأقصى حد واضحة، أو أن هذا ما يتبدى لي، ربما هو يكذب وليس هناك ما يخبر به بالفعل، ولو كان يكذب فما الذي يدفعه لهذا؟».

بدا لي أني وجدت السبيل الوحيد لحل المعضلة فقلت له:

- «لنستأذن نحن دون كارلوس يا أنطونيو وتخبرني بالخبر أو بالشيء الذي تريد قوله لي في المكان الذي تريد؛ أما إن لم يكن في نيتك الحديث حالًا فلأذهب أنا..».

بدا لي امتقاع وجهه المفاجئ ومن ثم شرع في الحديث متعتعًا:

- «لكني أود أن تكون أختي شاهدة على حديثي هذا».

تحدثت كونشيتا التي لم تدخل في الحديث منذ كثير وظلت تنظر لي تارة ولأنطونيو تارة بعينين مرتبكتين وارتابت في تحدثي معه بود فقالت لي:

- «من فضلك يا بدرو لا تصر! اصبر قليلًا وحاول أن تتفهم أنطونيو، فمن يدري لو ذهبت دون أن تستمع له..».

لم يتسنَّ لزوجتي إتمام كلامها لأنه صمَّنا من الخارج من جهة البحر صوت انطلاق

قذيفة...

قال دون باولو ألڤاريس:

- «انطلقت قذيفة..».

فعقب أنطونيو:

- «أنا لم أسمع شيئًا يا أبي..».

واستفسرت كونشيتا:

- «أيمكن أن تكون سفينة حربية قد دخلت إلى الميناء يا بدرو؟».

- «غير متوقع مجيء سفينة حربية إلى الميناء؛ لكن من يدري..».

قال دون باولو:

- «توقفوا يا أولاد! لننظر إن كانت ستطلق قذيفة أخرى؟».

انتظرنا وظل أنطونيو يذرع الحجرة مجيئًا وذهابًا، بينما كانت نينا لا تزال على مقعدها الأخضر وتتمتم مع نفسها:

- «يا لغرابة الحلم الذي رأيت! يالغرابته!».

صدر صوت انطلاق قذيفة مرة أخرى من مكان بعيد؛ بعيد للغاية، فبحثت عن أنطونيو على الفور؛ كان أمام باب الحجرة، أصغيت لتمتمة نينا:

- "أشجار سوداء قاتمة، أشجار طويلة شاهقة".

بدأت الآن أصوات مدافع رشاشة تتناهى من الخارج بعيدًا، وأصبح من المؤكد وقوع أمر بالخارج، فقلت:

- "لأذهب وأرى يا كونشيتا!".

سرت تجاه باب الحجرة مديرًا رأسي إلى زوجتي الصارخة:

- "تعالَ بسرعة يا بدرو! سأموت من القلق!".

كان أنطونيو لا يزال أمام الباب كما ذكرت آنفًا فقلت:

- «قف يا أنطونيو!».

أطلق أنطونيو الضحكات حتى إنها كانت المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها عينيه وقال:

- «بل قف أنت يا بدرو! لا تستطيع أن تخرج من هذه الحجرة».

ومن ثم سحب أنطونيو مسدسه ووجه فوهته تجاه من بيني وبينه قائلًا:

- «إذا تحركت سأقتلهم!».

ثم استطرد محصيًا الأسماء واحدًا واحدًا:

- «أبي وكونشيتا ودون كارلوس المحترم! اعلموا أنكم إن قمتم بأدنى حركة سأرسل الصهر والزوج بدرو إلى العالم الآخر..».

قالت كونشيتا مجيبة على تهديداته الهزلية هذه:

- «أجننت؟ ماذا تفعل؟».

أردت القفز فوقه مستغلًّا تشتت انتباهه في هذه الثانية؛ لكنه نزل بقبضته الغليظة على فكي وقال متكئًا على الباب:

- «تراجع واذهب إلى جوار زوجتك فاجلس على فراشك وانتظر!».

تعالت أصوات القذائف في الخارج شيئًا فشيئًا.

جلست على سرير زوجتي وانتظرنا، وعينا أنطونيو التي اختفت ثانية أسفل رموشه الطويلة؛ على الباب ويداه ممسكة بالمسدس، امتقع وجه دون كارلوس وغمغمت نينا كما لو أنه ليس لها أدنى علاقة بما يجري حولها:

- «كانت الورود حمراء وأي حمار، حمار قانٍ... والأشجار سوداء؛ سوداء قاتمة... أشجار شاهقة سوداء قاتمة..».

رن جرس باب البيت فجأة، فصمتت نينا وحدقت في ما حولها كأنها أفاقت فجأة

من سباتها.

قال أنطونيو:

- «لا تصدروا صوتًا! إن أحدثتم أي جلبة سأفرغ مسدسي».

أحاطت بمعصمي يدا كونشيتا التي شعرت بتلويها أسفل بطانيتها، فقلت:

- «أهناك مغص يا كونشيتا؟».

لم تجب.

رن جرس الباب مرة أخرى لكن بمزيد من الإصرار واقترب دوي أسلحة متتالٍ فأردت النظر من النافذة إلى الخارج لكن أنطونيو دمدم:

- «لا تتحرك يا بدرو!».

كان جرس الباب الخارجي ما زال يرن دون توقف، وهو يشد من الخارج بسلك.

بدأ من يقرع الباب بالصياح:

- «ألا يوجد أحد؟ يا بدرو!.. يا دون باولو!.. يا كونشيتا!». عرفت صوته؛ كان الخراط فليبا.

كم أن رأس الإنسان مذهل! كيف يعمل أحيانًا، وأستطيع التفكير في عدة أشياء ليس لها علاقة ببعضها خلال لحظة؛ أجل خلال لحظة واحدة، فرغم أن جميع الأشياء التي مرت بذهني كانت مختلفة ومتباينة تمامًا؛ إلا أنها تولدت داخل رأسي وتداخلت بعضها ببعض واختفت، ثم صارت تومض تارة وتنطفئ تارة، فبينما اجتاح ذهني أفكار من قبل وقوع أمر جلل في المدينة وهو على الأغلب اندلاع تمرد، وأنطونيو مشترك في هذا التمرد وقد جاء إلى هنا لهذا السبب فالوظيفة التي كلفوه بها هي حبسي في المنزل؛ كنت في الوقت نفسه بإمكاني التفكير في أن كونشيتا تعاني من المغص، وأن يديها الباردتين المحيطتين بمعصمي تزدادن قبضتهما شيئًا فشيئًا وأنها تمسك نفسها بصعوبة كي لا تصرخ، ومع كل هذا اندلعت بداخلي في الوقت نفسه رغبة بالقفز فوق أنطونيو والنداء على الخراط فليبا في الخارج، أي أن هذه الأمنية طرأت على ذهني هي الأخرى؛ لكنني قضيت عليها بالتفكير في أني لو قمت بأدنى حركة

سيطلق أنطونيو النار وإما أن يصيبني أو يقتلني ولن تفيد حركتي هذه بأي شكل، لم أكن خائفًا؛ ليس لأنني شجاع جسور مهيب؛ بل بسبب أني كنت في حالة لا أستطيع معها التفكير في أني بمواجهة الموت بالفعل، وبسبب مواجهتي على حين غرة بفوهة مسدس على غير توقع مني، وبسبب تأكدي القاطع من صحة أفكارى حول الحياة، فالإنسان عندما تدور الحياة بسرعة قصوى يفقد شعوره بالخوف، فالخوف ينمحي تمامًا من أعماق الجنود المشاركين في الحرب وجهًا لوجه؛ ويبقى بصورة أقل في أعماق الجنود المتأخرين والقابعين في الخنادق.

ويبدو أن فليپا سحب سلك الجرس بقوة شديدة في آخر مرة حتى انقطع السلك حيث أطبق صمت عميق وثقيل بعد رن الجرس بشدة مطولًا، أما فليپا فصرخ مرتين أو ثلاث مرات أخرى ثم أطلق السباب وولى في طريقه، وسمعت أصوات قدميه المبتعدة عن بابي بين دوي الأسلحة الذي أخذ يزداد قوة ولفني حزن رهيب لوهلة وغمرني فجأة يأس شديد.

نهضت نينا على قدميها؛ ولأنها كانت أول إنسان يقوم بحركة في الغرفة منذ مدة؛ كان لوقع قيامها عن المقعد الأخضر أثر عجيب.

سارت نينا ببطء نحو أنطونيو وبدت كأنها تتحكم في ابتسامتها بصعوبة وهي تهمهم مع نفسها بصوت عجيب:

- «رأيت حلمًا يا أطفال! حلمًا غريبًا... يا لغرابته؛ يا لغرابته..».

شرع أنطونيو في الحديث صارخًا كأنما لا يرى نينا المقتربة منه أو كأنه يخشى تردد صوتها بمفرده في الحجرة أو أنه لم يعد يتحمل صوتها في الحجرة:

- «بدرو! لا تغضب؛ لكني لم أكن أظنك أبله لهذه الدرجة، أي أنه ليس لديك خبر بعد بتمرد الجنرال فرانكو في المغرب، ولم الكذب؟! فعندما ذهبت مع الأصدقاء هذا الصباح إلى المصنع لاستدعائك وقتلك، وسمعت أنك لم تأتِ إلى العمل فكرت في أن «الطير طار وبدأ الاستعداد، ولا بدَّ أن لديه علمًا بتمرد الجنرال فرانكو»، اندهشت عندما قال أبي إنك في المنزل، لكن لا ضير لتفرح كونشيتا وتدعو لي لأني لم أتركك في الشارع؛ وإلا كنت قتلت منذ مدة، سينتهي الأمر في ساعة أو اثنتين ثم سأسلمك، ولا شأن لي بما يحدث بعد ذلك».

كانت نينا قد دنت للغاية من أنطونيو وهي تحملق في وجهه مغمغمة برؤياها ذات الزهور الحمراء والأشجار السوداء كأنها تتخيلها على وجهه، وكنت أراقب وجهها من الطرف ولم يكن يبدو فيه سوى قبضها على قهقهتها التي أوشكت على السيطرة على شفتيها وحيرة الأطفال المنبلجة من عينيها.

وصلت نينا إلى مكان تحول فيه بين رؤية أنطونيو ودون باولو بعضهما لبعض، ولاحظت قيام دون باولو من مكانه في لحظة بمهارة السمك التي تمتاز بالمرونة، وفي يده عكازه ذو الطرف الحديدي، كان هذا العكاز مستندًا إلى الجدار في الزاوية ولا أعرف كيف ولا متى انتقل إلى يده، كما أني أظن أن كل هذا جرى في وقت أقل من الثانية؛ لأن دون باولو تحرك من مطرحه بعكازه فدفع نينا يسارًا ونزل بعكازه على معصم أنطونيو القابض على المسدس.

صرخ أنطونيو بألم وسقط المسدس على الأرض وقفزت أنا، أصبح المسدس في يد دون باولو وأطلقت نينا القهقهات.

كان المسدس لائقًا بيد دون باولو الفوضوي السابق، تحدث بصوت خافت كثيرًا:

- «لا يتحرك أحد! وخاصة أنت يا أنطونيو لا تحاول مطلقًا..».

تعالت قهقهات نينا، بينما أكمل دون باولو:

- «أخفت يا دون كارلوس؟». قالها وهو يغمز بطرف عينه لدون كارلوس الذي انكمش في الكرسي الذي يجلس عليه، ثم اشترك مع نينا في إطلاق القهقهات قائلًا:

- «نحن مضحكون للغاية يا أولاد، لقد أضحكنا نينا حتى علينا».

ثم أردف مشيرًا بماسورة المسدس الذي بيده بدلًا من أصبع السبابة:

- «تنحَّ إلى ذاك الطرف يا أنطونيو!».

كان أنطونيو خائر القوى، ولم أعد أقوى على التفكير بشيء؛ كنت أتابع ما يجري فقط؛ ثم هرولت إلى الباب ما إن قال لي دون باولو:

- «هيا اركض وانظر عملك!».

بيد أني توقفت لوهلة وطرأت على ذهني عدة أشياء فاستدرت ونظرت لكونشيتا؛ كانت شاحبة للغاية وتئن فقلت لدون باولو:

- «لا تحول عينيك وأذنيك عن كونشيتا يا دون باولو!».

وكان هذا آخر ما تفوهت به في تلك الحجرة...

كان بدرو يقص هذا الحكاية في ما بعد كما سبق لرفقائه ليلة رأس السنة في تيرول بينما كان الثلج يهطل؛ لكن كان لهذه الحكاية مشاهد أخرى ختامية.

فبعد أن ذهب بدرو كان أول ما فعله دون باولو هو إيصاد باب الغرفة ووضع المفتاح بجيبه.

تأوهت كونشيتا، فنصبت نينا عينيها عليها هذه المرة وكررت عليها:

- «لا تلدي يا ابنتي... لا تلدي، لا تلدي أممكن؟».

ابيضت شفتا أنطونيو الحمراوين جراء قضمها بأسنانه الحادة؛ أما دون كارلوس فبات خجلًا من التطلع حوله.

سار دون باولو في اتجاه ابنته والمسدس ما زال بيده فتفحصها، لم يكن بوجهها قطرة دم واحدة كما كان أسفل عينيها ذابلًا.

أراد أن يقول لابنته شيئًا؛ إلا أنه لم يفلح فعاد أدراجه بحرص، ثم صرخ كما لو أن سكينًا بيد أنطونيو يتأهب لقذفها وهو يمنعه:

- «انتبه إليّ يا أنطونيو ولا يراودك الوثب عليّ أو ما شابه... فلن أشفق عليك وسأقتلك... أتفهم؛ يا أنطونيو! سأطيح بجثتك على الأرض مع أول حركة تقوم بها».

تطلع أنطونيو في وجه أبيه وحدثه بصوت متوسل كأنما يتحدث مع والدته:

- «أستحبسني هنا يا أبي؟».

أدهشه رد ابنه بصوت طفولي هكذا على تهديده الذي ألقاه صارخًا فأجابه متلعثمًا:

- «لا، أبدًا؛ لا نية لي بحبسك... أنت..».

أدخل يده في جيبه ببطء فأخرج المفتاح وحدق فيه مطولًا...

فتحت كونشيتا عينيها في هذه الأثناء وحاولت أن تعتدل مع معاودة المغص، وبدا واضحًا أنها ترغب في قول شيء؛ لكن لا تستطيع إصدار صوت.

كان دون باولو ما زال يحدق في المفتاح بينما قال أنطونيو بصوته الطفولي ذاته:

- «ألك الحق في حبسي هنا يا أبي؟».

حول دون باولو عينيه عن المفتاح الذي بيده ووجهه بالكامل إلى ابنته ثانية، ثم أدخل المفتاح في جيبه ومس بيده اليمنى الفارغة جبهة ابنته الباردة الرطبة التي تغمرها قطرات العرق وألقى المفتاح بيده اليسرى في وسط الغرفة:

- «خذه! افتح الباب واغرب من هنا!».

قالت كونشيتا محملقة في وجه والدها من أسفل يده التي على جبهتها:

- «ماذا فعلت يا أبي؟ ماذا فعلت؟ سيقتل بدرو..».

خرج أنطونيو من الغرفة وسُمع صوت فتح باب الحجرة وإغلاقه بسرعة، ثم سمع دون باولو أصوات دوي سلاح قادم من المدينة فغمغم كأنما يُحدث نفسه:

- «وماذا بيدي أن أفعل يا ابنتي؟ ماذا بيدي؟ أنا أقف على الحياد فالاثنان من حقهم الحياة، ليتصارعا في الشارع بالخارج من أجل قناعاتهما عنها..».

ضحكت نينا مقهقهة:

- «رأيت حلمًا يا أطفال! حلمًا غريبًا... يا لغرابته؛ يا لغرابته..».

الفصل الثاني

ما حدث قبل ساعة تسبب في إعلان دون باولو ألڤاريس حياده، فقبل أن تدق الثانية عشرة ساعة الكاتدرائية الدقيقة، حيث كان الرسام دون رودريغو يجلس بين امرأتين شابتين بجوار الكاتدرائية أمام محل زهور دونا مارية، كانت إحداهما من تشيكوسلوفاكيا؛ أما الأخرى فكانت من يهود الدنمارك، كانت اثنتاهما قد أتتا إلى المدينة ضمن فرقة المنوعات الموسيقية الراقصة، كانت المرأة التشيكوسلوفاكية فارعة القوام، تشبه الرياضيين الشباب بكامل هيئتها من ساقيها مفتولتي العضلات وصدرها العريض ونهديها اليابسين؛ بخلاف عينيها الذابلتين الحزينتين فوق عظام وجنتيها الناتئتين.

أما الفتاة اليهودية الدنماركية ذات الشعر المنفوش المجعد كثيرًا والعينين الزرقاوين الواسعتين والبشرة الشقراء الشاحبة التي تبدو كما لو أنها صنعت من أوراق الكتب العتيقة المخطوطة، فكانت تؤدي شبه عارية رقصة النقرات مع راقصة زنجية سمراء.

كان الرسام دون رودريغو يتحدث بالفرنسية مع المرأتين، حيث قالت الفتاة اليهودية الدنماركية:

- «ثمة حزن يعتري أعماقي لا حل له إلا الموت، كأنه مكون من أجزاء صغيرة وكبيرة مثل الفسيفساء... فلو أن سببه واحد لما اعتصر أعماقي لهذا الحد... على الرغم من أنه لا يوجد له سبب واحد، وما يدريني فعلى سبيل المثال عندما استقللت الترام وتطلعت عبر زجاجه إلى الخارج والشارع والزحام؛ جال بخاطري: ياه كم أن البشر كثير وكم أني لا أعرف منهم إلا قليلًا، كم أنهم بعيدون عني وكم أني بعيدة عنهم! غمرني الحزن... وبعد هذا في يوم آخر وبينما كنت أغسل وجهي رأيتني في مرآة الحمام، سيطر سؤال واحد على

تفكيري وهو «لماذا أعيش؟»، كم أن الناس الذين يستطيعون الإجابة عن هذا السؤال محظوظون؛ أما أنا فلا أستطيع الجواب عليه، انتابني البكاء... هل تصدق أنك ستهرم؟ أقصد هل تصدق حقًّا أن أباك وأمك أو هؤلاء الفتيات الصغيرات ذوات الملابس السوداء المنفوشة اللاتي تصادفهن في الطريق سيهرمن ذات يوم حقًّا؟ أجلست وفكرت طويلًا في هذا الأمر من قبل؛ أم أنك عودت نفسك على افتراض احتماليات بعيدة في هذا الشأن مرددًا فقط «أنا الآخر سأهرم بالتأكيد ذات يوم». دون تفكير؟ أنا لم أستطع الاعتياد على هذه الفكرة بعد، وكلما مر بذهني أني سأهرم مثل الجميع تضيق نفسي ويأخذ صوت يتردد في أعماقي «ثم! مر هذا العمل... أديت هذه الرقصة... ارتديت هذا الزي... نمت مع هذا الرجل... وأتاني النوم في هذه الليلة... ثم؟ ثم ماذا سيحدث؟». ثم أدرك أنه لن يحدث أي شيء ولن يقع أي أمر لا أعرفه أو لم أتوقعه أو لم يخطر على بالي... ثم سيتشابه كل ما يقع مع كل ما وقع من قبل، وحتى لو أنه لم يتشابه فإنه يتشابه بمجرد أن يبدأ الصوت المتسائل يتردد في أعماقي «ثم؟»... وتضيق روحي... أسيكون من الأفضل لو تخلصت من هذا الضيق؟ لا أعلم، يخيل إليّ أحيانًا هذا؛ إلا أنني أشعر بالامتنان للضيق الذي يعتريني أحيانًا فهو ما يجعلني أختلف عن الحيوانات؛ لأن الحيوانات لا تشعر بالضيق؛ أليس كذلك يا دون رودريغو؟».

لم يجبها الرسام دون رودريغو، فأحيانًا ما يشعر هو الآخر بالضيق، ولا سيما عندما يرى المتسولين العجائز والأطفال الراكضين بسيقان معلولة في الشوارع الخلفية؛ عندها يجتاح أعماقه ضيق شديد.

فكلما فكر في ضحايا الحرب العالمية قديمًا والموتى حاليًا في إثيوبيا والمجموعات البشرية النامية في الهند والصين وإفريقيا، والقرويين والعمال وحتى المثقفين في أوربا وأمريكا؛ شعر بحاجته لتحطيم وتمزيق ما يقع أمامه، ويجعله كل ما يتحمله هذا وكل هذه المجموعات البشرية التي تتقدم ببطء شديد يشعر باليأس...

- «بم تفكر يا دون رودريغو؟».

- «لا شيء..».

- «يبدو أنك –أيضًا– على الأغلب قد ضاقت نفسك بغتة؟».

- «نعم..».

سألت المرأة التشيكوسلوفاكية التي كانت ترمقه بولع غريب من فوق عظمتي وجنتيها الناتئتين دون أن تتدخل في الكلام السابق:

- «أأنت اشتراكي يا رودريغو؟».

- «لا لست اشتراكيًّا ولا فوضويًّا ولا شيوعيًّا..».

- «لكنك لست فاشيًا؛ أليس كذلك؟».

- «من أين عرفتِ؟».

- «لا أعلم؛ لكنك لا تشبههم».

- «لا لست منهم، حتى إنني عدو لهم يا سنيوريتا!».

- «وأنا أيضًا..».

- «ولم؟».

- «قل أنت أولًا سبب عداوتك لهم، ومن ثم سأقول أنا».

- «سببي بسيط يا سنيوريتا... فأنا الآخر أحيانًا ما تضيق نفسي... لكن ضيقي هذا ليس كصديقتك لا يمكن حله إلا بالموت، فأنا أحب الحياة والألوان وأشكال المواد ومعناها وبشرة المرأة الجميلة والشراب الثقيل، ثم إن لديّ شغف تجاه الأفضل والأجمل ويبدو لي هذا الشغف شيئًا مثاليًّا يا سنيوريتا... أما الفاشية فتقتل هذا الشغف، فالفاشية تمدح الموت وتستنكر الشغف العجيب تجاه الحياة وتكره الذكاء والوعي، الفاشية تقضي على الأمل، وتخبرنا «سيبقى كل شخص في مكانه إلى الأبد»، وتسخر من الشغف الذي نتطلع به نحو حياة إنسانية أكثر عدلًا وجمالًا... وفي سبيل تمكنها من القيام بهذا؛ تحفز بوحشية بربرية أوهامنا واعتقاداتنا الباطلة والجماعات التي ما زالت متحدة منا حتى الآن وانسياقنا الصارخ بعطف أمام الرؤوس المقطوعة والذي يثير بداخلنا ذلك الولع الذي يشعر به الأطفال تجاه الخرز والألوان المبهرة للنظر. أنا رسام؛ يا

سنيوريتا... أرسم لوحات شخصية، وإذا تتبعنا عملي فقد قمت حتى الآن برسم خمسمئة وجه على الأقل بحب وبشغف، لا يمكنني مثلًا تحمل تمرير فرد من الأشخاص الذين رسمتهم في شوارع المدينة بين ضجة الأبواق من أجل إرساله ليُقتل أو يَقتل على أراضٍ قاصية أجنبية دون علم منه وفي حين أنه لا يرغب أبدًا في أن يموت أو أن يقتل، رسمت خمسمئة وجه إنسان على الأقل، وكأني أخلق ملامحها لثاني مرة... فوجوه البشر تشبه بعضها بعضًا مهما اختلفت ملامحها، وأنا أحب البشر الذين أبدع وجوههم يا سنيوريتا! وعداوتي للفاشية هي نتيجة لهذا، أأمكنني التوضيح؟».

- «نعم..».

- «إذًا فالدور عليكِ يا سنيوريتا!».

- «ربما كانت عداوتي للفاشية تنبع من سبب واحد يتعلق بي شخصيًّا يا رودريغو... كنت أعمل في ملهى ليلي في برلين، وكنت أؤدي أنا وشاب ألماني فقرة بهلوانية، كان كل منا يرتدي مايوه أبيض يلتصق بجسمينا كجلدنا، ولأعترف أن جسد رفيقي كان أجمل من جسدي، كان فاتنًا بساقيه الطويلتين النحيفتين الأملسين مفتولة العضلات وبفخذيه النحيلين النشيطين اللذين يتحركان أسفل المايوه الأبيض؛ لدرجة أنه لولا أن له رأس شاب أشقر يحمله بغرور؛ لأمكنني القول إنه جسد فتاة شابة بطلة تزلج من الشمال، كنت في بادئ الأمر أسخر منه على الدوام قائلة: «قلد الرجال بقدر ما تريد برأسك الأشقر ذي العينين الزرقاوين اللتين بلا حاجبين، احلق كل صباح وأطلق السباب واحملني بأسنانك البيضاء متأرجحًا على العارض ورأسك لأسفل كما شئت؛ كل هذا بلا طائل، فأنا أشك في رجوليتك!»، لم أكن أشتبه في رجولته بالواقع؛ بل حتى إن رأسه الأشقر بعينيه الزرقاوين من دون حاجبين وأسنانه البيضاء؛ كانت تعجبني، كما كان له صوت رخيم ودافئ، وكان يغني أغنية لي وهو يوصلني إلى نُزلي بعد انتهاء عملنا، فكان ينتاب أعماقي بينما يغني لي تلك الأغنية التعلق برقبته وتقبيله، فلم يَنْتَبْنِي الشك في رجوليته ولو لحظة، كما أنه حتى لو كنت أشك فقد أثبت لي رجوليته في الشهر الثالث لعملنا في صباح ليلة حارة معتمة فوق العشب الرطب في الغابة بعد جولة بالسيارة، ثم تزوجنا بعدها بخمسة عشر يومًا، كان

هو شديد التدين؛ أما أنا فلا، كنت بروتستانتية، وعقدنا قراننا في الكنيسة وفي البلدية... ولِم أكذب!.. كان هو من أراد عقد قراننا بهذه الطريقة...

في اليوم الثاني لزواجنا أخرجني من العمل وقال لي: «أيا زوجتي الحبيبة... أنت ستجهزين لي فراشًا نظيفًا كل ليلة، وستعدين لي سلطة البطاطس الشهية كل يوم، وستنجبين كل سنة طفلًا عفيًّا... وليس هناك وقت أمام امرأة مكلفة بكل هذه الوظائف الشاقة؛ لارتداء المايوه الأبيض في الملهى والقيام بحركات بهلوانية، أنا سأكسب المال من أجلنا نحن الاثنين...». وأصبح هو يكسب المال من أجلنا، وأنا أعد له سريرًا نظيفًا كل ليلة وأجهز له سلطة البطاطس كل يوم، وبينما كان أول أطفالنا في بطني على وشك الخروج للدنيا؛ أحرق غورينغ مبنى الرايخستاغ[17] في برلين، وحتى احتراق الرايخستاغ لم يكن قد خطر على بالي أنا أو هو أن تلعب السياسة دورًا في حياتنا، فهو كان يردد أنه لا يصوت حتى في انتخابات البلدية؛ لكن حريق غورينغ اقتحم بابنا عنوة، فذات صباح أخذه عساكر من الـ(S. A.)[18] بأذرعهم التي تحمل الشارات وأحذيتهم الطويلة الضخمة وكرافتاتهم وأسلحتهم، لم أستطع أن أعرف ماذا تعرض له... جاء قبيل المساء، وكانت سلطة البطاطس معدة فلم يأكل... لم يحسب كم كبرت بطني... قال ناكسًا رأسه: «أنت تشيكوسلوفاكية... نعم؛ أنت سلاڤية، وأنا ألماني؛ چرماني. دماؤنا مختلفة ولا يمكن اختلاطها... سنفترق... فنكاحنا باطل من الأساس». أصابتني الدهشة لوهلة وظننته يمزح؛ لكنه ظل يعيد نفس الأشياء بنفس الكلمات ونفس الترتيب، كأنه طفل يتلو بصوت عالٍ خائفًا من الخطأ في نظمه الذي حفظه قسرًا دون أن يفهمه، كان صوته العالي الذي يتحدث به صارخًا ورأسه المنكس المحني للأمام غير متوافقين مع بعضهما لدرجة أني شككت في أنه يرغب بإسماع كلماته هذه لآخرين، كأنما يوجد من يستمع لكلماته هذه تحت نافذتنا بالخارج، هرولت إلى النافذة، كنا نقطن بالطابق السادس، فتحت النافذة ونظرت إلى الخارج، كان في الشارع اثنان من الـ(S. A.) يستندان بظهريهما إلى الجدار، أردت أن ألقي شيئًا على رأسي الوغدين... تلفت حولي... جذبني زوجي من عند النافذة...

17- مبنى الرايخستاغ: هو مبنى البرلمان السابق في الإمبراطورية الألمانية القديمة.

18- كتيبة العاصفة (S.A): هي الجناح شبه العسكري للحزب النازي، ولعبت دورًا هامًّا في صعود هتلر إلى السلطة في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين.

وكان وجهه شاحبًا للغاية... بدا رأسه الأشقر الذي في عمر الـ 23 سنة شائخًا فجأة... لم أكن قد فكرت أبدًا في أنه من الممكن أن يخاف إلى هذا الحد... فقد كان يصعد إلى العارض في السقف داخل الملهى دون أن يتخذ أي احتياط أمني، وكان هناك يقوم بجسده الأشبه بجسد فتاة شابة مرتديًا المايوه الأبيض بحركات ينخلع لها قلبي أنا حتى من محله، بينما هو لم تكن ترتسم على محياه بعد هبوطه من العارضين الخطيرين ملمحًا آخر غير الابتسامة؛ أما الآن فقد بلغ به الخوف مبلغ أن يمر إلى حجرة نومنا القابعة في الجهة الخلفية دون حتى أن يجرؤ على غلق النافذة التي فتحتها، استدعاني إلى جواره بإشارة من يده، انتابني اشمئزاز مفاجئ نحوه؛ إلا أنني ذهبت إلى غرفة النوم... تحدث بصوت خافت للغاية: «ليس أمامنا حل! اخرجي يا زوجتي الحبيبة من البيت دون أن تلقي سؤالًا واحدًا... فأنت لا تعرفين ما قالوه لي... ولا ما رأيته هناك... لديك جواز سفر... عودي على الفور إلى تشيكوسلوفاكيا... سأعطيك أنا تكلفة السفر... وانتظريني هناك... فسآتي...». جهزت حقيبتي... بكيت بالتأكيد وأنا خارجة من الباب... هم بإمساك يدي؛ لكني تراجعت، وغادرت في ذلك المساء -على التو- برلين، مكثت في براغ شهرين وانتظرت رسالة منه؛ لكنها لم تأتِ. ولد طفلي فتركته لأمي وذهبت فاستقررت في موقع على الحدود بين ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا أنتظر مجيئه؛ لكنه لم يأتِ؛ على الرغم من أن الفارين من ألمانيا كانوا يتجاوزون الحدود كل يوم. كانت هناك حانة في القرية وكان العابرون للحدود يلتقون هناك فكنت أذهب إليها كل ليلة وأتحدث مع المهاجرين الفارين وأسألهم عنه، فعلى الرغم من جبنه وتجلي وضاعته بالتخلي عني دون القيام بأدنى مقاومة؛ كنت أحب زوجي الرجل ذا الرأس الأشقر ووالد طفلي، وأخيرًا أمكنني تلقي خبر عنه من مخرج يهودي مشهور، فقد اعتقلوا زوجي بعد ذهابي بشهر وأرسلوه إلى أحد معسكرات الاعتقال في الشمال، لم أصدق في البداية؛ لأنه لا يمكن أن يكونوا فعلوا به هذا لأنه متزوج من تشيكوسلوفاكية؛ ثم إنه تخلى عني مع أول أمر، لم أصدق... ثم صدقت، فلم يكن أمامي إلا التصديق، وصرت بعد ذلك أجمع من المهاجرين القادمين كل المعلومات المتعلقة بمعسكرات الاعتقال في الشمال، كانوا يحكون لي أمورًا مروعة، وصرت لأول مرة في حياتي من بعد تخرجي من المدرسة أقرأ روايات غير روايات الحب، فقد صدرت كتب تحكي عن الحياة في معسكرات الاعتقال النازية الألمانية، وأحيانًا كنت أقرأ منها مجهشة بالبكاء اثنين أو ثلاثة خلال ليلة واحدة، وكنت أتخيله هناك برأس

أشقر حليق تمامًا مرتديًا لبس السجناء وهو يكسر الأحجار أو يركض عقابًا له ثانيًا ساقيه الطويلتين النحيفتين وهو يُضرب ضربًا مبرحًا أو ينتصب معاقبًا بعدم النوم وأتصور عينيه الزرقاوين المتقدتين بينما يفكر فيّ وفي ابنه، مر شهران آخران على الأغلب هكذا، ثم استخرجت جواز سفر مزيف بطريقة لن أستطيع ذكرها الآن، وعبرت إلى ألمانيا، كم كنت متأملة! خُيّل لي أنني سأجده فأضعه فوق البساط السحري وأستطيع تهريبه، ولم يكن في يدي غير عنوان ونقود قليلة للغاية، لم أتمكن من الوصول إلى العنوان الذي بيدي وصرفت كل ما أملك بخلاف النقود التي حجزت بها تذكرة قطار العودة الدرجة الثالثة؛ في أكبر ملهى في برلين خلال ليلة؛ لأن..».

صمتت المرأة التشيكوسلوفاكية.

فقد جاء صديق الرسام رودريغو دون لويس إلى مائدتهم، ألقى التحية عليهم فقال الرسام رودريغو:

- «تحكي لنا السنيوريتا قصة مشوقة للغاية، وأهم جزء في القصص خاتمتها، وأنت أدركت الخاتمة فأصغِ!».

لم تنطق المرأة التشيكوسلوفاكية بحرف.

فأردف الرسام رودريغو:

- «كنت تحكين أنك لم تذهبي إلى العنوان الذي أُعطي لك في ذهابك إلى برلين ثانية، وأنك أنفقت كل ثروتك الضئيلة بخلاف نقود التذكرة في أكبر ملهى في برلين يا سنيوريتا».

بدت المرأة التشيكوسلوفاكية كما لو أنها تضايقت من دون لويس الذي انتقل لمائدتنا، ولم تعرف كيف تستأنف كلامها، وربما –أيضًا– لم تكن ترغب في الحديث عن شيء يخصها فقط أمام دون لويس الذي لا تعرفه كثيرًا.

بيد أن الرسام رودريغو أخذ يرمقها بعينيه السوداوين المشفقتين المفعمتين بالشغف حتى تحدثت بوجنتين يكسوهما الحمار:

- «نعم؛ ومن ثم عدت في الصباح التالي بأول قطار إلى تشيكوسلوفاكيا مرة أخرى؛ لأنني تحدثت معه تلك الليلة في الملهى، ففي طريقي إلى العنوان

المعطى إليّ؛ لمحت فجأة صورته واسمه على إحدى أبراج اللوحات الإعلانية. صورته هو؛ أجل... مرتديًا المايوه الأبيض، كان الإعلان عن أشهر رياضي شاب في أكبر ملهى في برلين؛ بالطبع خمنتم من هو... أول ما خطر على بالي أنه لم يذهب إلى معسكر الاعتقال قطعيًّا وأن الخبر الذي تلقيته كان خاطئًا، هو فقط نسينا وفي ظل انشغاله الكبير لم يكتب رسالة ولم يجب على رسائلي، وقضت قناعتي هذه على رغبتي في رؤيته ولو لمرة أخيرة يتحرك بالمايوه الأبيض... اجتاحني غضب شديد منه وشعرت بكره شديد تجاهه... لكنني مع هذا ذهبت إلى الملهى قبل أن تضاء مصابيحه الأولى لأجل رؤية رجلي الأشقر، ورغم أن الوقت كان لا يزال مبكرًا إلا أن الملهى كان مكدسًا، ولا سيما موائد جنود الـ(S.A) وزوجاتهم اللاتي كن يعججن بالصخب، طلبت شرابًا، كنت أظن أن الجميع يرمقني بنظراته، نظرت في غرفة الملابس، ورأيت لوحه بالمايوه الأبيض معلقة هناك، وقبيل الساعة الحادية عشرة علقوا أرجوحته في السقف ثم أتى هو داخل ضوء أزرق خافت وبين التصفيقات الحارة والقهقهات المجلجلة، لم استغرب التصفيقات لكن القهقات أثارت حيرتي، تطلعت إليه، لم يتغير أبدًا؛ لا بل إن جسده هو ما لم يتغير أبدًا؛ نفس جسد الفتاة الرياضي داخل المايوه الأبيض؛ لكن الرأس الأشقر الذي كان يرفعه منتصبًا بغرور فوق هذا الجسد لم يكن موجودًا، بدا لي أن شعره طال قليلًا ومع حماستي الأولى ميزت أن شفتيه مصطبغتان بطلاء؛ خاصة أن البودرة لم تبق على وجهه خلال قيامه بهذه الفقرة..».

سكتت المرأة التشيكوسلوفاكية من جديد وتطلعت أمامها، ثم رفعت رأسها فجأة واستطردت كأنها تحدث عيني الرسام رودريغو:

- «نعم؛ إن أهم جزء في القصة خاتمتها يا رودريغو، وقصتي –أيضًا– كذلك... وجدت طريقة بعد أن أنهى فقرته –سأختصر هذا الجزء يا رودريغو لأجل الوصول إلى النهاية التي تهمك– ودخلت حجرة تغيير الملابس، وفي هذه الحجرة التي كانت تفوح بأسوأ عطر للاڤندر لكنه أغلاه، تقابلت معه وجهًا لوجه أمام صورة معلقة بجانب المرآة لوغد بوجه مفلطح خده مشقوق بجرح ويرتدي زي الـ(A. S.)، انفجر في البكاء فخرجت كالمجنونة من الحجرة،

كانت إحدى النساء في غرفة تغيير الملابس تحكي لصحفية فرنسية عن مغامرة البهلوان المشهور ذي المايوه الأبيض بهمس وبضحكات مكتومة، فقد كان قد ذهب إلى أحد معسكرات الاعتقال بالفعل، أجل يا رودريغو! كما أنهم جعلوه يحطم الأحجار وينتصب معاقبًا بعدم النوم، وربما أنه بالفعل كان يتخيلني وطفله الذي لم يرَه بعينيه الزرقاوين المحمرتين من عدم النوم؛ لكن ما من أحد يعلم سبب إرساله إلى معسكر الاعتقال، كما أن كيفية إطلاق سراحه فجأة من هناك بعد ستة أو سبعة أشهر وتعيينه في أضخم ملهى في برلين بعقد مثالي مجهولة؛ لكن هناك علاقة وثيقة للغاية تجمع بين قائد معسكر الاعتقال الشمالي الذي تلفت وسامة وفتوة حراسه ومعاونيه النظر؛ أي ذلك الوغد ذو الوجه المفلطح صاحب الخد المشقوق الذي رأيت صورته بجانب المرآة، وكل من في المدينة على علم بهذا، فهو من أمر بإرسال البهلوان ذي المايوه الأبيض إلى معسكر الاعتقال وهو من أدخله هذا الملهى بتزكية منه فور خروجه... وبعد هذا كل ليلة..».

انفجرت المرأة التشيكوسلوفاكية في البكاء، اندهش الرسام رودريغو ورغب في القيام بأي فعل فربت على يدي المرأة النحيلتين ثم طلب العفو منها.

وكما انفجرت المرأة في البكاء فجأة حاولت كذلك الضحك فجأة وقالت:

- «عذرًا! مر عامان على هذا... لو كان مات أو حتى ما زال معتقلًا في معسكرات الاعتقال لكنت اعتدت؛ لكنني لا أُستطيع التعود على وصوله إلى هذه الحالة، ربما هناك من وقع في هذا ومن أُوقع في هذا في ظل ظروف أخرى؛ لكن لو لم يحرق غورينغ الرايخستاغ ولو لم يكن هناك وجود لمعسكرات الاعتقال والقادة ذوو الوجوه المفلطحة؛ لما وقع رجلي وزوجي وأبو طفلي وبهلواني ذو المايوه الأبيض في هذه الحالة. أرأيت يا رودريغو؟! إن عدواتي للفاشية تنبع فقط من سبب شخصي بحت؛ وإلا فإن وقوع نفس هذا الأمر وحدوثه مع رجال نساء أخريات وأطفالهن لا يجعلني أعادي الفاشية؛ لأني امرأة مسكينة وامرأة جاهلة حتى بقدر أنه لا يمكنني فهم غير الأسباب الأصلية للأمور والمصائب التي تحل بي فقط..».

صمتت المرأة التشيكوسلوفاكية ناكسة رأسها، وتطلع الرسام رودريغو إلى عينيها الذابلتين المكدودتين أعلى عظمتي وجنتيها الناتئتين كما لو كان يربت على رأس طفلة عزيزة.

تحدثت الفتاة اليهودية الدنماركية:

- «أيمكن أن تأتي الفاشية إلى إسبانيا أيضًا؟».

لم يكن واضحًا على من ألقت سؤالها؛ لكن عندما ألقي سؤال كهذا أجاب دون لويس الذي قصره على نفسه كما يفعل دائمًا:

- «سؤالك هذا جدير بالاهتمام يا سنيوريتا... فهل أنتِ على دراية بتاريخ دولتنا الحديث؟ لا أعلم..».

ومع أنه رد على سؤال الفتاة اليهودية التي تشبه بشرتها ورق الكتب المخطوطة العتيقة «أيمكن أن تأتي الفاشية إلى هنا أيضًا؟» ليظهر اهتمامه بالكلام الدائر منذ قليل؛ إلا أن دون لويس المتبحر في علم الاقتصاد كان بهذا قد أجابها فورًا على أي حال ودون خوف من انقطاع نفسه.

تحدث دون لويس دكتور الاقتصاد حاكًّا بين الفينة والأخرى رأسه الأصلع وبعد أن بحث بدقة كبيرة في رفوف عقله للعثور على الأرقام والتواريخ، كان يتحدث كأنه يقرأ كتابًا؛ لكنه كان يتحدث بحرص كما لو كان يتلو نشيد الثورة:

- «لا يمكن منحك إجابة عن سؤالك يا سنيوريتا؛ إلا بمراجعة التطورات الأخيرة لتاريخ إسبانيا، فالبرجوازية الإسبانية لا تشبه الطبقة البرجوازية في فرنسا مثلًا، فالبرجوازيون الفرنسيون أظهروا شجاعتهم إلى حد ما ضد الملكية خلال الثورة الفرنسية العظيمة؛ أما برجوازيو بلدنا إسبانيا فلم يثورا في أي وقت مضى في تاريخ بلدنا، وهذا إنما يحمل دلالة غريبة، فمنذ أن ولدت هذه الطبقة في إسبانيا رأت في مواجهتها زمجرة طبقة العمال الإسبانية أو المُقبرين -حسب المصطلح الشهير- ملتصقين بمقابض معاولهم، ومن الطبيعي إذا انتصب رسل الموت في مواجهة الطبقة محدثة النعم؛ ألا يبقى أمامها إلا عمل واحد: الاتحاد مع الماضي... ليس بتصفية المؤسسات التي لم تأتِ من الماضي

فحسب؛ بل بالحفاظ على عدم تقدمها أيضًا، وهذا ما فعلته طبقتنا البرجوازيه، وزعت الأراضي الكبيرة على الأمراء وتبادلت الحدائق في ما بينهم، وبناءً على هذا فنحن المتمسكين برأس المال الأجنبي في إسبانيا وبخاصة رؤوس أموالنا النقدية؛ ساحة معدة منذ عام 923 لمجيء الفاشية إلى إسبانيا».

كانت المرأة التشيكوسلوفاكية تتطلع له بذهول وهو يتكلم، فلم تكن تعي كلامه كثيرًا، كان ينطق هذه الجمل الجامدة بصوت قوي لدرجة...

سألت المرأة الدنماركية هذه المرة باهتمام:

- «أي أنك تقول إن الفاشية يمكن أن تأتي إلى إسبانيا؟».

تجرع دون لويس القهوة السوداء التي أمامه في جرعة واحدة وكانت القهوة ساخنة فاحترق فمه؛ لكنه لم يأبه، أفرغ الكوب حتى نهايته دون توقف، ثم قال جاذبًا بين حين وآخر أنفه الطويل الذي يبدو أنه مصاب بالزكام على الدوام:

- «أيتها السنيوريتا! إن إمكانية مجيء شيء ما لهو أمر يختلف عن إمكانية عيشه، وحتى إمكانية استمراره بعد قدرته على العيش شيء آخر تمامًا؛ فتحقق استمراره ليست مسألة يمكن قياسها خلال سنوات معدودة!».

قال الرسام رودريغو:

- «كم عقَّدت الحديث يا لويس!».

رد علي لويس:

- «أجل؛ لقد عقّدت الحديث بالفعل، فأنا عندما أتكلم بالأرقام أشعر بنفسي مرتديًا بدلة فراك أو سموكن، تحدثت بحديث معقد من جديد؛ أليس كذلك؟ انتظروا لأوضحه لكم. أنتِ دنماركية يا سنيوريتا؛ وأنتِ كذلك تشيكوسلوفاكية، عندما تُذكر إسبانيا ماذا يخطر على ذهنيكما؟ لأقول أنا: إن إسبانيا حديقة عريقة ومذهلة منبسطة بألوانها الصفراء والحمراء والخضراء والزرقاء وجميع الألوان البراقة بحذر أسفل الشمس المتوهجة، نساؤها السمراوات وهن يمشطن شعورهن السوداء اللامعة بأمشاط مقابضها كالمروحة، ويعلقن الورورد الحمراء، ويرقصن مطيرين أذيالهن المنفوشة في كل فرصة، رجالها زبانية

جهنم ذوو النظرات الحارة الساحرة بسكاكينهم التي يتقاطر الدم من نصالها، بالإضافة إلى مصارعات الثيران الكثيرة والرائعة في إسبانيا، فإسبانيا هي بلد الكاتدرائيات التي تحمل في كل نحوتها جمال غموض التصوف الكاثوليكي وبوابات الأديرة وأجساد العذارى العارية المنحوتة على الخشب المحروق وقصور الأندلس والبغال ذات الشرابة والبرتقال الذهبي والأغاني وحكايات بلاسكو إيبانييث عن الموت والحب وكثير من الشعراء المتسولين والخمور الثخينة كالعسل والسوداء كدماء الجاموسة. فإسبانيا ليست بالنسبة لكِ إلا هذه الأشياء التي أحصيتها من أولها لآخرها تقريبًا؛ وعلى الرغم من أنكم قد تكونون قرأتم رواية ثيربانتس «دون كيشوت»؛ إلا أنكم لم تفكروا أبدًا في كون هذا الفارس المهموم النحيل إسبانيًّا».

كانت المرأة التشيكوسلوفاكية منصتة؛ لكن المرأة الدنماركية اعترضت:

- «بالنسبة لنا ليست إسبانيا كما ذكرت بالضبط».

طلب دون لويس كوبًا آخر من القهوة السوداء ثم أكمل كأنه لم يسمع اعتراضها هذا:

- «لا بدَّ أنه توجد لديكم قناعات غريبة ليس تجاه إسبانيا فقط بل تجاه كل بلد لم تروه بالكامل أو مررتم منه سريعًا، وإنما يزودنا بهذه القناعات: الرسومات المطبوعة في كتب الجغرافيا إبان طفولتنا والحكايات والروايات المتعلقة بهذه البلدان التي قرأناها بعد ذلك والأفلام التي رأيناها والمسرحيات التي شاهدناها وإعلانات الوكالات السياحية والأغاني التي سمعناها. فأكثر الفنون الجميلة نيلًا لإعجابنا وأكثرها خداعًا لنا على وجه الخصوص؛ تحكي لنا حكايات تحرص فيها على القطع بأغلب الألوان والروائح والأضواء في البلدان التي لا نعرفها، حكايات جميلة ومشوقة وجديرة بالإعجاب؛ لكنها فقط حكايات».

اعترض الرسام رودريغو هذه المرة:

- «أنت تتمادى في مبالغتك كلما تقدمت في الحديث يا لويس!».

- «لا يا رودريغو؛ فأنا لا أقول إن الفنون الجميلة «برمتها» تحكي حكايات، بل قلت «أكثر»، فالاستماع للحكايات يثري خيال الأطفال».

- «حسنًا! وكيف يجب علينا معرفة بلد لا نعرفها؟».

جذب دون لويس أنفه ثانية وحك رأسه الأصلع تمامًا ثانية ثم قال:

- «بالأرقام، يعني بالأرقام التي تحدثت بشأنها قبل قليل، فإذا أردت أن تفهم دولة بالكامل أو العالم كله حتى؛ من الأساس في وقت قصير وبسهولة؛ يجب عليك معرفة كل شيء بالأرقام، ففي عضدي أصدقائنا قصار القامة هؤلاء قوة مدهشة غير متوقعة مع أجسادهم المحنية، أنا أعرف بالأرقام أن بمقدرتهم أن يطوحوا جدرانًا منيعة عالية بقبضاتهم وما يلبث ما خلفها أن يظهر كأنه كتلة فضية مضيئة، يا إلهي! لطفًا لا تفهمني خطأ ثانية يا رودريغو! فأنا فقط أقصد أن تبدأ الرحلة معتمدًا في معرفتك على الأرقام؛ وإلا فإنني لا أقصد أبدًا أن الأرقام هي كل شيء، أحِب الأرقام يا رودريغو! الأرقام التي تصطف وراء بعضها وتجمع وتطرح وتقسم ويحسب مجموعها، فلو أنك تريد معرفة إسبانيا على سبيل المثال! ادخل أولًا إلى عالم أرقامي المليء بالطلاسم، ثم اقرأ لبلاسكو إيبانييث وشاهد كاتدرائياتها ورسوماتها، أتريدين معرفة إسبانيا يا سنيوريتا؟ لأفتح لكم بابها الخارجي أولًا بالرقم المشهور ثمانية عشر، ثم تجولوا بيسر في حجراتنا على موائدنا بمعاونة أغانينا وأشعارنا ورواياتنا وستفهموننا وتفهمون طموحاتنا والمشاكل التي تواجهنا.

وأنا أرقامي أرقام متواضعة باهتة لكنها ذكية بدرجة خارقة فأحيانًا مؤمنة مدهشة وأحيانًا مستهزئة مخيفة لكنها على الدوام ثابتة، فأنا أبدأ العمل في أي كتاب جغرافيا للمرحلة الإعدادية ليس بالصور بل بالأرقام، فعدد السكان في بلدنا الجميل إسبانيا يقدر بـ23 مليون نسمة، يعيش ثلثا هؤلاء الـ23 مليونًا في القرى، وقبل أن يتنازل ملكنا النبيل المولع بالجولف عن العرش والتاج بكرم عظيم منه؛ كانت طبقة النبلاء تمتلك 30 مليون هكتار في أراضي إسبانيا التي مساحتها 50 مليون هكتار، انظروا لغرابة الرقمين: 30 مليونًا، 50 مليونًا! ضعوهما الاثنين إلى جانب بعضهما ثم دققوا فيهما بمواجهة بعض! ستتناهى أصوات إلى آذانكم، هذه الأصوات هي أهازيج القرى الإسبانية، وأنا على يقين بأنكم ستشعرون الآن أكثر بالحزن والكمد والأمل الذي يتخللها..».

تطلعت المرأة التشيكوسلوفاكية إليه بحيرة، كان يتحدث متمطقًا بفمه كأنما يستلذ بكل رقم ينطقه:

- «توجد في بلدنا إسبانيا؛ 38 ألف كنيسة ودير عبادة تقريبًا أيتها السنيوريتا العزيزة، وزيدي عليهم 5 آلاف صومعة، اجمعيهم! كم هو جميل جمع الأرقام! 38 ألفًا و5 آلاف يساوي 43 ألفًا، أمامنا 43 ألف معقل كاثولوكي؛ على الرغم من أن مدارسنا الابتدائية والإعدادية لا يتعدى عددها 35 ألف مدرسة، انتبهي! فالرقمان الجديدان اللذان تريدين الموازنة بينهما الآن هما 43 ألفًا و35 ألفًا، ولأجل أن تري العالم الذي انفتح أمام عينيك أسفل ضوء أكثر سطوعًا بعد هذه الموازنة؛ دعيني أخبرك برقمين أو ثلاثة أرقام آخرين! يوجد في مدينتنا مدريد بنك واحد شهير هو بنك أوريكيو، وهذه المؤسسة المالية المحترمة ملك رهباننا اليسوعيين النبهاء، ورأس مالها 125 مليونًا؛ كما أن رؤوس أموالهم تضم تحت عباءاتهم السوداء علاوة على هذا أربعة بنوك أخرى تمسك بتلابيب 85 مليونًا، ولا يمكنني التحدث أكثر عن الأرقام المتعلقة برؤوس أموال رهباننا في مشاريع أخرى لأنها ستستمر طويلًا، أنتم فقط ضعوا بأيديكم هذه الأرقام التي أحصيتها 35 ألفًا، 43 ألفًا، 125 مليونًا، 85 مليونًا؛ فكل منها مفتاح سحري لو أنكم لم تفتحوا روح «إسبانيا» الكاثولوكية بواسطته؛ لا يمكن لمعمار كاتدرائياتنا الأثرية التي يثير بعض منها الإعجاب حقيقةً؛ إخباركم بالشيء الكبير..».

بينما كان دون لويس على وشك الإدلاء برقم آخر أو اثنين؛ تجمع حشد مفاجئ في الشارع البادي من خلف زجاج المقهى، وكان هذا الحشد المبعثر يتدافع من رأس الشارع السفلي نحو دكان دونا مارية بائعة الزهور، وأمام المقهى بالضبط تهاوى طفل على الأرض وسقطت امرأة مغشيًّا عليها.

خرج كل نُدُل وزبائن المقهى على التو من بابه، وفي هذه الأثناء سُمع صوت مدفع وتكتكات البنادق الرشاشة من خلفهم.

عاد نادل فدخل المقهى ثانية وأوضح صارخًا بينما يرتدي بارتباك معطفه المعلق خلف النضد:

- «قام الجنرال فرانكو بتمرد في المغرب، وانضم إليه الآن عساكر الثكنات التي في المدينة فوضعوا المدافع الآلية على رؤوس الشوارع ويرددون صارخين «تسقط الجمهورية ويحيا فرانكو!»».

كان الرسام رودريغو يحاول قول شيء للسيدتين اللتين تسمرتا مكانهما؛ أما دون لويس فوقف وظل يحدق في الخارج وهو يجمجم قائلًا:

- «لأخبرك برقمين أو ثلاثة أخيرين، نحن لدينا نحو 24 فريقًا و57 أميرلاي و39 لواء و425 جنرالًا احتياطيًّا و319 جنرالًا فخريًّا و150 جنرالًا سحبت منهم الرتبة وأصبحوا عساكر».

كان التدافع مستمرًّا في الشارع ولم يبقَ هناك أحد آخر في المقهى غير الرسام رودريغو والمرأتين وعالم الأعداد دون لويس، وكان دون لويس لا يزال مستمرًّا في العد:

- «عدد عمالنا الصناعيين مليونان، معدل نصيب كل عائلة من الأراضي في القرى 3 هكتارات، فلا يمتلك الفلاح من فلاحينا الذين يقدر عددهم مليونًا هكتارًا واحدًا من الأرض..».

ثارت ثائرة الرسام رودريغو؛ لكنه قبل أن يفتح فمه تخلى دون لويس عن التحديق في الشارع وذهب من أمام الزجاج ثم اقترب من الرسام رودريغو متحدثًا ببطء:

- «والآن تآزرت كل هذه الأرقام، كما أنه لا يخطر على بالي حاليًا متوسط عدد القلة البرجوازية؛ لكن هؤلاء معنا».

كان الرسام رودريغو والمرأتان يتطلعون إليه مشدوهين؛ إلا أنه سأل فجأة كأنما يسأل عن الساعة:

- «أمعك مسدس يا ريدريغو؟».

أجابه روريغو:

- «لا؛ ليس معي».

حك دون لويس رأسه الأصلع وتحدث جاذبًا أنفه الطويل:

- «إن كان هذا فيجب أن يحصل كل واحد على مسدس فورًا، سأذهب أنا، وأنت أوصل السنيورتين إلى الفندق إذا سمحت! ثم اختبئ في إحدى النواصي وانظر ماذا ستفعل».

خرج دون لويس من المقهى بعد أن أدلى له بهذه النصيحة، وعقبت الفتاة اليهودية الدنماركية على خروجه من المقهى بقولها:

- «ياله من رجل بارد! لا يشبه أبدًا الإسبانيين».

لم يرد الرسام رودريغو، كان يفكر في ما سيفعله وكيف سيوصل هاتين المرأتين اللتين بقيتا معه إلى فندقهن سالمتين.

أصبح الشارع في الخارج الآن خاويًا تمامًا، إلا من ظل واحد أو اثنين من الناس المارين بهرولة كما لو أنهم يفرون من أمطار غير مرئية، سكتت أصوات البنادق الآلية القريبة وتناهت قعقعة إطلاق الأعيرة والقذائف من بعيد بصوت خافت.

لمح الرسام ريدريغو مقابله دونا مارية تمد رأسها بين رفوف الزهور والشال الأخضر على كتفيها فوق بلوزتها الصفراء، تطلع لها رودريغو باستغراب وأصابته الدهشة حيال اهتمامها المفاجئ هذا.

قالت الفتاة اليهودية الدنماركية:

- «يبدو أن التمرد أجهض بسرعة على الأغلب، فقد عم الصمت الأرجاء لو لاحظتم».

كان الرسام رودريغو لا يزال منشغلًا ببائعة الزهور؛ كانت دونا مارية تغادر دكانها إلى الشارع محاولة حمل جسدها الأسمر السمين على أطراف قدميها وتخطو بحذر على الأماكن التي تطؤها كما لو أنها طين لازب.

سارت حتى منتصف الشارع. لم يعد في الشارع أحد الآن! وكان من الواضح أنها تتقدم في هذا الشارع الذي عمه خواء كئيب خلال هذه الأوقات القريبة من الصباح؛ نحو الكاتدرائية التي بجوار المقهى.

قالت المرأة الدنماركية:

- «لنخرج نحن –أيضًا– من المقهى لو سمحت يا دون ريدريغو!».

لم يرد دون ريدريغو عليها ثانية؛ لأنه في هذه المرة صدرت قرقعة بندقية آلية قريبة للغاية وتردد صداها داخل المقهى الخاوي، فحول الرسام رودريغو الذي كان ملتفتًا إلى المرأة الدنماركية رأسه في لحظة إلى الشارع، كان الشارع كما كان بالسابق خاويًا تمامًا؛ بيد أن دونا مارية لم تكن واقفة، كانت ترقد منبطحة فوق الأحجار، وقد انزلق شالها الأسود المغزول من على كتفها اليمنى، وانفتحت تنورتها الحمراء تحت بلوزتها الصفراء وبانت ساقاها السمراوان المكتنزتان العاريتان. استمرت نيران البندقة الآلية، تطايرت الرصاصات المتعاقبة مثيرة الغبار في الشارع ومخترقة كل مكان ومندفعة وسط الماء الراكد كأنها قطع أحجار.

تراجع الرسام رودريغو إلى وسط المقهى قابضًا على معصمي المرأتين.

قالت الفتاة اليهودية الدنماركية:

- «ماتت المرأة، لم يتم إخماد التمرد».

سألته المرأة التشيكوسلوفاكية:

- «ماذا سنفعل يا رودريغو؟».

ثم استدركت مملسة بيدها اليسرى أسفل عينيها كأنها تحاول تعديل عظمتي وجنتيها الناتئتين:

- «لا تفكر بنا! فنحن يمكننا البقاء هنا على أي حال؛ لكن ماذا ستفعل أنت؟».

لم يكن رودريغو يعلم ماذا سيفعل... صمتت ثانية البندقية الآلية غير المرئية بالخارج، ولم يعد يصل إليهم صوت سلاح بالخارج... أطبق الصمت بالخارج لدرجة أحجمت انطلاق صرخة مفاجئة من حلق رودريغو.

تحدثت الفتاة الدنماركية:

- «لقد نصحك صديقك لويس بإيجاد مسدس والاختباء في إحدى الناصيات، أتعلم كيف تطلق النار؟».

- «لا لم أستخدم مسدسًا أبدًا».

ثمة أصوات أقدام في الشارع...

تطلع رودريغو والمرأتان من المكان القابعين فيه إلى الخارج، فرأوا دكان الزهور والأرملة دونا مارية بائعة الورد غارقة في دمائها أمامه كأنها بقعة دماء كبيرة، وضابطان إسبانيان شابان يتقدمان نحو زجاج المقهى.

نظر أحدهما إلى الداخل مستندًا بأنفه إلى الزجاج، كان له وجه مفلطح...

صرخت المرأة التشيكوسلفاكية:

- «يا إلهي! كم يشبه بالضبط الوغد الذي كان بجانب المرآة..».

عندما ولج الضابطان ببندقيتهما المقهى علم دون ريدريغو أن الرجل الذي كان ينظر من الزجاج لا يشبه قائد معسكر الاعتقال الشمالي الذي أغرم بالبهلوان ذي المايوه الأبيض؛ لأن خده الأيمن ليس مشقوقًا أولًا، وثانيًا لأنه إسباني ولأن ريدريغو يعرفه جيدًا.

صرخ أحد الضباط:

- «هلم يا مَن هنا؛ اصرخوا «يحيا فرانكو، تسقط الجمهورية!» ثم اغربوا من هنا على الفور».

بيد أنه لم ينفذ أحد هذا الأمر؛ لا الدنماركية اليهودية ولا زوجة البهلوان ذي المايوه الأبيض ولا حتى الرسام دون رودريغو. دنت المرأتان أكثر من رودريغو فقط...

جاء الشاب الذي شبهته المرأة التشيكوسلوفاكية بقائد معسكر الاعتقال الشمالي صاحب زي (A.S.) والوجه المفلطح ذي الخد المشقوق ركضًا فدفع المرأتين وأمسك بتلابيت رودريغو صارخًا فيه:

- «ألم تسمع؟.. نفذ ما قالوه لك..».

وقبل أن ينهي كلامه... انطلقت قهقهة غريبة ومبتهجة:

- «واهٍ يا رودريغو! أهو أنت؟! ماذا تفعل هنا؟».

أجابه رودريغو بسخط:

- «كنت أحتسي القهوة مع هاتين المرأتين الأجنبتين... لو أنه ليس لك سؤال آخر

دعنا لنذهب..».

انضم إلى جواره الضابط الآخر في هذه الأثناء وسأل صديقه مشيرًا إلى رودريغو:

- «من يكون هذا الوغد؟».

رد ساخرًا من معرفته برودريغو:

- «واحد من الرسامين الذي يقطعون رؤوس الناس، جاء في العام الماضي إلى قريتنا لرسم لوح للقرويات، إنه أحد الأوغاد المهووسون ذوي الأفكار العجيبة، ورغم أن أبي دعاه كثيرًا لزيارة قصرنا إلا أنه لم يتنازل لرسم أختي الدوقة سوكر..».

قال الآخر الذي كان يستمع لتوضيحه هذا متململًا:

- «يبدو أنه جمهوري، ومن الممكن أن يكون فوضويًّا أيضًا..».

كانت إجابة دون رودريغو اليوم أو عدم إجابته ستودي به إلى نفس المصير؛ لذا هم رودريغو الذي فار الدم في عروقه بالصراخ قائلًا: «وماذا لو كنت!...»؛ إلا أن أصوات الأقدام المختلطة والصرخات تناهت من الشارع بالخارج من جديد...

لم تُكمل

لم تقع في أيدينا مسودة من رواية «حق الحياة» لناظم حكمت، كما لم يمكننا كذلك الاستمرار في نشرها مسلسلة جراء استحالة الحصول على كتاباته إثر اعتقاله.

*18 يوليو 1936م: اندلاع الحرب الأهلية الإسبانية بين الجمهوريين الموالين للديمقراطية بقيادة الجبهة الشعبية، والقوميين تحت قيادة الجنرال فرانسيسكو فلانكو، استمرت الحرب قرابة ثلاث سنوات وحصدت أرواح نحو مليون شخص، وفي الأخير فاز القوميون وحكم فرانكو إسبانيا من أبريل 1939 حتى وفاته 1975.